

د. رُشدي فَكَار

المفكر الاسلامي العالمي

عضو المجلس الاعلى للثقافة في مصر

في حوار

حول الحاضر بالملاضي

عبر الاندلس

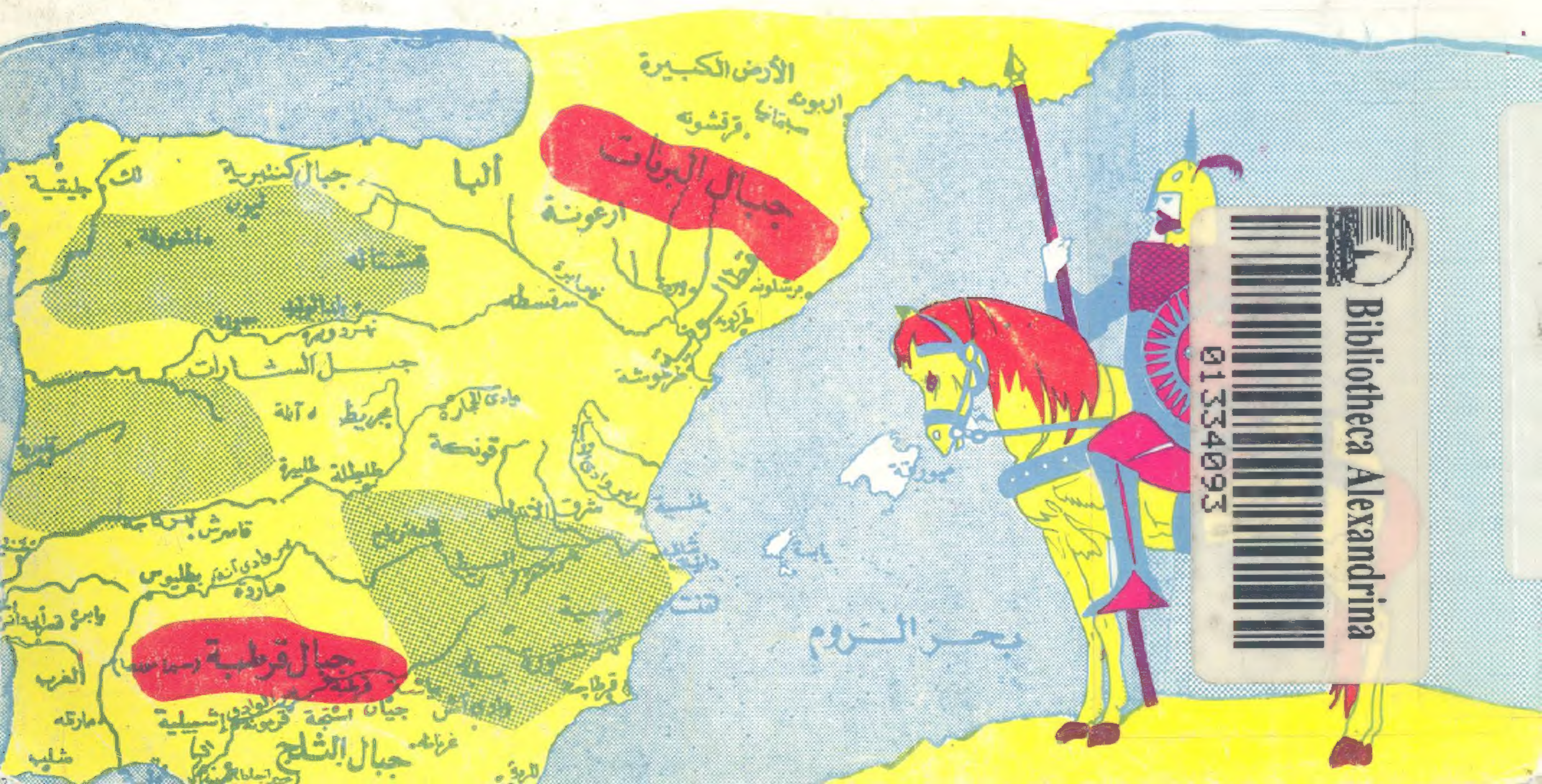
الناشر
مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون ٣٩١٧٤٧٠

إعداد وتقديم

سيد أبو دومة



هذا الكتاب

هذا المؤلف الذى يحمل عنوان « د . رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس » يشكل المجلد الرابع من سلسلة الحوارات المتواصلة مع مفكرنا الإسلامى العالمى الدكتور رشدى فكار ، وقد جاء فى إحدى عشر حلقة وملحقات بعد تقديم من المعد له . خصصت سبع حلقات لمسيرة الأندلس منذ الفتح حتى سقوط غرناطة ، مروراً بعصور الولاة ، والإمارة ، والخلافة ، وملوك الطوائف ، وغرناطة الحبيسة ، وأربع حلقات أفردت للتقنين الموضعى ولخصيلة الأندلس فى مختلف أبعادها ، فضلاً عن أسباب تراجعها وعوامل إنهياره معرفةً بيؤثر ضياعه من خلال البكائين والمتباكين عليه ، ومن سار فى دروب الفتن والدسائس من سماسة العصبية والتفرقة والتمزيق ... ، كما عرفت بقلاع مجده عبر قاداته الأبطال المجاهدين ، وعلمائه مجتهدين ومبدعين : مفسرين ، ومحدثين ، وفقهاء ، ولغويين ، وتربويين ، وفلاسفة ، ومتصوفة ، ورياضيين ، وأطباء ، وفلكيين ، ورحالة ، ومؤرخين ، وجغرافيين ، وأدباء وشعراء وفنانين ... فما أروع الأندلس فى عظمتها وما اقساه فى إنهياره ... هذا الأندلس الذى ترك أثراً لا تمحى ليس فى حضارة الإسلام فحسب ، وإنما غنّى حضارة الغرب ، وبخاصة فى إرهاباتها الأولى ، وهى تدين له بالكثير ...

أعدّ الحوار وقدمه الكاتب الإسلامى السيد أبو دومة الذى يعرفه القارىء كمحرر من ألمع محررى جريدة الأهرام القاهرية ، وقد أعدّ كتاباً ظهر من قبل ، عن مفكرنا الكبير بعنوان « رشدى فكار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب » .

« د . رشدى فكار فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس » ، هذا المؤلف الهام الذى يتميز بأسلوبه المبسط ، والمباشر ، معتمداً على نصوص ووثائق تمتد على حقبة تاريخية تجاوزت ثمان مائة عام ، ويقدم صورة حية « للفردوس المفقود » فى مراحل عظمتها ، وفترات انهياره ، بلا شك سوف يجد له مكاناً متفرداً فى المكتبة العربية المعاصرة .

مكتبة وصية

د. رُشدِي فَكَتَار

المفكر الاسلامي العالمي

عضو المجلس الاعلى للثقافة في مصر

في حوار

حول الجائز بـالملاضي

عبر الانترنت

إعداد وتقديم

سيد أبو دوية

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

عرفت حضارة الإسلام ، فى مسيرتها التى تعبر بها مشارف القرن الحادى والعشرين بعد مرور خمسة عشر قرناً منذ أن شمع نور الوحي الإلهى على البشرية ، مراحل إشراق وفترات إشعاع ، كما عرفت التقلص مكتفية بالدفاع عن معاقلها ، وما ذلك نتيجة لتراجع الإسلام وإنما لتراجع المسلمين . من فترات الإشراق والإشعاع تحسب ، وفى الصدارة الفترة الأندلسية ، ثمانية قرون تقريباً من العطاء وعبر مختلف دروب المعرفة تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتأصيلاً لمبادئ الإسلام ، وتفتحاً فكرياً فى ميادين الفلسفة والعلوم طبيعة أو إنسانية بما فى ذلك الدراسات التاريخية والجغرافية ، فضلاً عن الآداب والفنون ، الأندلس تغذى وغذى حضارة الإسلام ليغذى حضارة الآخرين ، وبخاصة حضارة الغرب فى إرهاباتها الأولى .

قدم الأندلس أو الفردوس المفقود ما قدم رغم معاناته فى مختلف مراحلها من هبوب رياح الفرقة والفتن والمكائد والدسائس والمؤامرات ، وتبادل الطعنات من داخل وخارج الدار .

الأندلس تعرف عليه المؤرخون وعرفوا به معاصرين ولاحقين ، مما شكل منجماً غنياً بالوقائع والأحداث ، وما زلنا حتى يومنا هذا نلاحظ بين الفينة والأخرى إسهاماً يتمثل فى اكتشاف وثيقة أو مخطوط يعنى هذه الفترة أو تلك من تاريخ الأندلس ، وبرزت أعمال جادة حاولت أن تستوعب الأندلس استيعاباً يليق بما قدم للبشرية من عطاء ، نشيد بها سواء ما قدمه المتخصصون فى الأندلسيات بالشرق والمغرب ، أو ما أسهم به النزهاء من المستشرقين أسبانيين أو غيرهم ، ماضين أو معاصرين .

ومع هذا كنا نتطلع دائماً لحوار حول هذا الأندلس ، حوار يعنى الحاضر فى الماضى كما يعنى الماضى فى الحاضر ، وكان تطلعنا وطموحنا أن يتم هذا الحوار من خلال عطاء مفكرنا الكبير الذى يحظى بسمعة عالمية وإسلامية موضع التقدير والإعزاز ، وعلى حد سواء ، هذا المفكر الذى غذى حضارة الغرب بإسهاماته الجادة كما غذى حضارة الإسلام ، فهو بحق رائد من رواد الحضارتين ، نشأ كما هو معروف فى قرية متواضعة من قرى صعيد مصر ، وتربى تربية دينية فى طفولته لتستمر أزهرية (نسبة إلى الأزهر) فى شبابه ، ليمتطى ركاب حضارة الغرب ، وليصبح فى النهاية من أبرز مفكرىها المعاصرين وبخاصة ما يعنى النظريات الوضعية : سانسيمونية وكونتية وماركسية وتطورية ... إلى غير ذلك من إفرازات حضارة الغرب والتى فى جوفها تبلورت علوم الإنسان المعاصرة والرئيسية منها كعلم الاجتماع (السوسيولوجيا) وعلم النفس (السيكولوجيا) والأنثروبولوجيا الاجتماعية .

إنه رشدى فكّار الذى عُرِفَ بسيرته فى أكثر من كتاب صيغ عنه ، فمن تحصيل الحاصل أن نعود إلى هذه السيرة التى خطت معالمها الرئيسية فيما وضعه الكاتب الإسلامى المعروف خميس البكرى وذلك فى مجلدين عن « رشدى فكّار ومشاكل العصر » ، « ورشدى فكّار وقضايا تراث المسلمين » ، أو المجلد الذى وضعه السيد أبو دومة عن مفكرنا بعنوان : « رشدى فكّار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب » ، فضلاً عن الدراسات الأخرى التى عالجت فترات من حياته أو مراحل فكرية معينة من إنتاجه .

لهذا نكتفى بالإشارة هنا إلى أحدث ما أنتجه مؤخراً وظهر له فى المكتبة العربية كمؤلفه الذى يحمل عنوان « عن الحوار الحضارى فى بُعد واحد : الأنثوغرافيا والسوسيوجرافيا ولزوم التعريف فى مدخلهما برحالة الإسلام » (منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٨) ، وما ظهر له فى المكتبة العالمية ونعنى بذلك نظريته الحوارية فى الاجتماع العربى

الإسلامي ، ثلاث مجلدات بالعربية مع استخلاص لكل مجلد بالإنجليزية والفرنسية ، عن دار النشر العالمية، جيتير بباريس . ١٩٩٠ .

وكان علينا أن نتصيد الوقت الملائم الذي تسمح به المشاغل المتعددة والالتزامات المتنوعة لهذا المفكر الكبير الذي بات العثور على جلسات متعددة معه يجرى من خلالها الحوار ، قضية تحتاج لمزيد من التحضير والمواظبة التي لا تزعج مفكرنا ولا تؤثر في حضوره هنا وهناك عبر المحاضرات الجامعية واللقاءات العلمية والمؤتمرات العالمية .

وقد كان ، فمن المعروف أن لمريدي الدكتور رشدي فكّار ومحبيه مكانة متميزة ورجاء مقبولاً يتمشى وما أخذه على عاتقه من رسالة ليبلغها لجيله وما يتلوه جيلاً بعد جيل ، وتقبل مفكرنا هذا الرجاء ، فكانت الحلقة الأولى عن بداية تعارفه مع الأندلس ، ثم تلتها حلقات عن عصر الولاة وعصر الإمارة والخلافة ، ثم التراجع ودويلات الطوائف رغم الإنقاذ المرباطي والموحدي ، وما كان من مصير غرناطة الحبيسة ، وقد أفرد لهذا الحوار سبع حلقات متتالية تتميز بأسلوب مفكرنا التلقائي ومصادقته وتسلسل الوقائع والأحداث دونما مغالاة أو إنفعال أو تغافل أو إغفال .

وفي حلقات أربع كان تقنين مفكرنا الهاديء الرصين للفردوس المفقود عبر جولة في بؤر الضياع بين الخاسرين والبيكّائين والمتباكين ، وجولة في قلاع المجد ، قدم لنا فيها مسيرة الأبطال المجاهدين منذ بداية الفتح وعبر عصر الولاة والإمارة والخلافة ، وحتى في فترات التأزم والتراجع والانهياء ، فهذه الفترات الأخيرة مع هذا حفلت بالأبطال المجاهدين مرابطين وموحدين ومرينيين وصامدين ممن جسدوا الإصرار على إيقاف تنفيذ مسلسل الضياع أو تأخيرها لعدة سنين ، وما بقاء غرناطة حبيسة رابضة فوق صخرتها متجاوزة القرنين من الزمان إلا مثالا لهذا الصمود وهذا الإصرار كرموز تركت بصماتها في صفحات التاريخ لهؤلاء المجاهدين الأبطال .

كما قدّم لنا مسيرة أخرى هي مسيرة الاجتهاد والإبداع الأندلسي ، علماء مفسرين ومحدثين وفقهاء ولغويين ، سهرّوا وبغيرة على أصول الإسلام وتنقيتها من كل شائبة ، كما سهرّوا على تبليغها وتحمل أمانتها من جيل إلى جيل ، وذلك جنباً إلى جنب مع مجتهدين ومبدعين آخرين تربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفة ، وأدباء وشعراء ورُحالة ومؤرخين وجغرافيين ... وغيرهم ممن أسهموا في الارتقاء بالإنسان وبخيراته وثرواته ، فضلاً عما عمر به الأندلس من فنّانين أشرقوا في دروب الفن المختلفة ، فكان هذا الإيقاع الحضاري المتكامل لأندلس حمل بحق راية التسامى بالإنسان ، وترك أثراً لا تمحى لا في حضارة الإسلام فحسب - كمرحلة من أعرق مراحلها - بل في حضارات الآخرين وبخاصة حضارة الغرب التي لا يمكن أن تُعزل في جذورها وإرهادياتها الأولى عن المد الأندلسي للعقل العربي المسلم المبدع .

وجاء استخلاص الحوار حول الحاضر في الماضي - ولم لا ؟ - حول الماضي في الحاضر ، ليؤكد لنا أن الأندلس ، هذا الفردوس المفقود سيظل قابلاً في ذاكرة الأجيال وفي ذاكرة الحضارات والثقافات نتلمسه عبر عطائه وإشراقه وإشعاعه كمفخرة من مفاخر حضارتنا التليدة ، ونتخذة كعبرة في الأزمات والنكسات لتتحوّل التزحلق والوقوع في انزلاق بؤر الضياع ، مرسخين لقلع المجد بفضل استذكارها ومراجعتها واستعادة رموزها كمعالم نستنير بها في مستقبل العصور .

هذا .. ونتوجه بالشكر لكل من ساهم وسهّل لنا مهمة إنجاز هذا الحوار الهام مع مفكرنا العالمي الكبير الدكتور رشدي فكّار ، وبخاصة الباحثة المغربية محمد العلمي والي - صاحب المكتبة الجامعية بالرباط - والدكتور جمال عبد الكريم الأستاذ بجامعة القاهرة ، الذي تفضل وراجع هذا الكتاب بعد مراجعة البروفات الأخيرة في المطبعة ، تحاشياً للأخطاء المطبعية في التواريخ والأسماء - والكاتبة الخاصة للدكتور رشدي فكّار ، وكل الإخوة الأعزاء ممن عاونونا في مصر والمغرب .

سيد أبو دومة

* * *

الحلقة الأولى

بداية التعارف مع الأندلس

وكانت الحلقة الأولى من هذا الحوار عن كيف تعرّف مفكرنا الكبير على الأندلس منذ طفولته المبكرة ، فأجاب : « جرتنا أقدامنا مع مجموعة من الأطفال يلهون إلى حديقة متميزة في قلب القاهرة « حديقة الأندلس » ، وكانت من الروعة آنذاك بمكان ومن الجمال وتنسيق الألوان ما يجعلها ترسب في الذاكرة ، وترسب في اللاشعور بين تصانيف ما هو محبب ومرغوب بالنسبة للطفل ، ومن ثمّ كان التردد عليها في المناسبات والأعياد ... » ثم جاءت مرحلة التعليم وتحولت هذه التسمية لحديقة غناء في قلب القاهرة لتعطى حقبة متميزة بمضامينها التاريخية ، وكان للتسمية وقع ، ولم لا ؟ إيقاع ، وحينما تعرفنا في سنوات الدراسة على هذا الأندلس .

كانت التسمية بحق اسم على مسمى فيما قدّم لنا في إطار التمدرس من معلومات ، وإن كانت محدودة ، إلا أنها كانت مشيرة وجذابة ، فالأندلس هو امتداد لنا خارج قارتينا الجذور والمحور ، آسيا وإفريقيا ، امتداد مشرق جمع بين قدرة الإنسان العربي المتطلع الواعي بقناعاته ورسالته التاريخية ، وبين رسالته الروحية الإسلامية الخالدة ، فهو حامل لواء العقيدة ، وحامل مشعل الحضارة والتنوير ، حضارة أثرت البشرية بما قدّمت من مثل عليا ، وما نفذت من عمران وإبداع وابتكار في مختلف دروب المعرفة .. فناً وأدباً وعلماً .

وهكذا رأينا الأندلس ، أندلس القادة المتبصرين والواعين برسالتهم الدينية والحضارية ، وأندلس العلماء والفقهاء ، والفلاسفة ، والمتكلمين ، أندلس الشعراء ، والأدباء ، والكتّاب ، ولم لا ؟ الفنانين والموسيقيين ، هذا البناء الحضارى الشامخ جذبنا إليه في إشرافه وفي معاناته ، لذا حينما استقر بنا

المقام فى باريس ، لم تشغلنا اهتماماتنا بالعلوم الإنسانية وبتخصصنا وما حوله أن نتزاحم فضولياً بين المتزاحمين على محاضرات أساتذة الأندلسيات ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر « لفى بروفانسال » المستشرق المتخصص فى الأندلس ، وليس بغريب أن يهتم « لفى » بأندلسنا ، فقد كان رحيماً وعطوفاً بالنسبة لأجداده .

فى الوقت الذى كانت تُنصب المحارق فى أيام الآحاد بعد الصلوات لتصيد اليهودى التائه وحرقه فى الميادين العامة فى أوروبا الوسيطة لتأكيد لعنة المسيح عليه السلام ، كان الأندلس يحتضن بين جنباته الرحيمة ، هذا اليهودى الحائر والذى شخّصه فى كتابه المعروف ابن ميمون الأندلسى ، « دلائل الحيران » أو « الحائرين » ، كُتِبَ بالعربية والعبرية واللاتينية . لقد كان « ابن ميمون » كغيره من يهود الأندلس ، لا ينعمون فقط بالراحة والاطمئنان والطمأنينة والأمن والأمان ، وإنما يبحثون وبكل حرية عن هويتهم ، ويفكرون ويكتبون ، بل ويساهمون فى أنشطة الأندلس وفى مختلف دروب المعرفة ، يتولون المناصب ، فضلاً عن ممارستهم للمهن والحرف الأخرى .

وقد كان من الطبيعى أن أقول الأندلس كان بالنسبة لهم أيضاً أقول عصر تمتعوا به ونعموا ، وبالتالي فضل جانب كبير منهم أن يرحل مع الراحلين بعد الأقول ، كما أن البعض الآخر سهر على ترجمة ما وصل إليه من حضارة الأندلس العملاقة إلى اللاتينية إلى جانب لغتهم العبرية ، والشىء بالشىء يُذكر ، ما دما بصدد هذه اللوحة عن اليهودية التى أفرزت اهتمام « لفى بروفانسال » بالأندلس ، أن اليهودى التائه ما عرف طريقه إلى القدس بعد أن صُفِّىَ حضوره مع بناء كنيسة القيامة وحرُم عليه أن يطأ بقدميه أرض القديسين من قبل الكنيسة ، عاد تحت راية الإسلام من الأندلس ليزور القدس ، بل وليستقر فيها رويداً رويداً كأسر يهودية محدودة بدأت تتكشف عبر القرون وتتسع لا لتتقاسم الأرض الطيبة مع أهلها كضيوف ، وإنما لترد الجميل فى القرن العشرين بطريقة لا تتمشى بل ولا تتفق مع أبسط المبادئ الإنسانية وروح الوفاء .

ومع هذا يعتبر اهتمام « لفي بروفانسال » بأندللسنا ، كاهتمام مَنْ حاول من اليهود ، أن يخفف من جرم القטיعة والنكران ، يستحق الإشارة والملاحظة . ومن هذا الموقع الفكرى المتعاطف مع الأندلس والمكتشف له والمتكشف على ذخائره وعطاءه ، كانت الرغبة التى تنتظر الظروف المواتية لتحقيق - ونعنى بذلك التعرف على الأندلس فى عين المكان - أو بعبارة مباشرة ما تبقى منه كآثار تشهد بأن الإنسان مهما تنكر فى لحظات العنف والانفعال والقטיعة لا يمكن بحال أن يبطل أو يزيل ما علق بذاكرة التاريخ وما تشهد به هذه الآثار ، رحل الأندلسيون من أندلسهم ، ومع هذا ما استطاع مَنْ أرغمهم على الرحيل أن يمحو آثارهم وإنما عاد ليتغنى بها ، ولكن بطريقته ، مفتخراً بما تم بها من إنجازات لا يمكن أن تُعزل عن تاريخه العام .

ذهبنا إلى هذا الأندلس فى بداية الخمسينات ، وجئنا مع الجائلين الأماكن التى حملتها إلينا كمسيحات الكتب التاريخية ، وبحق كان الانطباع الأول والتلقائى : أن الأندلس أكبر بكثير مما قُدِّم عنه عبر قنوات التاريخ والرصد ، بلا شك هذا الأندلس العملاق إن كان يشهد لمن بناه بشهادة العبقرية والإبداع والعطاء ، فإنه وبالضرورة ، يشهد على مَنْ أضاعه إلى أى حد كان قاصراً فى وعيه ، مجازفاً وشخصانياً فى طموحاته ، لا مبالياً فيما سيخطه التاريخ بالنسبة لجرمه وخطيئته . حيا الله أبطال الأندلس .

هكذا كانت مشاعرنا فى ركن منزوى من أركان قصر الحمراء بغرناطة ، وكان الوقت غروباً ، واستعدنا فى الذاكرة حركة القصر وما كان يفص به ساعة أمجاده من حياة وازدهار ، أيمكن أن يجول فى ذاكرة مَنْ عاشوا آنذاك من الأجداد فى لحظات النشوة والانبهار أنه سيأتى زمن يجلس فيه حفيداً من أحفادهم غريباً فى داره ، يتساقط الدمع من عينيه على أطلاله ، حقاً ما قاله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) . أو كما قال أبو البقاء الرندى فى قصيدته الحزينة فى بداية الأفل :
:

(١) آل عمران : ١٤٠

فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

لكل شيء إذا ماتم نقصان

..... إلى آخر القصيدة .

وتحاملنا لنقف تاركين المكان .. ، فلسنا فيه أكثر من سائحين ، فلقد أذن بقفل أبوابه من سدنته ، وكنا آخر مَنْ خرج منه ، وعبر نزولنا من هذه القلعة الشامخة جالت في ذهن أحداث وأحداث ، وتساؤلات وتساؤلات .. كيف حدث هذا ؟ كيف تحول صاحب الدار إلى غريب فيه ؟ وكيف تحول الغريب إلى صاحب الدار ؟ إنها قضية في أبعادها المعقدة من اختصاص المختصين والمتخصصين ، مؤرخي تاريخ الأندلس والمتصدين لعلميته وفلسفته ، باحثين عن ثوابته التاريخية وقائع ، وأحداث وعن عليّة سقوطه ، أما نحن فنكتفى من « فردوسنا المفقود » بدروس وعبر نستخلصها ، نعيش في عصر تتكالب فيه الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها ، كل يريد أن يستحوذ على نصيب الأسد .

وكان قدرنا اليوم كقدرنا الأمس في قلب المواجهة والتحدى ، فقد فرض علينا موقعنا الجغرافي من ناحية ، وتحكمنا كأمة في الممرات البحرية من مضيق جبل طارق مروراً بقناة السويس وبقية الممرات البحرية الأخرى ، فضلاً عن تحكمنا في أهم مصدر من مصادر الطاقة .. وأن أرضنا أرض النبوءات ومهد الحضارات ... كل هذا جعل الطامعين لا يكتفون منا بالقليل ، وإنما هل من مزيد ؟ أخذ ما أخذوها نحن اليوم ندافع وبإصرار عما تبقى ، ومن هذا الموقع يمكن أن يتصدر من جديد « الفردوس المفقود » الأندلس ، ليملى علينا بعض الدروس من مأساته لعل في ذلك ما يكون عظة لكل مجازف ، عظة لنا ولغيرنا ، ولم لا ؟ عظة لكل من تعمى بصيرته بأنانية ذاتية وشخصنة معتمدة ليضيّع باسم الدفاع عن بقاء ذاته مصير أمته ، وهو واع أن ذاته في الواقع هي ذات أمته ، وأن لابقاء له بدونها .

ما أروع هؤلاء ؟ ، وما أتعس هؤلاء ؟ ما أروع هؤلاء القادة ممن اخناروا في اللحظات الكبرى المصيرية أن يضحوا أو يستشهدوا لتبقى الأمة ، فبقيت وأبقت عليهم كنيراساً ورمزاً خالداً يستشهد به ويفتخر ، ومن أجله يستعيد

التاريخ ثقته في ذاته ، وما أتعس هؤلاء الذين أضاعوا بحسن نية - أو بسوءها - مستقبل شعوبهم ، فكانوا من أصحاب الخسارتين ، فما أشبههم بالحرفيين الذين يعبدون الله على حرف ، فهم يقودون الأمة على حرف ، حيث يقول الحق : ﴿ وَمَنْ النَّاسَ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خُسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

ومرت الأيام ، بل والسنون .. وما نحن اليوم نعود - ومن خلال هذا الحوار - لنكمل ما جال في ذاكرتنا ونحن نهبط من قصر الحمراء ، وهو جاثم في أعلى الربوة ، وننظر إليه من آن لآخر في هبوطنا ، غير دارين أو متلفظين بما هو أنسب وأدق للتعبير عن مشاعرنا نحو هذا القصر . أنتحسر عليه ونتأسى ؟ أم نعتز به ونفخر ؟ نحى هذا القصر كثابت من الثوابت التي تعطى لنا مزيداً من الثقة بالذات ، وتلمى علينا درساً نعبه من ذاكرة التاريخ ، حتى لا يتحول ما هو تحت أقدامنا من أرض وتراب كمعازل ندافع عنها الآن وبإصرار إلى أرض ينظر إليها أحفادنا - لا قدر الله - في مستقبل القرون نظرتنا إلى قصر الحمراء ، فكفانا أطلالاً نتباكى عليها ، ونستبكي .

فقصر الحمراء من الأولى أن يظل شامخاً كعبرة ودرساً يجرنا الحديث عنه إلى طرح متواضع لمأساته ، مأساة الأندلس ، ولكن قبل أن نتعامل مع فصول المأساة جدير بنا أن نبدأ من البداية لنتحاور أولاً مع أندلسنا المشرق ، وقبله مع مولده وتأسيسه ، وهل يمكن أن نتصيد في حوارنا عناصر تبرز لنا ما فيه من قلاع للمجد ، وما احتواه من بؤر للضياع ، وهل تتزامن في مسيرتها التاريخية أم أن بؤر الضياع تناثرت من البداية ، وكان على قلاع المجد أن تغطيها وتزيح عليها الرمال من آن لآخر ، أم العكس كانت قلاع المجد ثم تراجعت وتضاءلت وانكمشت لتتحول إلى بؤر للضياع .

احتمالات ثلاث سوف نتحاور معها بأسلوب هادىء ، ومبسّط ومباشر ،
تاركين للمختصين والمتخصصين فى هذه الحقبة الغوص فى ممراتها المظلمة
وقنواتها المتعددة ، فمن البداية نكررها ، لسنا بصدد وضع تاريخ للأندلس
أو إعادة لصياغة أحداثه ، أو تصحيح أو تصويب أو تخطئ ، أو إضافة
أو اكتشاف ، وإنما نجول فى الأندلس بين قلاع مجده وبؤر ضياعه ، لنتعرف على
أى الاحتمالات أقرب إلى فهمنا ، هل بدأ الأندلس ببؤر الضياع تاركاً لقلاع
المجد أن تظهر بين الحين والآخر فى فيافيه ووديانه ؟ أم العكس ؟ انطلق من
قلاع المجد وانتهى ببؤر الضياع ؟ أم تزامنا وتناغما فى كل فترة من فتراته ،
تتساكن قلاع مجده مع بؤر ضياعه ؟ ... وحلقتنا التالية نبدأها من البداية .

* * *

الحلقة الثانية

وماذا عن إقلاعه فى عصر الولاة

وتعود بنا الذاكرة إلى عام ٩١ هـ (٧١٠ م) لتقف وقفة متطلعة مع رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، متطلعة إلى المجد تحت راية الله ، لا طمعاً فى قصاص أو ثأر ، وإنما ما أكدته مسيرة الإقلاع ، كانت الغاية - ولو على الأقل فى البداية - أسمى من أن تنطوى فى دروب المنافع والمصالح ، وتحرك الركب لا مجازفة وتهوراً ، وإنما واع بما ينتظره متعرف على أرضيته ، حيث نلاحظ - كما حملت لنا المصادر والمراجع التاريخية - أن هناك جماعة ، قامت بما يشبه فى المخططات العسكرية المعاصرة استطلاع مواقع المواجهة والتعرف على إمكاناته .

هذه الجماعة هى جماعة طريف بن مالك المعافيرى ، واحد من رجال موسى ابن نصير ، كلف بالاستكشاف فعبر إلى الجزيرة التى تحمل اسمه ، وبالتالى أعطى إشارة الانطلاق بعد أن تأكد فى عين المكان مما قيل أن « يوليان » أمير سبتة قد عوضه على موسى بن نصير ثأراً لما أصابه من طرف القوط ، فلم تؤخذ معلوماته مأخذ الجدبة والنهائية إلا بعد أن أكدتها جماعة طريف بن مالك من المستطلعين .

وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن هؤلاء الرجال ، لم يتصرفوا بطرق تلقائية حباً فى الدماء ونشوة فى العداة والثأر ، وإنما على ضوء خطط مدروسة وبصبر وأناة ووعى ، مما يؤكد جدارة موسى بن نصير ويُعد نظره كقائد للجيش ، وسوف نرى أنه كان دقيقاً ، ليس فقط فيما يعنى الاستطلاع ، وإنما مدققاً فى خطته ، منضبطاً فى تنفيذها ، ولعل هذا يفسر الخلاف الذى وقع بينه وبين طارق ابن زياد حينما - وهو فى نشوة النصر والاندفاع - خرج على ما ألزمه موسى

ابن نصير بتنفيذه . ولكن عادا فالتقيا مرة أخرى متكاملين رافعين لراية الحق والمجاهد . طارق بن زياد غنى عن التعريف ، رجل الصخرة الذى تحمل اسمه حالياً « جبل طارق » تأكيداً لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) .

مكث اسم طارق بن زياد ، ومن الغريب أنه حينما تنطق تسمية جبل طارق باللغات الإنجليزية أو الفرنسية على سبيل المثال ، حيث تخفف الطاء وتدغم فى اللام ، يبدو للسامع عن بُعد أنه يستمع إلى جبل « ثار » ، وانطلق طارق بن زياد بعد عبوره لبحر الزقاق - أى البحر الأبيض المتوسط - زاحفاً نحو ما عُرف بالأندلس عبر قرون وقرون ، لا نقول عبور الغازي المدمر أو الفاتح المستلب ، وإنما عبور القائد الواعى بمسؤولياته ليس فقط بالنسبة لجيشه المنتصر ، وإنما أيضاً بالنسبة لمن أصبح مصيره فى يده من القوط والرومان ، فسمع لهم بسماحة الإسلام أن يقيموا طقوس العبادة وأن يتمتعوا بالحرية الدينية ، واستمر حتى طليطلة رغم ما شبَّ بينه وبين موسى بن نصير من اختلاف وقتى حول مخطط الفتح وخططه ، ولكن سريعاً ما التقيا وأكملوا زحف الرجال نحو الشمال إلى الشرق وأضيفت ولاية الأرجون « أراجون » ، وما حولها إلى خريطة الجيوش الرافعة لراية الحق ، راية الله ، مبشرة بعصر جديد لإنسان هذه الأرض .

وهكذا بدأت الطموحات الكبرى تمر عبر عقول الأبطال من قادة الجيوش وهم يخترقون جبال « البرينى » ، ولمَ لا ؟ ... حتى القسطنطينية ليعودوا إلى دمشق مقر الخلافة بعد أن تعم راية الإسلام كل ممالك الأرض فى أوروبا . موسى بن نصير وطارق بن زياد يرمزان فى فترة الإقلاع إلى غرس بذور قلاع المجد ، ولكن كان الاستدعاء إلى مقر الخلافة مع إيقاف الزحف .

علامة استفهام كبرى تطرح إن كنا نترك التفاصيل والغوص فى الأعماق للبحث عن الحثيات الموضوعية ، نترك هذا للمختصين فى جزئيات تاريخ الأندلس ، فإننا نتساءل مع المتسائلين ، وفى إطار هذا الحوار المبسط عن الاحتمالات المتعددة التى يمكن أن تبرر هذا الوقف للزحف والاستدعاء إلى مقر الخلافة ، فقد تعودنا أن المتعطش ، بل والمتسرع فى إيقاف المواجهات الحربية هو المهزوم ، فمن الصعب تقبل منتصراً يقف بانتصاره فى منتصف الطريق ، اللهم إلا إذا كانت هناك عوامل مبطنة يصعب على المتسائل . وبعد مرور ما يتجاوز اثنى عشر قرناً - أن يعطى فيها رأياً نهائياً وفى إطار حوار يركز على العبرة والدرس ، مما حدث ووقع ، أكثر من تفرغه لتعليل ما هو ثابت وصحيح فى تاريخ تغلفت فيه الطموحات الشخصية مع إبراز القدرات البطولية .. ولم لا ؟ مع الفتن والدسائس .

وعادا إلى دمشق ، وكانت الخلافة بدورها تودع « الوليد بن عبد الملك » ليخلفه « سليمان بن عبد الملك » ، وليد الذى ائتمر بأمره للزحف على الأندلس . وشهد البطلان فترة عمت فيها الدسائس وتعددت الفتن ، مما يجعل المتسائل أمام موقف فى حاجة إلى حثيات موضوعية ، القائد المنهزم أو المنتكس من الطبيعى أن يُقاد مسلسلاً ليدفع ثمن هزيمته ، محاكماً أو مسيقاً ، ولكن القائد المنتصر هو هذا القائد الذى تحتفى به الأمم وتخرج المدينة لاستقباله ، تحيى فيه البطولة والوفاء .

لقد انتصر موسى بن نصير ومعه رجله طارق بن زياد ، وكان ثمن انتصار هذا الرجل هو أن تُحمل إليه هدية ما وردت بذهنه ولا طافت بخياله ، حيث قُدمت إليه رأس ابنه عبد العزيز ، بعد أن اغتيل فى الأندلس وكان قد تركه خلفاً له ووالياً عليها ، واضطلع بالمسؤولية وأكمل مسيرة والده ومع هذا ، هكذا كان مصير الأب والابن ، أن انزوى منظوياً حتى مات فقيراً ، وابن حُملت رأسه جزاءً له على ما قُدم لتقدم لأبيه ، وبقي طارق بن زياد صاحب الصخرة الشامخة ، بقى لا فوق صخرته وإنما مغموراً كاد أن يمحو أثره ، ولكن إن ضاع طارق بن زياد

فى أزقة الدسائس والفتن والمؤمرات كجسد ، إلا أنه بقى طارق بن زياد كرمز يشهد بصخرته الجاسمة فى المضيق على أنه مكث فى الأرض وكان أقوى من الأحداث .

ماذا جرى فى دمشق لهذين البطلين ؟ ولماذا كانت هذه النهاية ؟ وكيف ؟ تساؤلات متعددة تُطرح على مستوى مؤرخى التاريخ وعلمائه وفلاسفته ، ولكنها تشهد دائماً على أن الأحداث الكبرى من الخطأ أن تُرى فى بُعد واحد أو أن يصيغها لنا مؤرخ انطلاقاً من تذوقه أو انتمائه أو ميوله ، وإنما تظل علامات استفهام كبرى ، نستقى على ضوئها الدروس والعبر ، لتؤكد لنا أن ممرات الدسائس وأروقة الفتن والمكائد ليست وليدة اليوم ، وإنما هى اليوم كما كانت أمس ، تجسّد لنا بؤر الضياع التى تختفى دائماً لتتصيد رموز قلاع المجد حينما توافيها المناسبات ، أو تسمح لها مواسم الارتزاق .

لقد كان موسى فى فترة وجوده فى الأندلس - وعلى نهجه سار ابنه حتى اغتياله ، هذا القائد المسؤول الذى يسعى بأمانة وإخلاص إلى تطبيق شريعة الإسلام ، يؤلف بين الجماعات لتتآلف وتتعايش وتتساكن ، تاركاً لمن خلف ابنه صورة واعية للسلف ، وقدوة جديرة بأن تُحتذى رُثاكنى فى تساميتها أثناء ولايتها وتوليها وقيادتها للمسؤولية .

وهكذا كان « السمع بن مالك الخولانى » الذى أخذ على عاتقه مهمة تكملة المسيرة بإصرار الرجال الصادقين ، حتى استشهدوا ، كان من بعده « الكلبى » ليأتى فى مرحلة تالية دور هذا الرجل « عبد الرحمن الغافقى » (١١١ - ١١٤ هـ / ٧٢٩ - ٧٣٢ م) رجل الجهاد ورجل الاستشهاد ، لقد عباً قوى المؤمنين زاحفاً بهم إلى المواجهة الكبرى ، ولكن مرة أخرى تساءل عبر معركة « بلاط الشهداء » ، هذه المعركة الفاصلة التى كان من الأولى أن تذكر كدفع للإقلاع إلى آفاق وساحات بلا حدود ، يُذكر فيها اسم الله ، وتتكامل فيها رسالة السماء تحت راية الإسلام الذى أكمل الوجدانية مبشراً بإنقاذ البشرية .

من الطبيعي أن الغرب ينظر إلى هذه المعركة الفاصلة التي دفع ثمنها أيضاً قائدها « عبد الرحمن الغافقي » باستشهاده ، على أنها وضعت حداً لهذا الكابوس الذي يُخيم على صدر أوروبا ، ومنها بدأت تنتعش موجات الاستعادة لما أخذ من أرض رغم إصرار الزاحفين وقناعاتهم . ولكن مرة أخرى ومرات ، أسهمت الدسائس والشهوات ومواكب الكيد والحقد والتشخص والانفتاح ، والرغبة في الانفراد بالكسب أو السُلطة بمعنى تسلط فجور النفس على تقواها ، لتسهم في تحقيق مطالب الخصم وتسهيل مهمته في استعادة الأرض ، وصدق المتنبي حين قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

الإقلاع مجسداً في فترة عصر الولاة ما بين (٩١ - ٩٢ إلى ١٣٨ هـ) الموافق لـ (٧١١ - ٧٥٥ م) فترة من الزمن لم تصل إلى نصف قرن ، ومع هذا شهدت من الولاة عدداً يدور حول العشرين ، إن كان هذا التعدد يُقبل في مرحلة لم يستقر الوضع فيها بالأندلس ، ومع هذا تترجم لنا إلى أي حد طبع الإقلاع بطابع المتغير لا الثابت والمستقر ، ويطابع التعدد لا التجانس والمنسجم ، فتعدد الولاة كان يناغمه ويزامنه تعدد في انتماء العشائر والقبائل لا في سلاطاتها فقط ، ولكن في مدى تعاونها أو تطاحناتها وتنازعها ، فضلاً عن التنوع لدى الآخرين من سكان الأرض ، رومان وقوط وغيرهم ، إلى جانب ما استحدث وعُرف بالمولدين ممن دخلوا في الإسلام أو المستعربين ، حيث إن اللغة العربية بشهادة الطرف الآخر جذبت إليها شباب النصارى وصادفت قبولاً وتقبلاً أسهم فيما بعد في إشعاع الأندلس أدباً وشعراً ، فقهاً وفلسفة ، بل وعمراناً وفنوناً ، وفي مختلف الجبهات .

وكان لقرطبة وإشبيلية ومن البداية إلى جانب مدن الأندلس الأخرى بصمات تركت على جبين حضارة الإسلام لا تُنسى ولا تُمحى ، إضافة إلى هذه الفئة التي

سنرى فيما بعد وعبر حوارنا إلى أى حد تمتعت فى أندلسنا ، ليس فقط بأمن وأمان الحياة ، وإنما بحرية الفكر وحق الكتابة والتأليف والترجمة ، ليس فقط بلغة العرب ، وإنما بلغتها ونعنى بذلك اليهود ، يهود الأندلس ممن تكاملوا مع حضاراته وتعاطفوا مع لغتها وفكرها ، وكان منهم من تميز بعطائه وإشراق موهبته كمثال « ابن ميمون » الأندلسى .

إنه إقلاع لد حضارى خارج أرضه عرف كيف يثبت الأقدام ، لا عبر برك من الدماء وتحت سيوف القهر والجبروت ، وإنما من خلال بث روح التسامح والتعايش والتعارف والتآلف ، حيث ظلت المواجهة فى إطارها المحدد لها بحدود المعارك ، أما المدن والقرى فكانت ترمز بهدوئها - رغم تنوعها وتعددتها فى انتمائها العشائرى والقبلى والسلالى - إلى التجانس مع دفاعها عن خصوصياتها ، باحثة عن حد أدنى تثبت به ما آلت إليه رغم أن صوت الجهاد كان هو الطاغى على غيره من الأصوات ، لأن جيوش الإسلام كان عليها أن تتواجه فى أكثر من ميدان .

تتواجه أولاً مع خصمها ومن يريد أن يستحوذ على انتصاراتها ، وتتواجه فيما بينها ، بل وتتواجه مع ذاتها باعتبار أن جانب الطموح والاستحواذ والتصدر والانفراد بالمكتسبات كثيراً ما كان يغلب لدى البعض غير واع بما وقع له فى حرب « البسوس » ، وغير قانع بكل ما وصل إليه من انتصارات ومجد ، كان من الأولى أن يتجاوز به أنانية النفس ، وهذا ليس بالضرورة كان قاسماً مشتركاً بين الجميع ، فلو كان الأمر هكذا - كما يزعم البعض - لأجهض الأندلس فى يوم مولده بل وفى عصر الولاة .

لقد كانت تتعايش فى أعماق هذه الجماعات مشاعر العزة وأصالة الانتماء وسمو الغايات ورفعة المثل ، مع أنانية الذات ورغبة الانفراد والتميز ، ولكن مع هذا كثيراً ما استطاعت هذه المشاعر أن تحوى هذه الأنانية فى اللحظات الكبرى الحرجة ولا تصل بها إلى حد الانفجار وعمق الضياع فى

الضياع ، لقد جسدت فقط بؤراً لهذا الضياع لا أقل ولا أكثر ، وظل جسد الأندلس يعاني منها مرة تتقيح وأخرى تلتئم ، تتساكن مع قلاع المجد ، تطفو وتخدم ، تتصدر وتراجع ، وكثيراً ما غزت الأحداث المعاصرة آنذاك هذا الاتجاه أو ذاك بين صفوف الجماعات .

فلا يمكن بحال أن نتجاهل وقائع كبرى معاصرة لهذه الفترة على مستوى قمة القرار في خلافة الإسلام حيث سقطت خلافة الأمويين وجاءت خلافة العباسيين ، وحدث بهذا الثقل لا يمكن أن تُتجاهل أصداءه بالنسبة لما يعنينا في عصر الولاة ، فحينما تبيت الرأس محمولة من الطبيعي أن الجسد يهتز وتضعف فيه قدرة الإيقاع والتجانس ، ويصبح أكثر تأهيلاً للتفتت والتشتت والتآكل والانحجار .

وهنا يمكن أن يُرى عبد الرحمن الداخل « كمعيد » لهذا التوازن الذي اختل بين أجهزة الجسد حيث فصل رأسه المحمولة ليؤهله إلى حياة جديدة تطبع بطابع الاستعادة للوعي ، والتي ظلت تسيطر على الجسد عبر سنين ، خصوصاً وأن ما انتهى إليه عصر الولاة من تعميق للفتن وتمزيق لما تبقى من الجسد نتيجة للصراعات والتنوع في التطاحن أهل الأندلس في إقلاعه المهتز ليبعث بالضرورة عن تجانسه وتوازنه في ظل رأس مدبرة قادرة ومستنيرة تتميز بممارسة المواجهة والصرامة والحزم ، وفي جملة مباشرة : ما يمكن أن تتحلى به القيادة في اللحظات الحرجة من حياة الأمم . ومعه ننتقل في حوارنا متواصلين عبر الأندلس إلى الحلقة الثالثة نجسدها في عصر الإمارة ، وفيها نتجه بفتوة الإقلاع إلى صرامة الاستقرار .

* * *

الحلقة الثالثة

ثم .. ماذا عن استقراره في عصر الإمارة

إنَّ مَنْ عاصر فترة الإقلاع وعبر دروبها وما عرفته من مَدٍّ وَجَزَرٍ ، من دفاع عن المعازل وتطلع إلى الامتداد والزحف ، سوف يتردد كثيراً حينما يتطلع إلى ما سيأتي من أحداث حيث إن الإقلاع جمع بين قلاع للمجد وبؤر للضياح ، بين مَنْ يبحث عن الشهادة والاستشهاد ، وَمَنْ يبحث عن الغنائم والمكاسب والاستبداد ، بين مَنْ يحمل راية شمولية أمة ، وَمَنْ يتوقع في العشيرة ويتقنع في القبيلة ، وهكذا اقترب الأندلس في بداية أبجديته من نصف قرن وهو في أمس الحاجة لإعادة حساباته واحتواء ما مُزَّق ، وتهدئة مَنْ تشنج وانفصل ، فضلاً عن أن المحيط العام ما كان أبداً يؤهل الأندلس للانسجام والتجانس ، فهناك سقوط وقيام ، وهناك الباحث عن الثأر والمتطلع إلى البديل .

وكان عبور « عبد الرحمن الداخل » ، هذا الأموي - صقر قریش - كما لُقِّبَ بذلك، المتوفى عام ١٧٢ هـ (الموافق لـ ٧٨٨ م) بعد إمارة استمرت ٣٤ عاماً بدأت إمارته بدخوله قرطبة عام ١٣٨ هـ (الموافق لـ ٧٥٤ - ٧٥٥ م) منتصراً في المعركة الفاصلة ، معركة المصاهرة بجانب الوادي الكبير ، على ما تبقى من الولاة ، وفي نفس الوقت منتصراً في بداية معركته مع الشتات والفتن والتفرق وتحزب العشائر والقبائل .

وهنا لا يمكن أن نستبعد ما كان يتحلى به من سمات القائد وتأهيل الرائد لتحمل المسؤولية ، أربع وثلاثون عاماً لعبد الرحمن الداخل حفلت بالصراعات المختلفة من الداخل والخارج ، فهو على رأس جسد تتصارع جزئياته ، وعليه أن يؤمن له الحد الأدنى من التجانس والانسجام ضماناً لاستمرارية الإمارة من الداخل ، وعليه أن يحميها مما يُدبّر لها خارجياً من أبناء عمومته وأعدائه على حد سواء ، وحينما نذكر أبناء العمومة ، نعني الأقربين شركاء الملة والدين

والمصير المشترك فى ديار الإسلام ، فالخلافة العباسية لم تتوقف فى بداية حكمه من توظيف كل ما لديها من وسائل للإيقاع به مستغلة طبيعة التنوع فى الانتماءات بين العشائر والقبائل ، وبالتالي التنوع فى الولاء .

فإن كان هناك مَنْ يتقبل المنتصر وصاحب السُّلطة متعاوناً ، متكاملاً ، متضامناً ، فهناك مَنْ يتقبله إذعائاً وامتنالاً لسطوته فى انتظار غد أفضل ، مترقباً لتداول الأيام ، متلمساً لأى فرصة ضعف أو خلل ليستعيد من جديد ما أفتقد ، وإن كنا بدأنا بالحديث عن ذوى القُرْبى ، « وظلم ذوى القُرْبى أشد » مع تسليمنا ضمناً بما بين الدولة العباسية والأموية من تصفية لحسابات مترسبة .

غير أن الذى يلفت النظر ويدعو للتساؤل فى حوار حول الحاضر فى الماضى ما ذُكرَ لدى البعض من تكامل ضمنى فى العداء لهذا الذى صارع فى بلاط الشهداء وما زال يطمع فى الاسترداد لما زحف عليه من أرض باسم الإسلام ، وهنا يرد فى الذاكرة هذا التعبير الذى يحاول البعض أن يبرر به المواقف الغير القابلة لأى تبرير وبدون حيثيات موضوعية ، ونعنى بذلك : « لنتحالف مع الشيطان فى سبيل هزيمة الخصم وإيقاع الشر به ولو كان شقيقاً » .. إن كنا لا نتقبل هذه الفرضيات بقلب رضى لأننا نبرأ بأى خليفة مسلم أن يصل فى ثأره إلى حد التنكر لصلة الرحم ، فضلاً عن العقيدة والإيمان ، لذا كان طبيعياً أن نجد هذا العباسى الذى قيل إنه تحالف مع الشيطان ولو كان ممثلاً فى عدو الإسلام ، نجد لدى البعض مَنْ يميل إلى أن نعت عبد الرحمن بهذه التسمية التى تضاف دائماً إلى ذاكرة التاريخ : « صقر قریش » ، كانت عباسية من خليفة عباسى ، على أية حال واجه عبد الرحمن الداخل فى كل الجبهات ورغم كل الأعاصير والرياح المتعددة فى مخارجها . واستقر هذه الفترة من السنين الطوال يعيد صياغة الإمارة ليس فقط على مستوى فئاتها البشرية ، وإنما على مستوى بيئتها العمرانية والحضرية .

فهو الذى وفى أواخر أيامه يُذكر له - من بين ما يُذكر - تأسيسه لجامع قرطبة ، فضلاً عن قنوات الماء وتشبيد بعض المعالم العمرانية بجانب قرطبة ، ويُذكر له الكثير والكثير ، فقد كان أميراً شاعراً بين الحين والحين ، يجالس الشعراء فى بلاطه أمثال أبو المخشى بن حنظلة التميمى الذى بكى فى أبيات مثيرة بصره الذى أطفأ نوره أمير أموى عقاباً له لميله إلى أخيه ، ووجدت المذاهب الفقهية أرضاً خصبة فى هذه الفترة .

ولقد كان أهل الأندلس أول الأمر « أوزاعيين » - نسبة للإمام الأوزاعى - ثم مالكيين بعد أن حمل المذهب إليهم شفتون بن عبد الله ، أو الغازى ابن قيس والذى - حسب ابن القوطية - قد أدخل الموطأ إلى الأندلس فى عهد عبد الرحمن أو بفضل نفر من الفقهاء ، وقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع والاجتهادات ، ومن ثم اختار هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) للوظائف الدينية فقهاءً مالكيين ، فانتشر المذهب وكان له أثراً كبيراً فى التطور الفكرى والثقافى فى الأندلس .

ولقد عرفت بداية حكمه القلاقل والفتن ، سواء من داخل أسرته الحاكمة مع إخوته أو ما عُرف بالحزب اليمنى . ولقد استطاع أن يتجاوز بحزمه هذه الفتن والقلاقل ، فضلاً عن نشره اللغة العربية فى مناحى مختلفة بما فى ذلك معاقل النصارى .

ويحاول البعض أن يتلمس الأعذار للفتن التى قام بها النصارى فى قرطبة وواقعة الخندق فى طليطة وغيرهما على أنها انعكاسات لما اتصف به هذا المذهب المالكى من صرامة فى الالتزام ومقاومة البدعة ، ومهما يكن فإن ما حدث من تطور فكرى وثقافى خلال هذه الفترة التى حكم فيها هشام بن عبد الرحمن أو الحكم بن هشام من بعده المعروف بالريضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م) لا يمكن أن يقارن بالفترة التى تلت بعد ذلك فى عصر عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) رغم ما شهده عصر هشام بن عبد الرحمن من تعبئة للفتوحات مثل حركات الطوائف التى اخترقت جبال الرينية .

أما عبد الرحمن الثاني - أو الأوسط - فقد كان أميراً بدوره محباً للشعر وإن كان قد وُصِفَ بأنه لا يتمتع بشخصية قوية ، فأشرك معه فى أمور الإمارة الفقيه يحيى بن يحيى ، وحتى طروب - وهى أحب نساء إليه - وزرياب المغنى ، ويُذكر له أنه أسس مدينة « تورسيا » ، وأحدث دار السكة فى قرطبة ، وصك النقود باسمه ، وعُرفت أيامه بأيام العروس ، كما أنه شيد الأساطيل البحرية لحماية الثغور من القراصنة . وقد كان زرياب يتمتع بشخصية متميزة تركت بصماتها على بلاط عبد الرحمن الذى اتجه به إلى ما كان عليه الخال فى المشرق من ترف ورفاهية .

فقد استهوى زرياب أهل قرطبة بفنه وبما قدّمه من نمط فى الملبس والسلوك ، بل حتى فى الولايم والمناسبات ، ويات مقلداً محاكياً ونموذجاً يُحتذى به فى المدينة ، وفُتِحَت قنوات الإبداع الأدبى بل والعلمى - فضلاً عن الفنى - فى قرطبة والأندلس لتنافس دمشق وبغداد .

وهكذا برزت أسماء شعراء أمثال يحيى بن الحكم بن الغزال ، وقد نعتة ابن حيان بأنه حكيم الأندلس عارفها وشاعرها ، فضلاً عن قيامه بعمل السفارة للأمير عبد الرحمن سواء فى القسطنطينية أو لدى من كانوا يعرفون بالمجوس الفنكين السمالين ، وما روى عن رحلته هذه كأحداث ووقائع وصف معق لطباع « الفنانين » وتقاليدهم وعاداتهم . كذلك يُذكر من الشعراء فى بلاط عبد الرحمن الأوسط « تمام بن علقمة » صاحب الأرجوزة الطويلة التى نظمها حول افتتاح المسلمين للأندلس ، كذلك حسانة التميمية بنت الشاعر أبى الحسين ... وغيرها وغيرهم الكثير ، فضلاً عن من عُرف من الفقهاء واشتهروا فى ذلك الوقت وجلهم مالكين أمثال « ابن المجاشون » وأصبغ بن الفرّج ، وعبد الملك بن حبيب .

وفى ذلك الحين كان عنصر المستعربين على وشك أن يتلاشى ويختفى فى العنصر العربى ، ولم يبق لنا منه إلا نماذج محدودة مثال « الأسقف بنجنسيس » ، ومع هذا لم تخل هذه الفترة من الصراعات الدينية المقنعة والتيارات المدمرة التى تعمل فى الظلام ، خصوصاً عبر حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) حيث شهد عصره تيارات متعددة تجسد الخروج عليه وعدم الإذعان لسلطته سواء من رعاياه من النصارى أو حتى من المسلمين العرب والمولدين أمثال بنى قسى سادة أرغوت ، وعبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وعمر بن حفصون .

وهذا الأخير تولى قيادة المستعربين فى جنوب الأندلس ، ورغم أن هذا الأمير « محمد بن عبد الرحمن » قد لجأ لشيخ قبائل العرب روؤسائهم كى يساندوه فى مواجهة الخارجين على سلطانه ، فما كان منهم إلا أن استغلوا ضعفه ومكنوا أنفسهم على حسابه فى نواحيهم ، وهكذا بزغت نزاعات بين هذه الطوائف من عرب الأندلس وعصر الإمارة القرطبية تذكرنا بما حدث فى بداية فتح الأندلس وعصر الولاة ، بل كاد هذا النزاع والتطاحن أن يقضى على إمارة قرطبة فيما بعد .

وهكذا أهلت هذه الفترة لإرهاصات عصر الطوائف أو الدويلات الصغيرة سواء من تولاهما من المولدين أو البربر أو العرب ، ولا يمكن تجاهل أيضاً الدور السلبي الذى كان يقوم به وزير هذا الأمير محمد - من سوء تعامل مع الرعية مما زاد فى اتساع حلقة العصيان .

وهذا ما يؤكد أهمية دورالحاشية فى تدعيم قيادة الأمة أو إضعافها ، ولم تقف الفتن والثورات عند حد ما كان يغلى فى داخل الإمارة فى مختلف نواحيها ، وإنما أضيف إليه هموم خارجية من المتطلعين لاقتناص الفرص وإعادة الكرة بالواجهة مع المسلمين ، فضلاً عن هجمات القراصنة الشماليين الفانكيين من عُرفوا آنذاك بالمجوس ، وكثيراً ما كانت لا تقف قرصنتهم عند حد المناطق الشمالية بل حتى الجنوب ، « الجزيرة الخضراء » التى أحرقت مسجدها ، بل وحتى المغرب .

وكان هؤلاء القراصنة يواجهون بمقاومة صارمة من حصون السواحل ، فيردون على أعقابهم خاسرين ، أو مكررين المحاولة عندما تتاح لهم الفرص من جديد ، وهذا بدوره يذكرنا بما كان يحدث في بعض المناسبات من إرسال السفراء لإيقاف هذه الهجمات ، وطرح التفاهم وتبادل الهدايا بدلاً من إراقة الدم والتخريب والتدمير .. كمجرد مثال : سفارة يحيى الغزال نحو الشمال .

هذا الجو الخائق والعامر بالفتن والمشبع بالهموم لم يمنع الأمير محمد بن عبد الرحمن من أن يعطى جانباً من اهتمامته للبناء والتشييد على مستوى الحصون والعمران ، بل وتهيبىء الجيوش فيما يُعرف بالطوائف لاستكمال رسالة الإسلام في صده إلى بقية الشعوب ، واقتدى به في ذلك أيضاً ابنه المنذر ساعده الأيمن ، ولم يكتف بتعبئة هذه الجيوش ، بل كثيراً ما كان يتولى قيادتها ، ويُذكر أيضاً لهذه الفترة انتشار الفلسفة (ابن مسرة) ، كما يُذكر أيضاً ظهور عقليات متميزة كعباس بن فرناس العالم ، الفلكي ، الرياضي ، ولم لا ؟ المخترع ، ومولد « ابن عبد ربه » صاحب العقد الفريد وشاعر البلاط الذي عمر حتى عصر الخلافة ، وتميزت أيضاً هذه الفترة بنوع من التفتح على الآخرين من أهل الذمة مما أثار بالضرورة جانباً من الساهرين على الالتزام بصرامة العقيدة وتحفظهم على استخدام النصارى في بلاطة الإمارة وتولى المناصب ، وإن كان هذا ليس بغريب على الأمويين في المشرق كما في الأندلس ، وكانت تربط هذا الأمير علاقات حسن الجوار ، ولم لا ؟ الإخوة في الدين مع المغرب (بين رستم وبنى مدرار) ، ومع أن عصر محمد بن عبد الرحمن شغل حيزاً لا يُستهان به زمنياً ، إذا ما قيس بغيره من الأمراء ، خصوصاً من تولى بعده كابنه المنذر الذي لم يعمر طويلاً .

فقد حكم ما بين (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م) عامان من الفتن والمواجهات ، ولم يكن غريباً أن يموت هذا الأمير وهو يراقب الحصار الذي كان يقوم به ضد الخارجين على المشروع والسلطة من الثوار ومروجي الفتن ، وما أكثرهم آنذاك ، وعلى رأسهم ابن حفصون الذي وصل في خروجه إلى تهديد العاصمة « قرطبة » ... وغيره وغيره الكثير ممن أعمتهم شخصنة وشهوة السلطة عن رسالتهم الأساسية وهي الالتحام تحت راية الإسلام .

وليس غريباً على هذا - ابن حفصون - الذى بعد هزيمته على يد الأمير عبد الله ابن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) عاد لينشق ويخرج من جديد حين علم بوفاة الأمير ، هذا الأمير الذى بالتقوى ولم تشغله الفتن والحروب من أن يهتم بالشعر والشعراء ، فقد كان هو شاعراً محبباً لما هو جميل فيه ، كما اهتم بالفكر والعمران ، فهو البانى لمدينة « بجانة » ، وفى عصره لم يمارس الشعر فقط ، بل كان الإبداع فيه حيث أنشئ الزجل والموشحة مع « مقدم ابن معافى القبرى » الضرير (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) كما هو معروف .

ومن ثم كان عصر الإمارة انتهى بنهايته ، ولكنه ترك لنا من العمران ومن الفنون والإبداع الفكرى ما يجعلنا الآن وبعد هذه القرون نحتفظ بذكرى ما جدد وأنشأ ، بقدر ما نستخلص العبر والدروس مما كان من خسران ، ونتمنى أن لا يستمر طويلاً بنا عبر الدهر ، من مواكبة الفتن والمؤامرات والانشقاق على المشروعية والتعصب وكل ما هو مذموم ومنهى عنه بنص الشريعة بمعنى نص الإسلام .

وبالتالى فليس غريب أن هذا المنهى عنه حينما يُباشَر ويُطبق يجسد انتكاس الأمة التى تنكرت للمبادئ التى من أجلها ، ولها ، وبها قامت وأسست ، لم تنته الإمارة وإن كنا قد دخلنا فى مرحلة أخرى من مراحل الأندلس ، حلت فيها الخلافة بدلاً من الإمارة ، وعرفت بدورها كما سنرى قلاعاً من المجد ممثلة فى إقلاعها مع عبد الرحمن الناصر كما سنرى ، عرفت أيضاً تعميق بؤر الضياع واستمرار مواكب الفتن المقتنعة والتى تحبو لتطفو وتواكب الأندلس فى كل مسيرته ورحلته ، وهذا ما سوف نلاحظه فى الحلقات التالية ، وننتقل أولاً إلى الخلافة .

* * *

الحلقة الرابعة

.. والتحول إلى الخلافة

كيف تم التحول إلى الخلافة ؟ مع هذا الأمير عبد الرحمن الثالث الناصر الفتي ، والذي تصدر ليتولى مقاليد الحكم دون مَنْ هو أولى به منه ، فهناك أبناء الأمير عبد الله ، وما أكثرهم ، ولكن الحفيد الذي كان موضع رعاية له بل ومأثوراً من بين الآخرين ، وكأنه تنبأ بفراسته العربية الأصيلة ، ما لهذا الأمير من سماء تؤهله للحكم ، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر ، وكما كان متميزاً واستثنائياً فى مآل الحكم إليه ، كذلك كان متميزاً باستمراره ، بل يُعتبر من أطول الملوك حكماً ، خمسين عاماً من المسؤولية ، بدأت فى (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، وتحولت إلى خلافة عام ٩٢٩ م أى بعد سبعة عشر عاماً ميلادية .

هذا التحول وتلقيبه بأمر المؤمنين وناصر لدين الله ، يرى صاحب « الحلل الموشية » التى كثيراً ما تُنسب إلى « ابن سيماك العاملى » أن مرد التسمية وهذا الاختيار كان استجابة لسكان الأندلس ، فهم الذين طلبوا من الناصر أن يكون خليفة لهم ، وربما وجود خلافة على مقربة من الأندلس فى المغرب وخلافة فى المشرق ، جعلاً هذا المطلب مطلباً طبيعياً يتمشى وواقع العصر آنذاك لقائد برهن خلال سبعة عشر عاماً على جدارته بالحكم وأن يكون خليفة للمسلمين فى هذه البقع .

لقد بدأ فى جو مشحون بمختلف المعوقات ، ما بين تأثيرين مسيطرين على مناطق يمارسون فيها نفوذهم ، وظروف اقتصادية واجتماعية متأزمة ، ولكنه كان من الوعى الذى اقترب به من معاوية مؤسس الدولة الأموية الأولى فى المشرق وسياسة الشعرة التى لا تنقطع ، فقد كان عبد الرحمن الناصر بدوره يتوعد ويمنى ويحذر بين الشد والجذب ، بين المد والجزر ، واستطاع أن يؤمن لقرطبة سيادة

سُلطتها على مختلف المناطق ويُخضع الخارجين لنفوذه إلا ما شذَّ منهم مكلفاً له مشقات متعددة .

رنعنى به ابن حفصون الذى كان موضعاً مشيراً للقلق فى العديد من العهود ، بل اتخذ كقاعدة له فى التعامل مع السُلطة الخروج عليها ، ولم يكن هذا بغريب على موكد مهتز فى قناعاته الإيمانية ومرتد فى أعماقه ، فارتداده عن الإسلام محاولاً بذلك التقرب إلى النصارى لم يجديه فى شيء ، فالأكل على كل الموائد هو المحروم بذاته ، فلا مائدة له ولا انتماء إلى وفاته مقبوراً سنة (٣١٢ هـ / ٩٤١ م) تاركاً بعد وفاته أبناءً ثلاثاً ، استطاع الناصر كما استطاع مع غيرهم استئصال السُلطة منهم معيداً إلى الأندلس وحدته الأموية محاولاً الاتجاه به نحو قلاع المجد متجاوزاً لبؤر الضباع ، ليس فقط على المستوى الداخلى ، وإنما أيضاً فى علاقاته الخارجية .

فقد كان بحق مروّضاً لمختلف النزعات والانتماءات فى إطار إيقاعى متجانس ما أمكن ، متدخلاً بمرونة واعية ليسوى الخصومات بين العديد من الصفات كالقشتاليين والليونيين والبريين ، حيث استطاع أن يستغل ما بينهم من صراعات ليصل إلى إضعافهم جميعاً ، ممكناً لسلطانه ، بما فى ذلك طبيعة المواجهة مع الشيعة ومطامعهم ، حيث نفذ عبر قنوات فقهية إلى معاقلهم بما فى ذلك مصر ، كمثال الفقيه المالكى المعروف بابن القرطبى وغيره . ممن أرسلهم لتفنيذ المزاعم الباطنية بما فى ذلك دعاوى المهدي ، والإمام المنتظر ، باعتبار أن الإسلام يتميز بوضوحه وصراحته إيمانياً وعقائدياً ، حقوقاً وواجبات دون تغميض أو التباس - « فلا عصمة إلا لنبي » - ونبي الإسلام وخاتم الأنبياء هو محمد عليه السلام . قائد على هذا المستوى من الصرامة والتأهيل والممارسة والوعى ، لا بد وأن يؤمن هذه الطموحات المشروعة بدرع قوى ، يمثله جيش قادر على الدفاع والمواجهة ، برياً وبحرياً على حد سواء ، خصوصاً وأن المواجهة مع الفاطميين الشيعة اكتست بنوع من التداخل وكسب المواقع بين القبائل ، فطموحات الشيعة الفاطميين لم تتجه بهم فقط إلى المشرق ، بل كثيراً ما حاولوا أن يتجهوا بها إلى الأندلس ، مراقبين لما يجرى به من أحداث ، مشيرين للقلق .

وكذلك الناصر بدوره تبنى معهم ما هو شبيه مع الفارق وهو أن أرضية القلوب في المغرب بالنسبة لتقبل التشيع الفاطمي ، توضع عليها علامات استفهام كبرى ، بينما فيما يعنى الناصر ، تكامل القلوب كان تلقائياً ، وهنا ينطبق المثل السائد بالنسبة لعديد من العشائر التى أعلنت ظاهرياً تقبلها للشيعة وكان لسان حالها يردد : « إن كانت سيوفنا معك فقلوبنا عليك » ، والعكس صحيح بالنسبة للناصر : إن كانت سيوفنا عليك ، فقلوبنا معك ، فضلاً على أن استقرارية السُلطة للفاطميين قضية فيها نظر ، فكانت الثورات تشتعل هنا وهناك فى تونس والجزائر وغيرها من المناطق التى كان يسيطر عليها الفاطميون ، ومع هذا لا يمكن أن يُنكر ما شُيد فى « قاهرة المعز » وعلى سبيل المثال لا الحصر : الأزهر .

فإن كان الناصر قد شُيد ووحد وأمن استقرار السُلطة ، وفعل الكثير مما يُحسب له ، فبدوره كما حسبنا على الفاطميين المغالاة فى التبطين والمناداة بتقاليد لا تتمشى ووضوح وبساطة الإسلام ، خصوصاً لدى « الغلاة » من فرق الشيعة من أصحاب الدروب المظلمة والعمل المستتر ، فيمكننا أيضاً أن نحسب على الناصر لا له ، رغم عصره المشرق ، هذه المغالاة أيضاً بدورها فى المواجهة مع مَنْ يلتقى معه فى الدين إلى حد القطيعة وقلب الأحلاف وتحويل الأعداء إلى حلفاء والإخاء إلى عدااء ، فكيف يمكن لناصر لدين الله وأمير المؤمنين أن يتحالف على حساب أبناء دينه ، دفاعاً عن سلطته وتأمينها مع الشيطان ، ولو كان ممثلاً فى بيزنطة أو غيرها .

فإن كنا نتقبل معه توطيد علاقته مع الإخشيديين فى مصر ، ولكن نضع علامة استفهام كبرى باسم الحاضر فى الماضى ، والماضى فى الحاضر حينما يدفع الانفعال إلى حد خلط الأوراق وتعتيم المواقف ، ولو كان يؤدى هذا إلى التحالف مع الشيطان ، تعبیر فمجدد اليوم حين يتردد بين أبناء الأسرة الواحدة ولا نعتقد أن أجدادنا قبلوه بدورهم حين الوعى بحقيقة أبعاد ، بروح الرضا والانبهار ، فكثيراً ما تنهار الأمم حينما تفتح نوافذها بحثاً عن التهوية وتخفيفاً لثقل المعاناة ، فتحمل إليها هذه النوافذ سموم الاختناق والاندحار .

إن كنا نتقبل من هؤلاء أيضاً - كما نتقبل من المعاصرين - مرونة التعامل مع الآخر بتفهم وفهم وتفاهم بما فى ذلك تبادل السفارات والزيارات ، ولم لا ؟ الهدايا ، ولكن شريطة أن تبقى المقاييس واضحة ، ولا تتجاوز حدود المجاملة وحسن الجوار ، أما حينما ترتقى إلى مستوى التحالف ، وربما التآمر المدمر والمقنّع ، فهذا أمر بغیض جرّ وما زال يجر علينا الويال ، لقد كان الناصر قائداً معطاءً فيما تبقى من إنجازات سواء فى ميدان الزراعة وتشجيعها ، والتجارة والصناعة ، بل والفنون والأدب ، وحتى العلوم .

فبحق إنه قائد متميز لعصر متميز ارتقى فيه بقرطبة العاصمة لیباهى بها بغداد ، تشييداً وعمراً ، بما فى ذلك مساجدها ، وما جدّد فيها على مستوى البناء ، كمثال « مدينة الزهراء » التى شغلت حيزاً من اهتماماته ، بل ومن ماله ، مما أهلّ بعض الأصوات لتتصدى (سعيد البلوطى نأخذه كمثال) حين نقده لهذا البذخ وهذه المغالاة . ولقد كان طبيعياً أن يناعم هذا التطور العمرانى ، تطوراً فى إشراق الفكر وعطائه ، فازدهر هذا العصر بعقول متمیزة ، مبدعين كشعراء ونحاة ومؤرخين ، ورياضيين وفقهاء ، وفلاسفة ... إلى غير ذلك من دروب المعرفة والثقافة .

فهذا ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) الذى له المؤلف المعروف بـ « العقد الفريد » ، وهو منجم فكرى ، لا يمكن إنكار طابعه المتميز متأثراً فيه بالشرق ، فى شكل موسوعى جمع فأوعى ، فى مختلف مناحى المعرفة الممارسة آنذاك ، وهذا ابن هانئ المتوفى فى (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) ، وبدوره غنى عن كل تعريف ... وغيره وغيره من الشعراء ، يفخر الأندلس بهم كوجوه مشرقة خلّدت ذكراه عبر العصور ، ولنا إلى ذلك عودة فى حلقة أخرى حين التعريف بقلاع المجد ، كذلك عرف الأندلس شعراء كتبوا فى النحو والتاريخ ، كما عرف نحاة ومؤرخين قرضوا الشعر ، نذكر « الزبيدى » ، ومؤرخين من طبقة الرازى .

وهناك مَنْ مارسوا الرياضيات والطب واجتهدوا فيه وإن كان دور الفقهاء والمحدثين ظل كما كان متصديراً ، نخص كمثال إلى جانب البلوطى المشار إليه سلفاً (وهو يُذكر لدى البعض على أنه يجسد الإرهاصات الأولى للمذهب الظاهرى ممهداً الطريق لابن حزم) محمد بن واضح ، وابن أيمن ، وقاسم بن أصبغ وغيرهم الكثير ، مما يؤكد لنا الحضور الفكرى المتنوع والذى فتح الباب إلى جانب الفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرياضيين والأطباء ، لأمثال « ابن مسرة » المتوفى سنة (٣١٨ هـ / ٩٣١ م) وهو شخصية تطرح العديد من التساؤلات وتشكل موضعاً للمناقشة ، ولمَ لا ؟ التحليل والنقد فى عصره كما فى عصرنا .

تتلمذ على مفكرين فى الأندلس والمشرق ، وتعامل مع التيارات الفكرية فى مختلف دروب العقلنة ، بل اتجه به المستشرق « أنخيل جونثالث بالنشيا » فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » إلى أنه أذاع بين مسلمى أسبانيا آراء امباذقليس ، ويرى البعض أنه ليس « امباذقليس » الحقيقى ، وإنما « امباذقليس » مزيف ، وكانت أفكاره خليطاً من الغنوصية التى قالت بها الأفلاطونية الحديثة . وانتشرت أفكاره آنذاك حتى بعد وفاته وأثارت ردود فعل مختلفة ، ينقل البعض أنها وصلت إلى حد محاربتها من فوق منابر المساجد والدعوة إلى الابتعاد عنها ، ومع هذا بقى ابن مسرة موضعاً للتساؤل وإسهاماً بطرح أكثر من استفهام سواء فى نشأته أو انتمائه الفكرى وغايته .

ولا يمكن عزل ابن مسرة عن البيئة التى ترعرع فى أحضانها ، فقد كانت بيئة تشجيع وانفتاح واستيعاب للمعارف والفنون ، فهذا الناصر نفسه بمكتبته العامة يكتب من العراق والشام وأوروبا ومصر ، دليلاً متميزاً وواضحاً يؤكد المستوى المتصدر الذى بلغته حضارة الأندلس فى عصره ، حيث تعايش الالتزام ممثلاً فى الأصوليين فقهاء ، ومحدثين ، مع الأدباء والمبدعين فى الفنون والمجتهدين فى فكر الإنسان وعلومه ، بما فى ذلك يهود الأندلس وقد كانوا يجالسون الخليفة نفسه .

وقد سمحت هذه الروح المرنة وهذا التسامح السخي ببداية الدراسات التلمودية في أسبانيا ، وإقلاع المساهمة اليهودية على حسب طريقتها وغايتها في حضارة الأندلس ، ونقل روائعها في مراحل تالية إلى اللاتينية والعبرية ، وهذه قضية إن كانت تُسجّل لحضارة الإسلام بمداد من فخر ، لما كانت تتحلى به من تسامح وإنسانية ، فهي تسجل أيضاً بدورها مدى إسهام هذه الحضارة الأندلسية في إرهاصات النهضة الأوروبية الحديثة عبر قنواتها اللاتينية .

لقد كانت وقفنا في هذه الحلقة التي خصصناها للناصر وما حوله ، متجانسة مع ما غطاه عصره كماً وكيفاً من عطاء وإشراق وتأسيس واستقرار ، إلى حد أنه وُصِفَ على أنه يجسد عَصراً من العصور الذهبية في حضارة الإسلام ، واستمر موكب الخلافة ، فلن يتوقف الزمن ولكنه قد يتحول إلى زمن سابق لزمانه ، أو إلى زمن متراجع عن زمانه ، فماذا عن زمن الخلافة بعد هذا الناصر ؟ هذا ما سنتناول عرضه والتعرض له في الحلقة التالية .

* * *

الحلقة الخامسة

نهاية الخلافة من خلال الفتن والمؤمرات

الخلافة بين المد والجزر ، تحاول أن تنتصر مع المنتصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) فى كل الجبهات متواجبة مع الأخطار التى حاقت بها من مختلف الجنبات ، فالشيعة الفاطميين من ناحية ، والنورمانديين بقراصنتهم براً وبحراً من ناحية أخرى ، فضلاً عن التقنصات المدمرة والمقنعة التى تنتظر الساعة الملائمة لكى تنقصر وتستعيد مواقعها ممثلة فى أسبانيا المسيحية المترقبة لاستغلال أى ضعف أو انفجار ، أو أى فتنة لكى تنقض ، هجمات تلو هجمات وفى كل مرة كان المنتصر منتصراً .

ولم يوقفه هذا الخطر الجاسم والمستمر على حدوده من اهتمامه بخلافته فى مختلف المستويات ، أنشأ المدارس للفقراء وعمر المكتاب فى داخل القصر بمختلف كنوز الفكر ، دون أن يتوقف عند فن معين ، مما جعل مكتبة قصره تحتاج إلى فهارس ذكر من أرخوا لهذه الفترة . أنها وصلت إلى أربعة وأربعين كراسة ، كان يتتبع ممرات الفكر فى كل مكان كى يستعيد كنوزها لتكون إلى جانبه فى قصره ، يستلهم منها قارئاً وليس فقط حافظاً وحارساً لها .

وقد شجع من ناحية أخرى التيارات الفكرية من مدرسة مسلمة المجريطى نسبة إلى مدريد على حد قول المستشرق « أ . ج بالثيا » هو الذى أدخل « رسائل إخوان الصفا » إلى الأندلس . كما أن فى فترته كان هذا الطبيب الجراح أبو القاسم الزهرواى (٣٢٤ - ٤٠٣ هـ / ٩٣٦ - ١٠١٣ م) الذى يُعتبر حسب من اهتموا من الباحثين فى هذه الفترة من أعظم أطباء ذلك العصر ، بل كانت له أصداء عند اللاتينين إذ عرف باسم « أبولكاسيس » ، وقد كان بارعاً فى الجراحة ، فضلاً عن تأليفه لموسوعة ترجمت إلى اللاتينية

وتحمل عنوان « التعريف لمن عجز عن التأليف » ، ولنا عودة في حوارنا إليه مع قلاع المجد من المفكرين في حلقات تالية.

ونذكر أيضاً سعيد بن عبد ربه ، وابن جلدل في دراسة النبات ، ويذكر لهذا الخليفة المنتصر أن مجلسه كان يجمع بين مختلف التيارات فقهاء ، وفلاسفة ، بل نلاحظ بين الجالسين « عبد الله بن أبي ذيلم ، يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي » ، وابن القوطية الذي كان لغوياً ومؤرخاً ، ومن الفقهاء الظاهريين نذكر منذر بن سعد البلوطي ، الذي كان يميل بعد دراسته في المشرق إلى مذهب داود ابن خلف الظاهري ، بل نلاحظ أيضاً في عصر المنتصر رد اعتبار ضمنى لمدرسة ابن مسرة حيث استعادت أنفاسها لتنتشر ، ومن بين من جسدوها محمد بن مفرج المعافري ، وعمت حرية الفكر وإشراقه ليعطى متنفساً حتى لغير المسلمين من سكان الأندلس مسيحيين ويهود ، وقد استعادوا عبر هذه التهوية مخرجاً لتعود الدارسات التلمودية لهذا اليهودي الحائر الذي وضع له وخطط ، كما سنرى ابن ميمون الأندلسي الدليل الذي يحمل عنوان : « دلالة الحائرين » أو « دليل الحيران » ، وكان من بين المؤسسين للمدرسة التلمودية بقرطبة أبو يوسف حسداى بن إسحاق بن عزرا بن شربوط (٣٣٣ - ٣٥٩ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٠ م) الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر مما قدم من العون لموسى بن حانوك ومدرسته .

مع المنتصر إذن ، لم تنتصر الخلافة فقط في صد أعدائها المترقبين وعلى مختلف الحدود ، وإنما انتصر الفكر والعلم في هذا العصر ، الذي لم يضع له نهاية إلا الشلل الذي أفقد المنتصر قدراته وحوله إلى قعيد موصياً لطفل بخلافة حافلة بالمواجهات ، بل وغنية بالمتطلعين للوثوب عليها ، ليس فقط من خارج أرضها ، وإنما من داخل أحشائها ، فها هو الوزير جعفر بن عثمان المصحفي بعد وفاة المنتصر (٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) يتصدر ، ولكن لفترة محدودة في تولى أمور الخلافة لخليفة لم يتجاوز الأعوام العشرة من عمره ، ولكنه استمر أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً يغطي فترة حافلة بالمؤامرات وبالمد والجزر ، وبالمتطلعين إلى

السُّلطة والحكم ، بل والمنقذين على هذه السُّلطة ومن البداية مستغلين الانشقاق والاختلاف فى مَنْ يتولى السُّلطة فعلياً : الجند أم الحاجب والهاشمية ، ثم ما كان فى عصر هذا الخليفة الطفل هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م) من وثوب المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المفضل من طبقة الجند لتولى الخلافة لأن جعفر المصحفى لم يقر ذلك ، وعهد إلى ابن أبى عامر بقتله ، فقتله خنقاً ، ولكنه لم يعمر طويلاً حتى تم التآمر عليه ، وأصبح بذلك مركز القوة فى الخلافة ، مستعيناً برجال اصطفاهم من زناتة إلى جانب الصقالبة والمولدين ، واستعاد فى ذاته الرغبة ليتصدى ليس فقط للخصم فى الداخل ، وإنما ينازل الخصوم فى الخارج مستولياً على برشلونة وغيرها ، مشيداً لـ « الزاهرة » فى شرق قرطبة ، وفيها خزائن الأموال ، بل لم يقف بطموحه عند هذا الحد فسمع لنفسه أن يلقب بـ « كالحاجب المنصور » بعد أن نكب المصحفى وانتهى مجسداً للسلطة قلباً وقالباً فى صدر الخلافة ، ذاهباً إلى حد أن تكون المراسلات باسمه ، بل ويدعى له من فوق المنابر كحاجب منصور.

فى هذا الوقت كان الخليفة الرمزي فى الواقع هشام بن الحكم سجيناً للملذاته فى قصره ، وحبساً لنصائح أمه « صبح » التى بدأت بدورها تتابع الأحداث مشاركة ، جامعة حولها مَنْ يؤمن لها الحد من هذا « المنصور » صاحب الطموحات بلا حذر ، فتآمرت عليه مستغلة ما له من عداوات لمحاولة اغتياله رغم ما كان يربطه بها من توادد قبل ذلك ، مما حدا به أن يعلن الطاعة للخليفة ، وتوفى ليترك أمر الحجابة من بعده لأبنائه ، وانتهت الفترة بالخلع والقتل ، خلع هشام وقُتل مَنْ قُتل من الحجاب بفضل مَنْ كانوا يكتنون الولاء للأمويين .

ومع خلع هشام بدأت إرهابات الخلع للخلافة ، إذ دخلت فى مرحلة من الاهتزاز بدأت بتولى الخلافة من قِبَل محمد بن هشام بن عبد الجبار الذى تلقب منذ ذلك الحين بالمهدى (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م) لتعرف خلال ثلاثة وعشرين عاماً

مسلسلاً من تداول الخلافة ، وقد تجاوزوا في عددهم ما عرفت الخلافة في فترة سابقة تقارب المائة عام ، توالى الخلفاء ، هذا يُنصب وهذا يُخلع ، ولكن الحياة الفكرية لم تتوقف ، وإنما انعكست عليها الأحداث والصراعات ، فهذا المنصور الذي كان يُجسّد القوة في الخلافة إبّان هشام بن الحكم ، بقدر ما كان في أعماقه يميل إلى الفلسفة ، لكنه خشي من ردود فعل الفقهاء فتم الإحراق لكتب الفلسفة والفلك ، لعله بذلك يؤمن لنفسه الرضا والمساندة ، هذا بالإضافة إلى أن الشعر كان عزيزاً على الأندلس بدوره ، لم يتوقف موكبه خصوصاً الشعر الغنائي ، بل وُضعت له جوائز ، وكمجرد مثال نذكر « صاعد البغدادي » الذي كان إلى جانب شعره لغوياً ومؤرخاً ، وكذلك « الرمادي » ...

الخلافة تتأرجح ، ولكن الحياة في قرطبة وفي بقية ديار الأندلس لم تتأرجح وإن كانت تعاني من ردود فعل هذه الخلافات والصراعات بين جند صقالبة ، وأندلسيين ، وعشائر وقبائل أخرى نزحت من المغرب ، ولقد سمح هذا الجو الضبابي للمتسللين من النصارى أن يتدافعوا لمناصرة هذا على ذاك ، مكتسبين في الواقع للأرض على حساب الشقاق والفرقة ، فكانت المفايضات بين الحصون ومكر المساندة ودهاء الكيد ، وغاصت الخلافة في احتضارها ، وبدأت التطلعات لاقتناص المواقع لتخلع ضمناً قبل أن تعلن صراحة نهايتها ، فهؤلاء بنو حمود بمالقة يستولون على قرطبة وقبل سقوط الخلافة ، وبنى عباد على إشبيلية .

جسد الخلافة يتمزق قبل أن تخرج أنفاسها الأخيرة ، لقد انتهت الخلافة عملياً قبل أن يعلن الوزير أبو الحزم بن جمهور صراحة نهايتها لعدم وجود من يستحقها ، وكما هو عهدنا في العديد من فترات التاريخ النقدية لأمتنا ، لم يحتضر الفكر باحتضار السلطة ، ويكفينا كمثال أن هذه الفترة هي بذاتها التي أفرزت لنا فيما بين (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) ابن حزم ، هذا المعمر الذي عاصر قرطبة الفتنة وبداية الانهيار ، فترة تاريخية حرجة عامرة بالبداسيس والصراع السياسي .

وقد انعكست الأحداث على ابن حزم فى مواقفه الفكرية وتصوراتيه ، وسنعود إلى ذلك فى حلقات تالية معرفين بقيادة الفكر أمثال « الزهراوى » الطبيب ، و « ابن حزم الظاهرى » ، وغيرهما . ولهذا لا يمكن إغفال الجانب الفكرى حين مرورنا عبر فترة الانهيار للخلافة مشيرين إلى ابن حزم وأمثاله ، فهو الذى أثرى أصول الفقه بين التقليد والاجتهاد بما فى ذلك أصول الأحكام ، والقياس الفقهى إلى القياس الأرسطى ، كما أثرى النقاش بين الدين والفلسفة ونقده لأشكال علم الكلام .

وهذا إن دُلَّ على شىء ، فإنما يدل على ما للعقل العربى المسلم من قدرة كامنة تتحرك حتى فى أجواء الضباب والعتمة ، مؤثرة ومتأثرة ، تتعامل مع المعاناة وترجمها دون أن تنكسر بانكسار السلطة أو تأفل بأفولها ، ولعل ما قاله صاحب « كتاب أعمال الأعلام فى من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام » الملقب بذى الوزارتين « لسان الدين بن الخطيب السلمانى » - (ص ١٣٩) أبلغ دليل على أن هذا الجسد العربى المسلم وهو ينزف ويثن بالجراح قادر على العطاء ، يقول لسان الدين ابن الخطيب :

« ... ومشى البريد فى الأسواق والأرياد ، بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بنى أمية ، ولا يكتفهم أحد ، وكان القائم بإخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم أبا الحزم بن جمهور وانتهى أمر بنى مروان لهذا الحد ومحا الرسم الجماعة ، وتقسّم البلاد والأقطار رؤساء الطوائف ، قد استحاز كلاً منه استبداده بنفسه ورضى بذلك من بقواعدهم من المسلمين على وفور الفضلاء وتعدد العلماء وانفساح الأقطار وتزاحم الأعشار ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وهكذا اتسع وباء الطوائف وانتشر ليعم ما تبقى من الأندلس ، وسوف نُفرد الحلقة التالية لهذه الدويلات الطائفية حتى نصل إلى غرناطة الحبيسة وغروب شمسنا الأندلسية .

فماذا عن الطوائف وما آل إليه الأمر معهم من ضياع الفردوس الذى أصبح يوصف بالمفقود ؟

* * *

الحلقة السادسة

دويلات الطوائف في عصر الفرق
منذ بداية التمزيق والتطاحن مروراً بالإنقاذ المربط
والموحدى .. حتى الاحتضار حول غرناطة الحبيسة

وبدأت رحلة الضياع مع « عصر الفرق » كما أسماه « ابن الكردبوس »
ووصفه لابن الشباط الذي يحمل هذا العنوان عن تاريخ الأندلس (مدريد
١٩٧١ - ص ٧٨) ، وعبرنا القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)
لنشاهد قياماً وسقوطاً هنا وهناك وفى كل مكان ، دويلات تظهر لتختفى ،
وأخرى تتسع لتختنق ، وتمتد لتتقلص ، منها ما كانت تحت إمارة من تدامجوا
وعُرفوا كأندلسيين ، ومنها ما كانت تحت إمارة قبائل نازحة من المغرب صنهاجيين
وأدارسة وغيرهم ، ومنها ما كانت تحت إمرة ما عُرف بكبار الصقالبة

وهكذا عمرت الساحة الأندلسية بهؤلاء وهؤلاء ، منذ نظام الجماعة مع
أبى الحزم بن جمهور فور سقوط الخلافة بقرطبة ، وبنى عباد بإشبيلية ، وقد
استولوا بعد ذلك على العديد من الدويلات مثل مدينة نبله من بنى يحيى ، وباجة
وشلب من بنى مرين ، ولبة وجزيرة شلطيش من بنى البكرى ، كما آلت إليهم
شنتمرية الغرب من بنى هارون ، وقرمونة من بنى برزال ، ومرور من بنى دمر ،
واركش من بنى خزرون ، ورندة من بنى يفرن ، فى الوقت الذى نشاهد
بنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى مناد فى غرناطة ، وخيران العامرى ومن تلاه
فى مملكة المرية ومملكة مرسية ، ومجاهد العامرى ومن تلاه فى مملكة دانية
والجزائر ، والفتيان مظفر ومبارك ومن تلاهما فى مملكة بلنسية حتى سقوطها فى

يد بنى ذنون ، وهذيل بن عبد الملك بن رزين ومن تلاه فى إمارة سنتمرية الشرق ، وعبد الله بن قاسم ومن تلاه فى إمارة البونت ، والمنذر بن يحيى التجيبى ومن تلاه حتى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وبداية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بمملكة سرقوسة

وهبت من الجنوب رياح المرابطين لإنقاذ الأندلس مبشرة بإيقاف مرور سحب التمزيق وضباب الفرقة وعتمة التطاحن ، محاولة إعطاء الفرصة لمن أضلته أنانيته وأفقه الضيق أعمى بصيرته عن رؤية العدو الرابض على حدوده ، والجاسم فوق أكوام من الحقد ومرارة الهزيمة ، فى انتظار قفزة التآمر وتصفية الحسابات فى ساحة الأندلس .

فاشتعلت شرارة المواجهة فى سماء طليطلة ، وكان النفير للمرابطين ، وتحرك أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بخطواته العملاقة التى لم تكتف بتوحيد راية الإسلام فى سماء المغرب الممتد من شواطئه غرباً وشمالاً حتى تونس شرقاً والسودان جنوباً ، وإنما زحفت لإنقاذ الأندلس . هذا الحميرى الصنهاجى المولود فى عام ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) وإن كنا نجهل الكثير عن مراحل طفولته وسنواته حتى عام ٤٤٨ هـ ، فإننا نعرف أن الأمير أبو بكر اللمتونى ندبه ليكون قائداً لجيش المرابطين وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، ويستحق منا وقفة تقدير لنتابع خطواته زاحفاً لاستعادة أنفاس الأندلس .

هذا الورع فى إيمانه ، البسيط فى حياته ، المتواضع فى سلوكه ، المتقشف فى لباسه ، لقد كان يرتدى الصوف طوال حياته ، آكلاً الشعير وألبان الإبل ، أعطى لنا صوراً لا تنمى على مر العصور لما قدمه من بسالة وإخلاص وتفانى فى أداء الواجب ، إنه بطل واقعة الزلاقة الأمير الذى أصبح أميراً للمسلمين منذ سنة ٤٦٦ هـ ، بل وموحداً لراية الإسلام فى كل مكان بعد عرفان الخلافة العباسية وتقليدها الولاية له ، وسوف نكتفى من صفحاته الناصعة بمسيرته الأندلسية فى هذا العرض المخصص لمحاولات الإنقاذ من الضياع وإيقاف مواكب التفكك والانهدام.

وأقلع أجيح الإنقاذ وارتفاع صيححاته عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ومملكة بنى ذى النون سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، بل هناك مَنْ يتجه من المؤرخين إلى أن وفود المستغيثين ببلاط مراكش بدأت تتوالى منذ سنة ٤٧٤ هـ ، طالبين النجدة ، ويؤيد ابن خلدون هذا الاتجاه ولكن يرده من خلال المعتمد بن عباد الذى التمس منه إنجاز وعده بنجدة الأندلس . فأجابه ابن تاشفين بأنه إذا فتح الله عليه سبته ، فإنه سوف يتصل بهم ، وقد كان لما قام به ألفونسو فى أراضى إشبيلية واختراقها بقواته حتى وصل إلى طريف وخاض الماء بفرسه قائلاً : « هذا آخر الأندلس قد وطأته » ، واستولى على طليطلة وعلت صيححات الاستغاثة من الأندلس الجريح ، فزحف جيش المرابطين على سبته واستولى عليها فى سنة ٤٧٧ هـ ، ومنها إلى الشمال إلى الأندلس حسب أقوال ابن أبى زرع (فى روض القرطاس ص ٩٢ - ٩٣) .

وعليه .. فسواء كان سقوط طليطلة هو المحدد للإنذار بإقلاع مواكب الضياع ، أو ما تنبأ به المعتمد بن عباد قبل ذلك بأعوام وتوجسه من نوايا ألفونسو وإرهاقه له بطلب الجزية ، واجتياحه لمملكته وتخريبه لمدينها ومروجها ، واكتشافه لفداحة خطئه حينما خضع لملك قشتالة ومحالفته له ، وما فى ذلك من خديعة آلت فى النهاية إلى تمكين عدوه من أرضه فقد توالى الوفود على بلاط ابن تاشفين ترجوه الفوثة والإنجاد وقد استجاب ، وكان داود بن عائشة فى طلائع الفرسان المرابطين إلى العبور كما عبر طارق بن زياد من قبل ، وتوالى موجات العبور فى سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيو ١٠٨٦ م) .

كان عبور البطل رافعاً يديه بالدعاء قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهّل علينا جواز البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » ، فعبرت السفن تحت ريح طيبة وبحر هادىء (كما ورد فى روض القرطاس السالف الذكر ص ٩٣) ، وكان اللقاء فى موقعة الزلاقة وتم النصر ليستعيد الإسلام رفع رايته على ما تبقى فى ديار الأندلس ، ولكن إلى حين . حيث ظلت المواجهات بين كَرَّ وقرَّ ، جيوش المرابطين تسعى لمد سيطرتها

على ما تبقى من الأندلس بينما يتحصن النصارى ويستغيث بعضهم ببعض وبخاصة بملك قشتالة لإنقاذ حصونهم ، ثم ما كان من انسحاب يوسف بن تاشفين من محاصرته الحصون وعودته إلى المغرب ليعود مرة ثالثة إلى الأندلس مع النية فى إستكمال الاستيلاء عليه ، خصوصاً بعد أن برزت التحالفات المضمرة بين بعض ملوك الطوائف وملك قشتالة ، وما كان من فتاوى الفقهاء فى هذا الشأن ، وسار ابن تاشفين إلى طليطلة ليرتد عنها متجهاً إلى غرناطة ليحاصرها ثم يجتاحها كما يجتاح المرابطون مالقة ، ثم يتجه ابن تاشفين إلى إشبيلية ليفتحها متخذاً من فتاوى الفقهاء ضد المعتمد وعلاقته بملك قشتالة ، مبرراً لذلك .

واستمرت جيوش المرابطين تزحف فى بقاع الأندلس مستولبة على قواعدها من رندة وجيان وقرطبة وابدة وبياسة وقرمونة ، وكم كان مجزناً أن يصل حد التحالف مع العدو القشتالى إلى مستوى الاستغاثة به من قبل المعتمد قبل سقوط إشبيلية فى يد المرابطين وتوابعها التى كان يديرها ولديه ، ولقد لقى المعتمد جزاء مواقفه من المحن فى المعتقل ما لقى ، وقد ترك لنا من الأشعار ما يصف هذه الفترة الرهيبة من حياته حتى وفاته . ولقد حاول البعض أن يلقى بعمق المحنة كنتيجة لقسوة أمير المسلمين ، ومع هذا فلا يمكن أن يساوى بين من يرفع راية الاستعادة ويحققها ، وبين من يحتفى فى أرضية التحالفات المقنعة مع الأعداء إنقاذاً لمجد زائف ، وقبل أن يرحل ابن تاشفين أكمل ما لديه من طموحات بجيوشه المرابطية فى استكمال راية التوحيد - ولو نسبياً - لأرض الأندلس قبل أن تتحول إلى فردوس مفقود .

وهكذا نرى أن تداخل ملوك الطوائف عبر علاقاتهم المقنعة مع ملوك النصارى لعب دوراً تأهلياً لمعاودة هؤلاء الملوك أكثره لاغتصاب الأرض من يد المسلمين ، رغم ما كان بين الملوك النصارى من صراعات داخلية وتنافس على السلطة وميراثها ، وتطلع النصارى إلى سرقسطة محاصرين لها رغم استغاثة أميرها بالمرابطين ، ولكن فى النهاية سلّمت المدينة وتحولت إلى نصرانية ، وفتحت شهية المتربصين بالإسلام فى الأندلس ، فاستولى ألفونسو المحارب على قرمونة وقلعة

أيوب رغم اهتمام علي بن يوسف بن تاشفين بهذه الأحداث وتسيير جيوشه المرابطية لمواجهة الأراجونيين ، وانتهت هذه المواجهة بهزيمة المسلمين في موقعة « كتندة » - أو « قتندة » - وتوالى سقوط القلاع وضياعها من أيادي المسلمين ، واشتغلت شرارة الثأر في نفوس بعض نصارى الأندلس وبدأوا يتصلون بالفونسو المحارب ويحرضونه على غزو الأندلس ، ولقد تأهب المرابطون لرد النصارى ولاحقوا جيوش الفونسو نحو الشمال ونشبت بينهم المعارك ، واستمرت المناوشات شمالاً وجنوباً ، في الوقت الذي تزايد فيه خطر العدو وتطلعاته ، وكانت المواجهة بين الجيوش المرابطية بقيادة ابن غانية في معركة حاسمة تحت أسوار أفرغة انتهت بالهزيمة الساحقة للنصارى وبوفاة الفونسو المحارب ، ومع هذا لم تتوقف القنوات المقنعة المشخصة لأهواء السلطة وهوايتها من أن تقود البعض كمثال عماد الدولة بن هود في سرقسطة إلى احتمائه بملك قشتالة في مقابل نزوله له بقاعدة روطة .

ولم تقف طموحات المرابطين أو تتأثر بهذه القنوات الهروبية المتكررة للذات ، فخرج تاشفين بن علي لغزو قشتالة في الوقت الذي يغزو فيه القشتاليون أراضى قرطبة ، ودام الكرّ والفرّ ، والتقى تاشفين وقواته بالنصارى قرب بطليوس ، وهزم القشتاليون ليعاودوا الكرّة في موقعة البقر . ولم تتوقف المواجهات ، فهذا المرابطى يتدافع ، وذاك القشتالى يتقدم ويتأخر ، وما يترتب على ذلك من تغيير في المواقع ، بل وقاعدة الحكم التى أصبحت فى قرطبة للمرابطين بدل غرناطة .

وعاش الأندلس يعانى من تفكك وتشتت قواه الداخلية ، وتصيد الخصم لفترات ضعفه ليستعيد مواقع ثم يتخلى عنها ، تحت ضغط راية المواجهة والتكامل الذى كان يرمز إليه التداخل المرابطى فى الأندلس ، ولكن الأندلس بالنسبة للمرابطين وما يجرى فيه جانب من كيان أشمل وهو كيان الدولة المرابطية ، وما كان يحدث فيها بين الفينة والأخرى من صراعات داخلية أضعفت هذا الكيان العملاق وأهله للتآكل والتأهيل للاقتراس والنهاية ، وقد كانت مسيرة ابن تومرت وخطواته ، وبثه لدعوته ، وتبشيره بنظرية المهدي وإعلانه لإمامته

وأنه هو هذا المهدي ، ومبايعة أصحابه له بهذه الصفة كمهدي وإمام معصوم ، مما يزكى ما اتجه إليه المؤرخون من أن ابن تومرت لم يكن مجرد داعية ، وإنما صاحب مشروع يعمل له بتؤدة ووعى ، وكان الصراع بين المرابطين والإرهاصات الأولى للموحدين تحت انبعاثات ابن تومرت .

وتوالت هزائم المرابطين ، فقوى شأن المهدي ابن تومرت وتضاعف التشيع له ، وزحف الموحدون إلى مراكش ، وتميز في القيادة محمد البشير وعبد المؤمن ، واستعد ابن يوسف المرابطي للدفاع ، والتقى الجمعان تحت أسوار مراكش ، وكانت هزيمة المرابطين وحصار الموحدين لمراكش ، ولكن استعاد المرابطون قواهم وتواجهوا في بقعة البحيرة ، فهزِمَ الموحدون وقُتِلَ قائدهم البشير ، وانسحب عبد المؤمن ، ومرض المهدي بن تومرت ، وتوفي ، واختلف المؤرخون في تقنيته بين متحفظ عليه ومدافع عنه (ابن خلدون) ، وتنفس المرابطون الصعداء ولكن إلى حين . فكانت المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين وانعكسات هذا الصراع على الأندلس بين مبق على عهده للمرابطين ، وبين متطلع للموحدين في الأندلس ، واستعاد عبد المؤمن قدرة المبادرة .

وتوالت هزائم المرابطين وارتدادهم إلى العديد من المواقع ، و وفاة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بعد أن وصلت في عهده الدولة المرابطية إلى ذروتها لتبدأ في التراجع والانشقاق لحساب الموحدين ، ثم لتنتهى بمصرع ابن تاشفين وفتك الموحدين بالمرابطين وبأحلافهم ، وتوالى الزحف الموحدى في اتجاهات متعددة ، ثم عبور عبد المؤمن إلى الأندلس لى يتفاعل مع أحداثها ويخفف من وطأة التحالفات المقنعة التى تمت بين ابن غانية وقشتالة ، واستنجد بعض ملوك الطوائف بالموحدين للتخلص من المرابطين أو من كان تحت ولايتهم ورايتهم ، ولقد لجأ البعض منهم وهو فى لحظات احتضار إلى الاستعانة بالمرتزقة النصارى ، ومع هذا استمر موكب الزحف مع عبد المؤمن ليجتاح إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية ، ويسط نفوذه تدريجياً فى الأندلس ، وتعامله حربياً مع النصارى بين الكرّ والفرّ ، كما كان الشأن فى عصر المرابطين .

واسترد الموحدون غرناطة محصنين لها ، ونقلوا قاعدة الحكم إلى قرطبة بعد إصلاحها ، وحمل عبد المؤمن راية الجهاد في الأندلس جاعلاً من رباط الفتح معقلاً لتمرکز الجيوش الموحدية ، ولكن سرعان ما مرض عبد المؤمن وتوفي بعد عقد البيعة لابنه يوسف ، وكانت الدولة الموحدية الكبرى التي تميّزت بحق بدقة نظام جيوشها ، ونظم الحكم والإدارة ، والاحتفاء بالعلم وتصدر العلماء ، والتزام عبد المؤمن الموحدي قبل وفاته بالأصول ، بل والتشدد في معاملة النصارى واليهود إلى حد القسوة .

ونعود إلى ما يعنينا تاركين التفاصيل التاريخية الخاصة بالحكم المرابطي والموحدي لمن يهمله الأمر من الباحثين على مستوى التخصص ، مركزين على الأندلس بين تدافعه وتراجعه في عصر الموحدين كما كان الشأن في عصر المرابطين ، وتنامي قوة الخصم القشتالي وإصراره على الثأر والمواجهة ، وما ترتب على ذلك من رفع لراية الجهاد والذود عن الأندلس ، المرة تلو الأخرى ، وإعداد الحملات من رباط الفتح لتتجه إلى الأندلس . وعبور الخليفة ابن يعقوب يوسف ومسيرته إلى إشبيلية ، ثم خروجه بقواته إلى بطليوس ، وتحالف ملك قشتالة وليون ضد الموحدين ، وتواجهها الجيشان ، وجرح الخليفة وقيل إنه مرض وتوفي ، وكتمت هذه الوفاة حتى مبايعة الأمير يوسف بن يعقوب ، وبعد الوصول إلى إشبيلية أعلنت هذه الوفاة وتوقف الغزو وأعلن الرحيل إلى رباط الفتح ، وعادت إلى الخصم طموحاته وتجدد غزواته للبقاع الأندلسية ، لتعلن من الجانب الإسلامي صيحة الجهاد ، ومسيرة الخليفة أبي يوسف يعقوب إلى قرطبة ليعود بقواته من جديد إلى إشبيلية محاولاً غزو ما حولها دون جدوى .

هذه الآونة شهدت إشراقة في المشرق تعيد الثقة في استعادة ما سلب ، إنها إشراقة صلاح الدين ، وتوالت الأحداث وتكشفت المواجهات دفاعاً عن راية الإسلام بين المد والجزر ، وكان الخليفة المنصور وخروجه إلى الغزو ومسيرته إلى طليطلة ثم إلى طليطلة ، وما كان من تحالف قشتالة وأراجون ، وبعد هدنة بين المنصور وملك قشتالة عاد إلى المغرب وأخذ البيعة لولده الناصر ، ووفاته بعد

اعتناقه للمذهب الظاهري وانتشاره في عهده وطموحاته التي كانت بلا حدود ، ولقد ذكر لنا ابن جبير من بين ما ذكر في رحلته : « أن صدى الدعوة الموحدية وصلت إلى مصر » .. بلا شك كان المنصور منصوراً متميزاً في العديد من المواقف والمواجهات ، وكمثال : موقعة الارك وكيف أن المنصور قاد جيوشه في مواجهة القشتاليين ليسجل رغم مقتل قائد الجيش أبي يحيى انتصاراً فريداً باقتحام جيوشه الموحدية لحصن الارك وارتداد ملك قشتالة نحو طليطلة بعد تسليم الحصن للمسلمين .

وتذكرنا هذه الموقعة الهامة بموقعة الزلاقة ، وتشهد كل موقعة على مقدرة قائدها المسلم وجدارته ، وانتهى عصر المنصور لتتوالى بعده فترات للدولة الموحدية غطتها سحُب الفتن والمواجهات وتحفز العديد من الولاة للانفراد بولاياتهم ، وعرف عصر محمد الناصر - كما هو الشأن في ما سبقه وما سيليه من عصور الحكام الموحدين - الصراعات في العديد من نواحي دولته ، مما جعل الموحدين يركزون انشغالاتهم بحوادث إفريقية وينشغلون بها عن الأندلس التي عرفت فترة مهادنة منذ موقعة الارك ، سريعاً ما انتهت بإغارة ألفونسو الثامن على بعض القلاع الأندلسية ، وإغارة ملك أرجون على أراضى بلانسيا .

ولقد اهتم الناصر الموحدي بهذه الأحداث واعتزم العبور للجهاد واستنفار القبائل ، فعبر متجهاً إلى إشبيلية وخرج بجيوشه إلى قرطبة ، وحصاره لبعض القلاع مما دفع النصارى إلى استجلاب المتطوعين النصارى الصليبيين من جميع الأنحاء ، واجتمعت جيوش قشتالة وأرجون ، وخرجت الجيوش النصرانية من طليطلة بعد أن خرج الناصر بجيوشه من إشبيلية ، وقد كانت المواجهة في حصن العقاب وتعبأت الجيوش الموحدية للقتال ، وكانت المعركة التي عرفت بمعركة « لاس نافاس دي تولوسيا » أو العقاب سنة ١٢١٢ م ، وتفككت مسيرة الجيش الموحدي ، ومع هذا قاوم الحرس الخليفى ، وثبت الناصر وصمد رغم مصرع الآلاف من حرسه الأسود ، ولكنه في النهاية اضطر إلى الفرار ، وكانت المطاردات المروعة للموحدين .

إنها لنكية اهتزت لها أرجاء الأندلس فزعاً ، وتضعضت الدولة الموحدية ، وتابع النصارى جنى ثمار انتصارهم مستولين على الحصون الإسلامية الواحدة تلو الأخرى ، ولم يخفف من هول هذا الزحف إلا ما كان من انتشار الوباء ، وعاد الناصر المهزوم إلى قصره بعد أن أخذ البيعة لولده أبى يعقوب يوسف ، ومات بعد أن ترك من البصمات ما عُرفَ به من استبداده بالأمر ، وخلو عهده من الأعمال الإنشائية ، وتأهيله لدولته الموحدية لتقع تحت ضباب الانحلال والتفكك فى الأندلس ، واستمرار ملوك النصارى فى تصيد الحصون والمواقع ، بل فتحت شهية هؤلاء الملوك للعبور فى كل اتجاه ، وسقطت بلنسية ، وبدأت نسائم الضعف تهب فى كل مكان على بقايا الطوائف ، كل يحاول أن ينجو بما تبقى له من عقد لتحالفات وتنازلات للقشتاليين .

ثم سقطت إشبيلية بدورها بعد أن عمتها الفتن وقتل أهل إشبيلية لزعيمهم ابن الجرد ، وما قيل من معاونة ابن الأحمر للنصارى ، واستيلاء فرناندو على قلعة جابر ، كما استولى على غيرها من القلاع ، وكثيراً ما كان يتم هذا بتسليم ابن الأحمر لها ، ورغم صريخ أمراء إشبيلية إلى المغرب وإصرار ملك قشتالة على التسليم الشامل لإشبيلية وإخلاء المسلمين للمدينة ، ورغم عبور القائد شقاف وزملائه ، كان المصير المأساوى لهم ، ودخل فرناندو الثالث إشبيلية مستغلاً ضباب النزاعات والصراعات والفتن فى صفوف المسلمين ، وتحول الجامع الأعظم إلى كنيسة ، وأصبحت إشبيلية عاصمة لقشتالة ، ودانت لهم المناطق المجاورة بالطاعة والخضوع ، وبدأ العد النازل للأندلس المسلمة مع العد النازل لنهاية الموحدين ، بعد تفكك دولتهم وسقوطها . وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها فى نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧ - ٦٥٥ هـ) عبر وابل مروع من الأحداث والمحن ، فالأندلس الذى كان يشغل قبل قرن نصف الجزيرة الأسبانية انتهى إلى رقعة متواضعة من مملكة غرناطة

أما أبو يوسف المرينى فقد دخل إلى مراكش وبويع ، وانتهت الدولة الموحدية وسيطر بنى مرين على المغرب الأقصى بعد أن طاردوا بقايا الموحدين هنا وهناك ،

ولا يمكن أن تُعزل واقعة العقاب وآثارها عن تراجع الدولة الموحدية لتؤول فى النهاية إلى الانهيار ثم الاندحار .

وبقيت غرناطة الحبيسة وما حولها لتواجه وتواجه مع بنى نصر أو بنى الأحمر عبر القرن الثالث عشر والرابع عشر لتحتضر وتنتهى مع نهاية القرن الخامس عشر .

لسوف نركز على غرناطة الحبيسة بعد انهيار صرح الأندلس وفى عصر بنى الأحمر ، باعتبار أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من مسيرة الأندلس ، سواء فى عصوره الكبرى أو فى عصر دويلات الطوائف ، عصر الفرقة والتمزيق والتطاحن رغم الإنقاذ المربطى والموحدى المؤقت ، فماذا عن غرناطة الحبيسة ؟ بعد أفول شمس الأندلس العملاق ، لنعيش فى فترة غروبه مع غرناطة الرابضة فوق صخرتها وما حولها ، وهذا هو موضوع الحلقة التالية فى الفصل التالى .



الحلقة السابعة

وماذا عن غرناطة الحبيسة

دون أن نستعيد تاريخ الأندلس من خلال غرناطة الرابضة والمحصنة بقلاعها فهي عايشة أحداث الأندلس منذ بداية الفتح ، قرية هامشية من كور « البيرة » لتصبح في فترة تالية ولاية ، لتتحول إلى مملكة ، وتواجه ما يتجاوز قرنين ونصف من الزمان ، دفع وتقلص ، مد وجزر ، عرفت ما عرفت ببقية دويلات الطوائف ، عرفت المرابطين ثم الموحيدين ، وقاومت الإصرار الصليبي بجهاد إسلامي عرف الانتصار كما عرف الانتكاس .

استجمعت غرناطة في عصر الصمود ما تبقى من الأندلس (١٢٣٧ - ١٢٣٨) عبر مواكب الفتن والصراعات ، كان الصراع على السلطة بين ابن الأحمر ومنافسيه ابن هود وابن مردنيش وآخرين ، تمكن في النهاية ابن الأحمر وهو محمد بن يوسف النصري سليل بنى نصر من السلطة (٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) . وقد كان بنونصر سادة لحصن أرجونة من أعمال ولاية جيان . ويرجع البعض نسب بنى نصر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وهو من كبار الصحابة . ولقد عاون ابن الأحمر على بسط حكمه ، أصهاره بنو اشقيولة . كما أنه دعا لأحد الأمراء المسلمين الظاهريين وهو الأمير أبو زكريا الحفصي صاحب إفريقية (تونس) متلقياً منه العون . كما قيل إنه دعى للخليفة المنتصر العباسي محتدياً بذلك حذو ابن هود من قبل . ومن المعروف أن مملكة غرناطة كانت تقع بين جبال نقادا ، وقد سماها العرب بجبال الثلج من ساحل البحر المرية ، إلى جبل طارق . وعرفت غرناطة التقلص والتحجيم بعد سقوط بلنسية في يد ملك أراغون ، وسقوط مدينة شاطبة في يد الأراجونيين أيضاً ، واستيلاء القشتاليين على حصن أرغونة - أو أرجونة - ، وحصار النصارى لمدينة جيان ..

ومع هذا استمرت المواجهة مع النصارى لتتخللها هدن ومعاهدات وإعطاء جزية أو معاونة ضد أعداء . ومن المحزن أن يذكر لنا بعض المؤرخين أن ملك قشتالة دخل إشبيلية بمساعدة ابن الأحمر . ولقد صار بنو اشقيلولة فى مالقة ووادى آش بعد أن عقد ابن الأحمر ولاية العهد لولده . ولم يف لأصهاره بنى اشقيلولة بوعوده . ولقد أبرم معاهدة مع المرينيين وأعطاهم منصب مشايخة الغزاة . وكم كان مؤسفاً أيضاً أن ابن الأحمر فى سبيل فك الحصار المضروب عليه فى مالقة ووادى آش من طرف أصهاره بنى اشقيلولة أن يستعين بالنصارى لفك الحصار عنه متخلياً لهم عن بعض المدن والقلاع والحصون . وهكذا نرى أن الذى أضاع الأندلس فى النهاية وأسقطها فى يد الصليبيين ، ليست قوة الخصم بقدر التمزق الذى كان يعانى منه الجسد الأندلسى من الداخل . وصدق المتنبى حين قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ويُذكر فى هذه الفترة هذا الأثر الذى ظل حتى يومنا شاهداً على التقدم العمرانى فى غرناطة ، ونعنى بذلك بناء قصر الحمراء على أنقاض قلعة بنى زيرى وما حولها .

مملكة غرناطة فى عصر ابن الأحمر ، والتى كما أشرنا صمدت ما ينيف على قرنين ونصف من الزمان . وكان صمودها ملفتاً للنظر كما أشار إلى ذلك المستشرق الأسباني الشهير « دياس كاخيلاس » فى مؤلفه المنشور بمadrid عام ١٩٤٨ وأورده محمد عبد الله عنان فى نهاية الأندلس العصر الرابع (ص ٤٠ - ٤١) : « إن قيام مملكة غرناطة فى ظل بنى نصر يبدو لغزاً حقيقياً ، وذلك أنها ولدت فى ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ... » مبدئياً دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبساتين يغلب عليها القفر أكثر مما يغلب عليها الخصب ، وامتداد رقعتها ما بين جيان شمالاً إلى الجزيرة جنوباً ، وبالرغم من أن الجند النصارى كانوا فى أحيان كثيرة يخترقونها حتى مرج غرناطة ، فإن

هذه العوامل كلها ، إضافة إلى الظروف الجغرافية والاقتصادية السيئة لم توقف تقدمها وازدهارها وبقائها مدى قرنين ونصف رغم أطماع النصارى ، حتى إن كل ذلك لغريب ، إنه لينبو عن الإيضاح .

عبرت مملكة غرناطة إذن التاريخ مرة محكومة بقيادات متفتحة متطلعة إلى الجهاد والإقلاع ، وأخرى بقيادات انطوائية قانعة بسقط المتاع ، تاركة للفتن والأهواء الساحة لتسيطر على الأحداث .

وهكذا عرفت غرناطة عهداً وعهوداً من محمد الثانى المكنى بالفقيه (٦٧٢ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) ، ولقد سار على نهج أبيه فى مصانعة الأقوياء ومداراة الأعداء . متصلاً بالقشتاليين طالباً منهم العون ومساندته وعدم مساندة بنى اشقيلولة ، متنازلاً لهم كما تنازل أب له من قبل ، عن عدد من الحصون وكأنها ملك له وضياع وليست بحصون المسلمين وأرض الإسلام . وكان طبيعياً أن يستولى القشتاليون على مدينة طريف ولا يلتزمون بعهودهم له ، ومع هذا يذكر له نظم الجيش والدواوين والاهتمام بالعلم والعلماء والأدباء .

ومن بعده عهد محمد الثالث المخلوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ / ١٣٠٢ - ١٣٠٩ م) وهو ابن محمد الثانى السالف الذكر ، ولقد شهدت هذه الفترة تداخلات ومضاربات كل يغنى على ليلاه ، ففى الوقت الذى عقدت معاهدة مع القشتاليين ، لم تُرضِ المرينيين فى المغرب ، فقاموا بتحريض ملك أرجون ضد ملك غرناطة ، ولقد عجلت الفتن والحروب على عصره ليتولى ابن أخيه الحكم بعده ، وهو نصر ابن محمد المكنى بأبى الجيوش ، واستمرت فى عصره أيضاً الاضطرابات . بل عرفت هذه الفترة أيضاً التحالف بين مملكة قشتالة وأرجون ضد غرناطة وعودة الاتفاق مع بنى مرين ليأتى عهد إسماعيل الأول ، خامس ملوك بنى الأحمر ليجتهد فى الدفاع عن مملكته ويحقق بعض الانتصارات على القشتاليين ، ومع هذا قُتل من طرف ابن عمه صاحب الجزيرة بسبب جارية ليتولى العهد من بعده ابنه أبو عبد الله محمد ، وليستمر تحرش القشتاليين بالمسلمين رغم قدوم الإمدادات من المغرب ، وكانت موقعة سلاو وهزيمة المسلمين وسقوط العديد من

المحصون فى يد النصارى رغم محاولة سلاطين المغرب إنقاذه ما يمكن إنقاذه بعد سقوط طريف والجزيرة الخضراء ، وقُتل يوسف الأول الذى تولى العهد فى غرناطة لىأتى عهد « محمد الغنى بالله » ، ليتولى السلطة فى هذه المملكة التى بلغ سكانها ما يقرب من نصف مليون . غرناطة عروس الحواضر الأندلسية التى كانت كما أشرنا فى مطلعها مجرد ضاحية من ضواحي مدينة البيرة حين الفتح الإسلامى . لتصبح وبخاصة فى هذه الفترة ، فترة ولاية محد الغنى بالله الذى استوزر لسان الدين بن الخطيب ، وتواجه مع الفتن محاولاً احتوائها ، وكذا الثورات المتكررة فى غرناطة ، مستبعداً عنها ليعود إلى عرشه فيها مناوراً مع ممالك النصارى - قشتالة وأراجون - بين مهادنة وهدنة ، وحروب وسلام ، ومواثيق وخرق للمواثيق ، وغزو لأراضى النصارى من المسلمين ، والعكس ، لم تسترح غرناطة وتستعيد أنفاسها من فتنة إلى أخرى ، ومن معركة تجر وراءها المعارك . إنها غرناطة المتميزة بصمودها كما هى متميزة بجروحها ، إنها ترمز إلى تاريخ أمة الإسلام ، صامدة رغم الاستنزاف والجروح مع الفارق فى النهاية ، انتهت غرناطة واستمرت أمة الإسلام صامدة تتواجه فى كل الجبهات ، غرناطة التى استطاع أن يجعل منها زاوى بن زيرى البربرى عاصمة لولايتيه قبل أن تتحول إلى مملكة متسعة مشرقة متحدية متواجهة ، مر عليها المرابطون ومن بعدهم الموحدون لتعرف فى ولاية هذا الغنى بالله - القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ / ١٣٥٥ - ١٣٩١ م) - قدرات ابن الخطيب ومحاولته احتواء الأحداث ، ومع عبقرية ابن خلدون وسفاراته الناجحة باسمها لدى « بدرو » ملك قشتالة سنة ١٣٦٣ م ، ولم تتوقف السفارات عند حد غرناطة والمغرب ، بل شملت حتى الاتصال بمصر فى المشرق ، والتى كانت تعاني بدورها من غزوات النصارى ، ولم يقف الغنى بالله عند حد الجانب السياسى ، بل اهتم بالجوانب الاقتصادية والحياة العلمية والأدبية . ويذكر لعهد حضور العقليتين المتميزتين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . هذا الذى دُبر له فى النهاية مكيدة انتهت بقتله فى فاس .

عرفت غرناطة بعد الغنى بالله الفقر فى ملوكها وضعفهم وتآمرهم فيما بينهم ،
ولجؤهم إلى النصارى كل على حساب الآخر ، أسماء يرويها لنا التاريخ من
حكام غرناطة . لن نقف عندها طويلاً ، توالت على الحكم بعد (٧٩٣ هـ /
١٣٩١ م) فى جو من الصراعات والأخذ والرد مع مغرب المرينيين من ناحية ،
ومع النزعة الصليبية الممثلة فى القشتاليين والأراجونيين من ناحية أخرى ،
المتحفزة لتصيد الفرص لتزحف نحو غرناطة مستولية على أطرافها طرفاً بعد
الآخر ، لتزحف إلى أحشائها فى النهاية . وإن كنا نسجل حدثاً هاماً فى نفس
الفترة ، وهو سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين ، وما كان له من ردود فعل
وأصداء بالنسبة للمواجهة فى الأندلس ، حيث روع هذا الحدث أوروبا النصرانية
وزكى فيها النزعة الصليبية ، وكان على غرناطة أن تتحمل ثقل هذه الأصداء
باعتبارها رمزاً لما تبقى من الإسلام فى الأندلس .

ولقد لعبت الأحداث فى بعض الأحيان لصالح هذه القلعة الحبيسة سواء فى
شكل فتن بين ملوك النصارى قشتاليين وأراجونيين ونقاريين ، أو فى شكل
إمدادات تأتى من مغرب المرينيين أساساً ، وما حولهما ، أو فى شكل قادة
واعين بخطورة المواجهة ، مستعدين للأنفاس فى عصر الاختناق ، ولكن هاهى
الأحداث وفى هذه المرة لا تلعب لحساب غرناطة وإنما على حسابها ، فتضيف إلى
رد فعل سقوط القسطنطينية والثأر النصرانى وتحفزه للقصاص سقوط جبل طارق ،
وقطع إمدادات المغرب ، واتفاق القشتاليين والأراجونيين بالمصاهرة فى الوقت
الذى عم الشقاق والطلاق فى الأسرة الإسلامية ، تألب الشقيق على الشقيق ،
وتقاتل أبناء الأب الواحد .

وهنا نحس بما تبقى من أنفاس لغرناطة الشهيدة المحتضرة فى عهد
أبى الحسن ، لقد حاول أن يحارب ولكنه انساق فى موكب التراجع والانهيار
متزوجاً بالنصرانية (هذا الزواج المختلط الذى أسهم فى انحلال المجتمع
الأندلسى) ، ليعم الخلاف فى داخل أسرته بين من يخلفه فى ولاية العهد .

سجن أبو الحسن ابنه أبا عبد الله الفتى من زوجته المسلمة ، حاول بنو السراج أقوى أسر غرناطة ، وكأن لهم شأن فى هذه الفترة أن يتدخلوا بين الأب وابنه ، وتمكن من الفرار فى الوقت الذى نرى النصارى يسبرون إلى مالقة ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة فى الموقعة المعروفة بـ « الشرقية » على يد الأمير أبو عبد الله الزغل ، وخرج أبو عبد الله محمد الفتى يحذو حذو عمه الباسل الزغل للغزو أيضاً ، ولكنه هُزِمَ عند الحصن « اللسانة Lucena » فأسر ، واقتيد إلى قرطبة ، فعمت الاضطرابات غرناطة التى كان قد تولاها أبو عبد الله الفتى مستغلاً ضعف والده ، ولكن بعد أسره اجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن ليجلس على العرش مرة ثانية ، ولكنه تنازل عنه لإعيائه وفقد بصره ، لأخيه أبى عبد الله الزغل الذى كان يحكم على مالقة ، وتم اقتداء الأمير الأسير ، ووقعت معاهدات طابعها سرى بين ملك قشتالة ، وفى سبيل ذلك زحف النصارى على رنده واستولوا عليها ، وشبَّت الحروب والفتن فى غرناطة بعد عودة الأمير الأسير بسبب الصراع بينه وبين عمه « الزغل » ثم ترك الابن غرناطة ذاهباً إلى المنطقة الشرقية للدفاع عنها ، ومع هذا توالى سقوط الحصون فى يد النصارى فى الوقت الذى عادت فيه المواجهات بين الأمير وعمه « الزغل » مستعملين الأنفاط ، وكأن الأسلحة التقليدية لا تكفى ، فمد فرناندو النصرانى يده لأبى عبد الله الفتى ضد عمه وسقطت مالقة فى يد النصارى ، وارتد الزغل إلى وادى آش ، وانقسمت مملكة غرناطة مع ارتقاء أبى عبد الله محمد على عرشها فى غيبة عمه الزغل رغم محبة أهل غرناطة لهذا الأخير ، وربما أيدوا الابن على عمه اتقاء للعدو النصرانى الذى كان يميل إلى الابن ، لا العم ، وتم هذا فى مملكة ممزقة ، خطط ملك قشتالة للقضاء عليها رغم الاستغاثة بملوك الإسلام ورسالة الدفاع عنها ، وشدة الحصار ، ونكث فرناندو بوعوده واستغاث ما تبقى فى هذه الأرض الباسلة بالمقاومين من رجالها بمصر ، فى الوقت الذى كان الشرق بدوره يعانى من نفس الصراعات ، وكان على المشاغل التى تحل وتصفى فى ميدان القتال أن تزحف على الأوراق ليفرض المنتصر ما يريد فرضه تأكيداً للاستسلام .

زحف فرناندو على مدينة « بسطة » رغم بسالة المسلمين فى الدفاع عنها ، واستسلمت فى النهاية كما استسلمت « المرية » ، وتدارك اليأس الزغل فركع لفرناندو ودخل النصارى لوادى آش ، وتنازل الزغل عن حقوقه مفضلاً الاسترخاء فى المغرب .

وكان الصراع الأخير حول غرناطة المحتضرة وهى فى سكرات الموت تأبى أن تلفظ أنفاسها على يد عدوها ، فكانت المعارك بين المسلمين والنصارى ، ومراوغة « فرناندو » وخداعه ، فى الوقت الذى يتأهب لافتتاح غرناطة بالزحف عليها ، محاصراً لها ، أمامها منشئاً مدينة « شنتفى » ، واستبسل ما تبقى من جسد غرناطة ممثلاً فى « موسى بن أبى غسان » ، فارسها الذى أثار حماسة المؤمنين وقاد الفرسان ، واشتد الحصار وانقطعت الإمدادات رغم تصميم الفارس موسى بن أبى غسان على الدفاع ، وأكمل فرناندو زحفه على المدينة وحبست غرناطة وهى فى سكرات موتها خروج أنفاسها فى سرير الاحتضار وأبت إخراجها إلا فى ساحة الاقتتال ، ولكن كيف فى مواجهة غير متعادلة ؟ بدأت رياح الموت تهب رغم اعتراض موسى على هبوب هذه الرياح ، رياح التسليم والاستسلام ، ولكن بدأ التحضير لمراسيم الموت ممثلة فى شروط التسليم وضماناته ، وكيف تحترم الضمانات بين المنتصر والمنهزم ، وعجل بالدفن ، وحملت مملكة غرناطة الحبيسة إلى قبرها بعد أن دخل القشتاليون إلى الدار رافعين الصليب فوق الحمراء ، وبدأت مواكب المتباكين والبكائين من داخل وخارج الدار .

وهذا ما سوف نطرحه فى الصفحات التالية والتى سوف نفردها لاستخلاص العبر بعد أن عبرنا الأندلس فى عرض مركز ، خلال فصول سبع فى حلقات سبع ، المحور الأول من هذا المؤلف ، على أن نتناول فى المحور الثانى وهو فى أربع حلقات : بؤر الضياع وقلاع المجد .

* * *

الحلقة الثامنة

فى بؤر الضياع بين الخاسرين

وضاع الأندلس بعد أن لفظت غرناطة أنفاسها لتكمل رحلة فى ممرات الضياع أسهم فيها الخاسرون كل بنصيب ، ومن البداية غافلين ومتغافلين ، لاهين ومتلاهين ، متآمرين على أنفسهم قبل أن يتآمروا على غيرهم ، لقد ضاع الإسلام فى القلوب حينما كان التخلّى عن مثله العيا ومبادئه الخالدة ، فضاع الأندلس بضياعه ، إذ قبل أن يفتقد الأندلس كفردوس يتمثل به المتعشّون فى مراثيهم ، افتقد الأندلس من داخل ذاته ، حيث فُرغ من محتواه الذى من أجله عبر رافعاً راية الإسلام ، مبشراً برسالة لإنقاذ البشرية ، وها نحن نرى كيف أن هذا الأندلسى بعد أن افتقد مضامينه الأساسية التى تلزمه بعمق الإيمان وقناعه واقتناعه بما من أجله خُلِقَ ملتزماً بمنهج محدد ، يركز على الوعى بالذات المؤمنة المتضامنة المتآلفة ، المزكية لنفسها بالتقوى ، بدلاً من استسلامها لغرائزها وفجورها ، المتحلّية بالصبر والحق والمتواتصية بهما ، أين نحن من كل هذا ؟

بلا شك ولنبدأ مع الخاسرين من البداية ، لم يعبر الفاتحون إلى الجزيرة عبوراً خالياً من الشذوذ والاستثناء ، فإن كانت الغالبية عبرت بإيمانها وقناعتها ، مستبسلة وطالبة للاستشهاد ، فهناك من عبّر - ولكل قاعدة استثناء - محمولاً بعصبيته ، محملاً بشهواته وأطماعه وأهوائه ، لم تكن تُرى حينما يشتد غبار التلاحم بغية الانتصار وتعلو صيحات التكبير لتغطى على كل الصيحات ، ولكن سريعاً ما يتحرك أصحاب هذه الشهوات منقبين عن الفنائم مشبعين لأطماعهم متغافلين وغافلين ، ومنهم اللاهين والمتلاهين ، وقطيع من المتعصبين النافرين ، وقد استيقظت فيهم رواسب كامنة لم تذب عبر الرحلة الطويلة فوق

رمال صحراء الشمال الإفریقی ، ولم تنقيها مياه وديانه وسهوله ، أو تخفف من حدتها روعة مناظره الخلابة في بداية الفتح ، فالتغافل واللهو والتعصب والعصبية ظواهر تبرز لتختفى وتتكيف مع الأحداث ، تتسم وتضيق حسب مايؤهل لها من ممرات .

وهكذا ومن البداية طالعنا هذه النماذج المختلفة مواكبة للفتوحات ، تتجسد في تغافل عن مسيرة الأحداث وتلاهي بسواقط الأشياء ، وإيقاد للنصرة والتعصب حسب المواسم والمناسبات .

كان تغافل الغافلين والمتغافلين في تأمينهم لمسيرة الفتح منذ البداية وعدم الحذر في المواقف والعلاقات واللجوء إلى قرارات لم تؤمن عواقبها فيُحتاط في اتخاذها ، هذه الغفلة التي هي في غنى عن التعريف ، وهذا التغافل المجاري للغفلة والمبرر لها امعاتيا عايشا الأندلس منذ البداية وواكبا في مختلف مراحلها وشتى عصوره ولاية ، وإمارات ، وخلافة ، وطوائف .. حتى مراحل الاحتضار .

نُفصل القول ما أمكن فيما أشرنا إليه بإيجاز ، كان على الفاتح أن يتابع الفلول الهاربة فوق الجبال أمام دفعات فتوحاته حتى لا تعود لتتجمع باحثة عن الثأر ، واضعة لها كحد أدنى أقداماً ولو في شكل بقع قد لا تُرى إلا بعين الحذر والمحتاط ، فقد نجح « بلای » في تأسيس مملكة « إشتبريش » الصغيرة ، ومن ثم كانت إيداناً بمولد الإمارات المسيحية في شمال الأندلس ، فضلاً عن أن العرب تركوا أراضي مقفرة تفصل بين زليقة وأرض الإسلام ، وما كان من استغلال ألفونسو لهذا الوضع واستيلائه على هذه الأرض المقفرة ، وهكذا لم تصل الفتوحات إلى غايتها بتأمينها لإطارها الخارجي ، فضلاً عن أن الفتوحات كثيراً ما كانت تخضع لحساسيات وشخصنة للمواقف ، وإلا كيف نبرر استدعاء موسى ابن نصير وطارق بن زياد في بداية الفتح من قِبَل الخليفة في دمشق وما حدث لهما بعد ذلك ؟

هذا إلى جانب ما يمثل من غفلة وتغافل عبر العلاقات مع الخصم سواء في ذلك المصاهرات أو التوادد الغير المحسوب ، كزواج عبد العزيز بن موسى من قوطية أرملة لذريق ، وما أُرُخ بشأن سيطرتها على زوجها وحشها على أمور خاصة بتسيير الدولة تجسد انفراده ، وتحقق طموحات قد تضر أكثر مما تنفع مستغلة في ذلك ما تعرض له والده من محن ، وتصرفات أخرى أثرت عليه في اتخاذها ورأى بعض المؤرخين أنها كانت من أسباب قتله سنة ٩٨ هـ ، وهذه مصاهرة أخرى لمونوسة البربري وهو قائد من قادة الفتح الإسلامي ، لدوق نصراني ، عقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمّنه بها من الغارات ، كذلك راجع مونوسة أمر عبد الرحمن الغافقي ، ومع هذا أرغمه هذا الغافقي على السير في الغزو ، فأبلغ حماء الدوق سراً بذلك ناصحاً له بالاستعداد ، وكُشف أمره واجتُثت رأسه ، فضلاً عن مزج حاشية من بيدهم الأمر بعناصر دخيلة يُشكُّ في ولائها ، بل حتى اللغة الأسبانية عرفت طريقها في عصر الإمارة إلى من عملوا في مختلف أمورها دون حسابات مضبوطة ، وكيف أن التسرب أسهم فيما بعد في تكثيف رياح التفكك والتفتت التي نراها تهب في سماء الغفلة والتغافل ، لتحمل إلينا نذير الارتداد المجسّد في عمر بن حفصون واعتناقه للنصرانية وما صاحبه من أحداث محزنة ، وماتم من التبرؤ منه ، وتميل بعض المصادر إلى أنه مات على المسيحية ، ويشيرون إلى نبش قبره وكيف أن وضعه يرجح هذه الفرضية .

ولا يعنينا بالضرورة هذا الحفصون بقدر ما يعنينا ما يمثله هذا التيار المهتز من مواقف أملتها الرغبة في السيطرة والنفوذ ، والتعلق بالسلطة وشخصنتها ، وكيف أن هذا قد وصل في نهاية عصر الخلافة إلى حد تبني الزيف بتنصيب خليفة وهمي ، نُصّبَ باسم هشام الأموي وذلك بعد وفاته بأعوام كما أشار إلى ذلك ابن حزم في « نقط العروس » (ص ٨٣) ، وفي هذا المضمار نذكر أيضاً هذا ألفونسو السادس الذي ارتقى في قصور طليطلة لاجئاً ، وبعد أن تعرّف عليها وفتحت له الأبواب ، عرف بدوره كيف يحتلها بعد ذلك . وهذا البطل يوسف بن تاشفين بعد أن حاصر طليطلة لم يساعده أحد من ملوك الطوائف

مما حدى به إلى الرجوع عن استعادتها ، بل إن بعض هؤلاء لم يتورع عن التحالف مع الخصم ضد ابن تاشفين كالحالة المحزنة نسردها بامتعاض . وهى الخاصة بالأمير عبد الله بن باديس بن حبوس المتحالف مع ألفونسو السادس ، ويدوره المعتمد بن عباد . ولم لا ؟ يستغيث بهذا الفونسو السادس ضد جيش المرابطين حين حصاره لإشبيلية ، المعتمد بن عباد صاحب العلاقات المقتنعة مع القشتاليين والتي آلت إلى ما آلت اليه ، ومن ثم فلم تكن القيادات وبخاصة فى عصر دول الطوائف بمنتهى عن الخصم وطموحاته ، فكانت أمامه الأبواب مفتوحة ومعه تتم التحالفات البغيضة ، وأسرار هؤلاء الطوائف منشورة فى عرض الطريق

لقد وصلت غفلة الغافلين ، وتغافل المتغافلين إلى مستوى أهل فى النهاية لابتلاع الجميع وعبر جرعات متوالية ، كل تؤهله غفلته إلى نفس المصير ، حتى الأبطال - رغم أنهم حاولوا احتواء الغفلة - يعترفون بنزاهة جذيرة بالإشارة والتقدير بأن كان عليهم ألا يتغافلوا ، نلاحظ هذا بإعزاز على لسان يعقوب المنصور الموحدى ، بطل معركة الأرك ، الذى (كما ورد فى « روض القرطاس » لابن أبى زرع الفاسى ص ٢٣) أنه ما ندم فى خلافته إلا على ثلاث ، والذى يعنينا من الثلاث هذه الخاصة بإطلاق أسارى الأرك حيث يتنبأ المنصور الموحدى « أنهم لا بد له أن يطالبوا بثأرهم » . حتى ملك قشتالة حينما دخل إلى إشبيلية كان ذلك حسب بعض المصادر (الاستقصاء للناصرى) بمساعدة بنى الأحمر ، ولنا معهم - وغرناطة - لا نقول وقفة وإنما إشارة متميزة ، فغرناطة التى استوزت ابن نغرلة اليهودى فى الوقت الذى كان هذا اليهودى فى ساحات أوروبا المسيحية الوسيطة ، يُحرق فى أيام الآحاد حين الخروج من الكنائس أو فى بعضها ، تأكيداً لاستمرارية لعنة المسيح عليهم ، ها هو فى أندلسنا المتفتح ، السمع ، لا يُسهم فقط فى الحياة الفكرية والحياة اليومية بصفة عامة ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع فيما بعد ، وإنما يشارك فى السُلطة ، هذه السُلطة فى غرناطة التى تبنت التغافل واستمرت تلوك الغفلة حتى لفظت أنفاسها ، فقد كانت وهى فى لحظات الاحتضار بين الأمير وعمه الزغل ، وكلاهما أبو عبد الله ،

يصل الحد بالملك المهزوم ، واللامبالاة إلى هذا الموقف البغيض من تهنته خصمه
فى الدين لاستيلائه على مالقة ، بهنىء فرناندو وإيزابيلا باستيلائهما ، لكى
يهنىء بعد ذلك ، ولمَ لا ؟ إن صحت التهنته - من منطوق ساخر - بأخذهما
المملكة منه وتسليمه بإذلال ومذلة لمفاتيحها .

غفلة وتغافل ، نرى أصداءها لدى المعاصرين لهما ، وعلى سبيل المثال
لا الحصر ، لسان الدين بن الخطيب وما كتبه فى « أعمال الأعلام فى من بوع
قبل الاحتلام » حيث يُبرز لنا إلى أى حد سيطرت الغفلة وعمّ التغافل ولم ينل
الملك من الرعاية ما يؤمنه .

غفلة وتغافل ، هكذا أسهمت عبر مسيرة الأندلس فى تشجيع وتدعيم مسيرة
اللاهين والمتلاهين ، هذا غافل يلوك غفلته ، وذاك لاهى يتسلى بمجونته ، ولمَ لا ؟
يتفاخر بخلاعتة وانحلاله ، تناعم اللّهُ مع مواكب الغفلة مزكياً لها ، متلاحماً
مع مسائريه من المتلاهين ، فهم بدورهم إمعات لهم ، كما أن المتغافلين إمعات
للفغلة ، يسرون فى الركب الذى نلاحظ اتساعه مع ضيق الانضباط وقصور
الحزم فى قيادات الأندلس ، من بطالع وبخاصة الأدب نشراً وشعراً فى الأندلس ،
لا يمكنه أن يخفى اندهاشه بقدر ما لا يمكنه أن يحجب انبهاره وإعجابه ، فيقدر
ما يعجب وينبهر بقدرة الإبداع والإشراق ، بقدر ما يندهش أمام هذه الحرية
والتححرر من كل القيود حينما تعبر عن مجونها ولو عبر صور تُبرز لنا جوانب من
الانحلال والتفسخ ، أسماء تذكر رجالاً ونساءً ، ولا ندرى أنكتفى بتسجيل
ما قدّموه من إبداع أم نشير أيضاً إلى ما جاء فى هذا الإبداع من تصوير لمناحى
المجون والمغالاة فيه ، ونكتفى بسرد نماذج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ،
فهذه « ضروب » الجارية فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، الذى تعلق بها .

وقدّم لنا صاحب « نفع الطيب » المقرئ (الجزء الأول ص ٣٢٦ وما يليها)
ما قدّم من وصف إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن هذا الأوسط الذى
ما تورع فى شهر رمضان من أن يترك لغرائزه وشهواته ما يجعله يستدعى

الفقهاء سائلاً لهم عن كيفية التوبة والكفارة ، وعن مجالسة هذا الأمير المغنى الشهير زرياب ، حملت لنا المصادر الأندلسية ما حملت إلى حد أن الأندلس دخل فى منافسة مع المشرق فى إطار الترف والاسترخاء ، حتى إن زرياب كثيراً ما كان يُحاكى ويُقلد كنموذج سلوكى ، ولن نطيل كثيراً مع هذا الأمير ، فما أكثر الأمراء الذين انشغلوا بملاهيهم أكثر من انشغالهم بحكمهم ، وتجاوزت جلسات الضرب والمنادمة جلسات تسيير الحكم والاهتمام بشؤون الرعية ، ملهاة تنفتح على ملهاة ، وتفاخر فى هذا المضمار ، إلى حد أن إبراهيم بن الحجاج بعد أن تغلب على إشبيلية ووصل إلى مسامعه ما وصل عن جارية بغدادية اسمها قمر ، فأرسل فى طلبها الأموال لشرائها ، أموال كان من الأولى أن تؤمن حياة رعيته وتخفف من حدة معاناة الضعيف منهم . ويطالعنا الحاجب عبد الرحمن بن المنصور كمثال آخر من تسلطت عليهم شهواتهم ، وقادتهم غرائزهم إلى حد الفسق الصريح ، بل ذكر عن هذا الحاجب أنه حتى فى غزواته كان يصطحب معه قرناء السوء والمنادمة .

مدن تُحاصر ، وصراعات مريرة مع الخصم المترقب ، وبلاطات تزهر بالمجون واللامبالاة ، تلهو إلى حد المغالاة والإفراط ، فهذا المعتضد بن عباد والى المعتمد ، يغالى فى لهوه وافتتانه بالدنيا حتى فى سكرات الموت ، مستدعياً لا نقول فقيهاً يرتل له القرآن ، وإنما مغنياً يشدو إلى جانبه وهو على فراش الموت (كما أورد ذلك ابن الأبار فى « الحلية السراء » ، ج ٢ ، ص ١٣١ ومايلها) .

وأمثلة كثيرة يمكن للمتتبع والقارئ لتراث الأندلس أن يسترسل فى ذكرها ويتوسع ، وبخاصة حينما تتراجع قدرة الانضباط وتبرز عوامل التأزم ، ولم لا ؟ التفكك والتفتت ، عصر الطوائف الأولى ونهاية الخلافة ، وعبر دول الطوائف مرة أخرى رغم احتواء المرابطين ومن بعدهم الموحدين ، فهى هى نهاية الخلافة تقدّم لنا نموذجاً من خلال « صبح » أم الخليفة الطفل هشام بن الحكم المؤيد ، وكيف كان سلوكها فى فترة محرجة كانت فى أمس الحاجة للصرامة لمواجهة

الأعداء ، والفتن والصراع على حدٍ سواء ، ولمَ لا ؟ هذه ولادة بعد طروب مع الفارق ، فطروب كانت طروب بما تحمله الكلمة من معانى ، بينما ولادة كانت بحق ولادة فى إبداعها شعراً بقى حتى يومنا هذا يتردد إعجاباً وانبهاراً بهذه الشاعرة ، بنت المستكفى ، الخليفة الأموى محمد بن عبيد الله ، وكان لها ما كان من مساجلات شعرية مع عشاقها أو مريديها إن أردنا لها المداراة بما هو أميل إلى الوقار فى سلوكها بالرغم مما يصرح به شعرها من أمور غير مستساغة كابنة خليفة للمسلمين ، وإن كان والدها بدوره ليس ببعيد عن هذا المضمار وذلك حتى قولها كمثال :

أَمْكُنْ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدَى وَأَعْطِ قِبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

(كما جاء فى « تاريخ الفكر الأندلسى » لـ « أ . ج . بالنشيا » ص ٨١ ، نقل حسين مؤنس) .

ولم يقف اللهو والتلاهى بالأهين والمتلايين عند هذا المستوى من التعبير الذى امتزج فيه الإبداع بالمجون ، والإشراق بالإخفاق ، وإنما - وهذا ملفت للنظر - كان هناك مَنْ لا يكتفى بممارسة مجونه ولهوه ، وإنما يلزم بسلوكه المنحرف الآخرين من أصحاب السلوك السوى حتى القضاة والفقهاء ، فهذا عامل الموحدين على غرناطة أبى سعيد بن عبد المؤمن ، يلزم ابن جبير - وهو غنى عن التعريف لما أسهم به من حضور فى أدب الرحلات - بعد أن استدعاه أن يكتب له كتاباً وهو على شراب ، فمد إليه يده بكأس ، فأظهر ابن جبير الامتناع قائلاً : « يا سيدى ، ما شربتها قط ، فقال له : والله لتشرين منها سبعة » ، فلما رأى العزيمة شرب سبع كؤوس ، فملاً له أبى سعيد بن عبد المؤمن الكأس من دنانير سبع مرات ، وصَبَّ ذلك فى حجره . وما كان من ابن جبير إلا أداء فريضة الحج بعد ذلك تكفيراً لشربه .

هذا ، ولم يقف مجنون اللاهين والمتلايين بهم عند هذا الحد ، بل كان هناك مَنْ يمارس الشذوذ من منادمة الغلمان ، بل وحتى فى جلسات الحكم ، كما حدث لابن أبى بكر بن عمار وزير المعتمد ومغازلته الغلمان فى حضرة المعتمد . ولعل

ما جاء في (المغرب في حلى المغرب ، لابن سعيد ، محققه شوقي ضيف ج ١ ، ص ٧٦) أبلغ دليل على ما وصلت إليه بعض مذن الأندلس من ممارسات لا يمكن إغفالها في هذا الموضوع ، حيث الشذوذ في قرطبة وصل إلى حد ممارسة المختلين علانية لانحرافهم ، كهذا الذي اشتهر بالهيدورة ، حيث كان يُضرب به المثال ، وكان هناك ضرب ابن زيدون الذي كان يُتمثل به في التعريض ، فيقولون : هو من ضرب ابن زيدون ، حيث غطت شهرة العهارة فيه حيزاً ملفتاً للنظر .

وهكذا تكاملت وتناغمت مواكب الضائعين أو مَنْ أسهموا في ضياع الأندلس أو الفردوس المفقود ، هذا بغفلته أو تغافله ، وذاك بلهوه أو تلاهيه ، في الوقت الذي كان فيه الخصم المواجه يترقب ويتحفز منقياً عن مناحي الضعف ومعارج القصور لينفذ منها ويباغت هذه الفئات البشرية التي لم يبق لها من الإسلام إلا الشكليات والمظاهر ، بل والتسميات والمسميات ، ومع هذا لا يُنكر أن من بين هاته الفئات مَنْ حافظ على دينه واحتفظ بمُثله وقيمه الخالدة ، ولكن تكالبت « الذئاب على خراف » ترعى في فيافي فتنها وتلوك دسائسها وترتع في حماسات جاهلية تجاوزها الإسلام بتسامحه وسماحته .

لقد استيقظت الغرائز ، وبقظت الشهوات يزكّي بعضها بعضاً ، وقد كان طبيعياً لهذا الذي ترك غرائزه وشهواته تقوده بلا تقنين ولا معيارية أن ينعكس على ذاته مبرزاً لما فيها من نعرات وترسيبات طفت مرة أخرى بعد أن احتواها الإسلام في مراحل المشرق وظهرت لتفجر وتنفجر ، وتدمر وتدمر ، فهي كامنّة كترسيب في الأعماق من الخطأ أن نرى مسيرة الأحداث بمعزل عنها ، ومن البداية ، تعايشت منذ بداية الفتوحات ، مرة تخمد وأخرى تشتعل حسب الظروف والمناسبات وما تمليه الوقائع والأحداث .

وهكذا رأينا كيف كان مصير موسى بن نصير الفاتح وطارق بن زياد ، وإلى أي حد لعبت الدسائس والمؤامرات أدواراً عتمت مسيرة ومصير الأبطال ، بل وشارك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز في نفس المصير التأمري ، وما هذه إلا أمثلة

نسوقها ومن بداية الفتح ، فلقد عبرت الصراعات إلى الأندلس مع عبور الفاتحين ولاحقت مختلف مراحل الأندلس وفتراته ، تتنوع ، وتتعدد وتختلف في رموزها بل وعناوينها ومسمياتها ، ولكن تظل في جوهرها تُعبّر عن تعصب وعصبية وحماسات جاهلية قَبَلية وعشائرية تصدى لها الإسلام بمُثلته السمحة وتسامحه ليتجاوزها ، طارحاً كبديل التعارف والتآلف توطئة للتضامن والالتحام ، تخف نيران العصبية وتهداً حينما تعلو راية الإسلام ويعمر الإيمان في القلوب ، فيندفع المسلم مع أخيه المسلم إخاءً في الله وتغانياً في إعلاء كلمته ، بنيان يشد بعضه بعضاً ، ولكن النفس البشرية ليست بالضرورة - وفي كل مراحلها - تتمتع بالتقوى ليفلح مَنْ يُزَكِّيها ، فكثيراً ما يطفئ الفجور وتسيطر الغرائز وتنتفخ الذات وتتشخص بدلاً مَنْ أن تتسامى وتتفانى وتقتنع بما أعطاه الله مطمئنة راضية مرضية .

وعبر الأندلس مع ولاته ضروب الفتن حتى إنه في فترة لا تتجاوز نصف قرن أحصينا من الولاة ما يتجاوز العشرين ، ولم تكن فترة الإمارة بدورها بعيدة عن مواكب الفتن والصراعات ، وقد زكيت نتيجة لتنوع السكان وعدم تجانسهم وتباين انتماءاتهم القَبَلية والعشائرية ، ولم تقف موجات الصراع عند فئات دون أخرى ، فعرفت طريقها إلى المؤكدين من أهل الأندلس ، كما عرفت طريقها حتى إلى ساحة الحياة الفكرية بين الفقهاء والعلماء والكتّاب ، صراعات هنا وهناك ، ودسائس تلقى بفائض من الضحايا وضحايا لضحاياهم ، قاتل ومقتول شُغلوا بمكائدهم أكثر من انشغالهم بالعدو المتريص والمتربقّب ليشب من جديد وينقض ، وقد أتاح له نيران الفتن والمؤامرات والدسائس والكيد والتعصب ممرات يعبر منها ليُزكى هذا ضد ذاك ، يد يد التحالف للشقيق مؤلباً له على شقيقه ، يفرّق حتى يسود ، ويُشعل النيران حتى تنطفئ ، يوقظها بسموم مكائده والقوم في غفلتهم غافلون ، وبملهاتهم لاهون ، كل يغنى على ليلاه ، وكأننا بالأندلس وقد تحوّل إلى ساحة متعددة المرامي والأطراف ، كل يقذف بما لديه ضارب أو مضروب ، وذهب وانقضى عهد الإمارة وحلت الخلافة لتهب في نهايتها مع

رياح سقوطها ، وتزايد وتزداد رياح الفتن الهوجاء ، تتعالى صيحات الاستغاثة حتى بالخصوم والأعداء ، وتأتى دول الطوائف بمزيد من فتنها وصراعاتها رغم الاحتواء المربطى لإيقاف مسلسل الخسران والضياح ، ومن بعده الموحدى ، وفى كل فتنة يتقلص جسد الأندلس الجريح ، وتُختزل مسافاته ، ويضيق مجاله ، يتراجع الأندلس رغم استغاثاته وأُناته مفتقداً لقواعده التليدة ، فها نحن وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر لهذا الأندلس الجريح كيف أنه وفى نحو ثلاثين عاماً (٦٢٧ - ٦٥٥ هـ) وعبر وابل من الأحداث ، وقد كان يشغل ما يقرب من نصف شبه الجزيرة الإيبيرية انتهى به الأمر إلى رقعة متواضعة تقلص فيها وانكمش ، مدافعاً عما تبقى له مجسداً فى مملكة غرناطة الحبيسة .

أنهت الفتن والمؤمرات ، وقد تزيث برداء العصبية ، متقيئة لحساسات الجاهلية ، على هذا الفردوس الذى غاص ومن البداية فى لجج التمزق ، فردوس أرادته البعض متشخصناً متفتناً يبتلع من المتريص جرعة بعد أخرى ، تلحف بوباء هذه الصراعات بعد أن حملها معه من المشرق مغلفة فى أعماقه لتنتشر كفعل ورد فعل ، وتتسرب كترسيبات كامنة تنتظر الأزمات لتطفو ، والمناسبات المواتية لتتفجر كجزئيات ، كل ينفرد برقعته ، منصباً لذاته منه وإليه ، وكم كان معبراً عن ذلك ابن حزم القرطبى فى « نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » (برواية الحميدى ، تحقيق شوقى ضيف ١٩٥١ ص ٨٣) حينما خطت يده « أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ، ويُخطب لهم بها فى زمن واحد : وهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن قاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن على بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن على بن حمود بِيَاشْتَر » .

شتات وتطاحن ، كل يدافع عن موقعه أقدامه ولا يرى أبعد من ذلك ، وغاب الشمول الإسلامى بمعبارية الأخوة فى الله ، لتجاوز كل الحساسيات ، ولم لا ؟ فجور النفس وتطلعاتها الطامعة فى متاع الدنيا وزينتها ، ولم يقف مسلسل التطاحن والصراع ، والتعصب والعصبية ، والشقاق والفرقة عند حد

الفئات ، وإنما تكثف وتقعّر حتى وصل إلى حد التصارع بين الشقيق وشقيقه ، بين الابن وأبيه ، وهكذا تقاتل الأبناء والآباء والأخوة والأعمام ، وأشعلت نيران الشقاق فى البيت الواحد ، ونسوق كمثل ننهى به عرضنا عن مأسى الصراع والتعصب ، ولمَ لا ؟ وقد أنهى الأندلس ومعه غابت شمسها وانطفأ نوره الإسلامى ، ونعنى بذلك ما حدث فى اللحظات الأخيرة لاحتضار غرناطة الحبسية ، وقد أوردنا ذلك تفصيلاً فيما سلف ، ونعود لنذكر بما وقع بين ابن عبد الله محمد وبين عمه الزغل ، تحتضر غرناطة وحكامها بدلاً من الاستبسال والاستشهاد فوق أرضها ، كان كل يسعى ليكيد ويدس للآخر ، الابن وعمه ، ويسدل الستار بعد رحيل غرناطة من أرض الإسلام ورحيل حكامها الخاسرين ليلتحقوا بمن سبقهم فى بؤر الضياع بعد أن سقط الغافلون والمتغافلون ، وازدحمت باللاهين والمتلاهين ، وعمرت بالدساسين والانتهازيين والمتأمرين ، وتحوّل الأندلس العملاق من خلالهم إلى نعوش تتدافع فى مواكب الخسران ، ومن خلفها وحولها حملة القماقم من البكّائين والمتباكين ، ممهدين من خلال هذا الموكب الجنائزى لمسيرة عبرت حتى يومنا هذا القرون . وسوف نكتفى فى الحلقة التالية التى سوف نخصصها لاستكمال جولتنا فى بؤر الضياع ، وفى هذه المرة بين هؤلاء البكّائين والمتباكين ، من خلال نماذج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر .

* * *

الحلقة التاسعة

فى بؤر الضياع بين البكائين والمتباكين

وضاع الأندلس وتحول ما تبقى منه إلى رُفات يندبها البكاؤون ، ولمَ لا ؟ المتباكون ، كل يبكى على ليلاه أو يتباكى عليها ، فهذا ارتبط بالأرض التى روتها دماء عشائره وقبائله ، يفرز عليها الأثأت فى صمت وإصرار ، وذاك يتباكى على ما أضاعه بيده وافتقده بخيانتته أو بجهله أو تجاهله ، وتوالت مواكب البكائين والمتباكين على حد سواء ، صاحبت مسيرة الأندلس عبر ما يزيد عن أربعة قرون قبل ضياعه لتستمر قروناً وقروناً حتى يومنا هذا ، شاعر أو أديب يرثى حاله بحاله ، أو يبكى على ماضيه فى حاضره ، أو على حاضره فى ماضيه ، وعلينا دون أن نفحص ونتحرى الجزئيات فى التوثيق والمتابعة - فهذا عمل نتركه للمتخصصين والمختصين فى هذا المضمار - أن نضرب أمثالاً برزت هنا وهناك من هؤلاء ، تطالعنا منذ سقوط الخلافة ومعاصرة لها ، من الهوزانى وابن العسال ، مروراً بابن خفاجة وابن الأبار ، ووقفاً عند أبو لبقاء الرندى لما تركه من أثأت فى الأعماق يرددها الحاضر كما ردها الماضى ، ووصولاً إلى لسان الدين بن الخطيب والقيسى وابن عاصم حتى ابن الأزرق . لنرى أمثلة أخرى نشير إليها عرضاً ، ونلتقى فى النهاية مع مَنْ عاشوا عمق المأساة من المورسكيين وأصداءهم فى كل مكان فى ديار الإسلام ، وبخاصة البقاع التى ألقى إليها بما تبقى من آثار المأساة ، واختلط الباكى بالمتباكى ، وتلك الأيام ندوالها بين الناس .

نُفصل القول مكررين ما أشرنا إليه سلفاً من أننا لن نفحص فى رصدنا للبكائين والمتباكين « لتنحر كالأعماق » فى كل الأبعاد والأزمنة ، وإنما سنكتفى بالذكر عابرين للتذكير بما ورد على ألسنة هذه النماذج باكية أو متباكية عبرة لمن يعتبر .

فهذا الهوزانى أبو حفص عمر بن الحسن ، صديق المعتضد بن عباد وضحيته
فى نفس الوقت (المتوفى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) ، بحث ابن عباد عقب
أحداث هجوم النصارى على برشتر فى قصيدة جاء فى مطلعها :

أعباد جل الرزء والقوم هجع على حالة من مثلها يتوقع

(« الذخيرة » لابن بسام ، ج ٣ ، ق ٢ المجلد الاول ص ٨١ وما يليها)

ويطالعنا ابن العسال (المتوفى فى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، هذا الفقيه
أبو عبد الله ، بحث أهل الأندلس على الجهاد بعد سقوط طليطلة ورحيله عنها
إلى غرناطة بأبيات جاء فيها :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

(« أزهار الرياض فى أخبار عياض » للمقرئ ج ١ ، ص ٤٦) .

ولم تقدم لنا فقط هذه المصادر المعروفة انعكسات البكائين وزفراتهم ،
بل هناك مراثيات ضائعة نُقلت إلى اللغة القشتالية وأثبتها بعض المستشرقين كما
هو الحال فى المراثية التى نُسبت إلى ابن علقمة محمد بن الخلف الحسن إسماعيل
الصدفى (المتوفى فى ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م) ، وقد أثبتها له دوزى المستشرق الهولندى
المعروف على أنه صاحبها ، ومطلعها بالعربية كما نقلت : « بلنسية ... بلنسية
... مصائب تحدى بك ، أنت تحتضرين ، وإذا قُدر لك النجاة فسيرا عجبياً من
يعيش ويراك » .

(ترجمة طاهر مكى « دراسات أندلسية » ص ٢٧٨ ومايليها) .

وها هو ابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم الأندلسى (المتوفى ٥٣٣ هـ /
١٢٠١ م) ، متأسياً بدوره على بلنسية حينما أحرقتها النصارى عند خروجهم
منها (عام ٤٩٥ هـ) فى أبيات استعاض من أبى تمام صدر لبيت منها حين قال :

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها « لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار »
وعجز هذا الشطر الأخير من البيت : « خف الهوى وتولت الأوطار »
عند أبي تمام .

(« ديوان ابن خفاجة » تحقيق غازي ، الطبعة الثانية ص ٣٥٤)
ومع بلنسية نستمع إلى أنات ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي
(المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) - وقد حرق كتيبه في حصارها وقادته قدماء
إلى تونس استنجاداً حيث كانت القصيدة المعروفة ، وهي كثيراً ما تسمعا
الآذان في مواقع الاستنجاد والإغاثة إذ يقول في مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلس إن الطريق إلى منجاتها درسا
وقد ورد « إن السبيل » (يراجع ديوان ابن الأبار ص ٣٩٥ وما يليها) .
وهكذا بلنسية كانت مدعاة لاستنفار ذهنية الأدباء والشعراء وهي تعاني كما
كانت تعاني بقاع متعددة من الأندلس ، تستقطع وتبتر الواحدة تلو الأخرى ،
وهذا ما حدى باسم معروف وشهير ، يرد على الألسنة حينما تهب الفجائع وتحل
النكبت يستعاد مقلته الشهيرة في قصيدته :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان
إنه أبو البقاء الرندي ، وورد عند ابن الخطيب على أنه « يزيد بن موسى بن
أبي القاسم بن علي » ، ويكنيه المقرئ في أزهار الرياض بأبي البقاء (المتوفى
في ٦٨٤ هـ / - ١٢٨٥ م) ، والمناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة الشهيرة
هي كما أوردته المصادر ما اقتطعه فرناندر الثالث وحاكمه الأول من أرض
الأندلس المسلمة ، وإن كنا نكتفي بهذه الإشارة إلى هذا البكاء لنعود إليه في
الملحقات تفصيلاً ، فذلك لنستعيد شهيراً آخرًا غرناطياً يلتقي معه في الرثاء ،
ولم لا ؟ في شهرة ما ورد في موشحته الرثائية :

جارك الغيث إذ الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً فى الكرى أو خلسة المختلس

هذا لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشى (المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، والذي يُعتبر بحق من العقول المتميزة والمتواثرة فيما قيل عنها ، فهو صاحب الإحاطة وبحق أحاط بعصره ، وكان بذلك ضورة معبرة للمعاناة المزدوجة منه إلى عصره ومن عصره إليه ، واستمرت مسيرة البكائين لتعبر الأيام والسنين ولا تتوقف ، فهذا محمد ابن عبد الكريم القيسى الأندلسى البسطى وقد شوهد عام ٨٣٥ هـ - كما ورد فى مصادر مختلفة - يرثى بدوره عصره الذى عاش فيه هذا الأندلسى الممزق وهو يتراجع ، يتأسى على شهداء « كائنة لورقة » فى القرن التاسع الهجرى كما تأسى غيره من قبل على ما استشهد فى معارك المواجهة والدفاع عن المعامل ، وهى تهتز إذ يقول القيسى :

لمصاب أندلس تصوب الأدمع ولما جرى فيها تذوب الأضلع
فلها مع الأعداء حال تفرع نقضى بحسرة من يرى أو يسمع

(« البسطى آخر شعراء الأندلس » تقديم ابن شريفة ص ١٧٢) .

وهذا ابن الخطيب الثانى كم كان يُنعت ونعنى به ابن عاصم الغرناطى أبو يحيى ، قاضى الجماعة بغرناطة ، عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، حيث شوهد بدوره - كما ورد بعض المصادر - عام (٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م) على قيد الحياة ، إنه يندب احتضار الأندلس فى نزعاته الأخيرة من خلال كتابه « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » ، حيث ورد على لسانه فى هذا الكتاب - كما ذكر المقرئ فى « أزهار رياض » (ج ١ ص ٥٠ وما يليها) - قوله : « ومن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا فى المسلمين ثأراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخرّبوا من الجزيرة منازل ودياراً ، ولم يستولوا عليها بلاداً

جماعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف .

وغرناطى آخر قاض للجماعة أفرز أناته الجريحة حين نزول الأعداء تخرج غرناطة ونعنى به ابن الأزرق ، محمد بن على بن محمد الأصبهى (المتوفى ٨٩٦ هـ / ١٤٩١ م) ، فى قصيدة له يرى أنه لم يعد من رجاء إلا فى الله حيث يقول :

وكن راجعاً لله فى كل حالة فليس لنا إلا إلى الله مرجع

(« نفع الطيب » ج ٢ ، ص ٧٠٣ وما يليها) .

ودون أن نسترسل تفصيلاً فى ذكر من بكى على أندلسه الضائع ، التزاماً منا بما حددناه من إطار لنماذج على سبيل المثال لا الحصر ، وإلا سوف يدفعنا الحصر إلى البحث عن من أفرزوا أناتهم فى أعماقهم وهم يلاحظون المأساة دون أن يخطونها فى أبيات أو جمل ، فقد خطتها القلوب الحزينة فى أعماقها ، والتقى فى ذلك من شاهد بداية التراجع مع من شاهد نهايته واندحار الأندلس من داخل أو خارج الدار ، من ابن رشيق إلى ابن فرقد ، وغيرهم الكثير ، لو توخينا الإحصاء والتقصى لانعكاسات هذه المأساة التى لم تقف أصداءها عند حد ومجال من عاشها فى أرضه ، وإنما شعت وأشعت بهمومها لتغطى بلاد الإسلام جمعاء بدءاً بالمغرب المسلم المضيف ، وكيف بدوره رأينا من بين صفوفه من لا يكتفى بتقبل واستقبال هؤلاء الخاسرين الضائعين ، وإنما يشاطرهم الهموم والأحزان ، يكمل ببكائه بكاءهم ، ويغذى بدموعه نهر دموعهم .

لم تقف مشاعر المعاناة عند حد المورسكيين كمحور بعد الضياع ، وإنما التقى فى محيطها كل مسلم يشعر بكارثة الاندحار والضياع ، ومع هذا ، وفى هذا الجو الجدير بكل خشوع وانحناء أمام كل من غذى أرضه بدمائه الطاهرة ، نرى قلة ممن لم يكتفوا بالتنكر لها ، وإنما تنكروا لضمائرهم وإيمانهم ، يتباكون على الذى أضاعوه بأنفسهم . إننا لا نصنفهم فى ملء البكائين النزهاء فى

عواطفهم المخلصين فى أناتهم ، وإنما هم زمرة من الضائعين المضيعين من الانتهازيين الوصوليين الذين يلبسون لكل موسم رداءه ، لبسوا رداء الخيانة ليلبسوا بعد ذلك رداء التسول والاستجداء ، وسنكتفى من هذه الزمرة بمثال ، هذا الملك الضائع آخر ملوك غرناطة ووزيره ، لنشير إليه قبل أن نكمل جولتنا فى بؤر الضياع بين ما تبقى من أمثلة للبيكّاتين المورسكيين قلب المأساة ومن تداعى معهم عبر المشاعر الإيمانية والإخاء فى الله ، بدءاً من المغرب الأقصى وبقية بلاد الإسلام فى الماضى والحاضر على حد سواء ، حتى المتداعى مع الأندلس الذى تساكن فيه .

ونعود إلى آخر ملوك الأندلس المتباكى كبكاء الأطفال على ملك لم يرعاه رعاية الرجال ، إنه محمد بن أبى عبد الله بن على بن الحسن بن سعد بن على بن يوسف بن محمد الغنى بالله النصرى ، وقد أطيننا فى نسبه متتبعين له ، هذا النسب الذى لم يرع حرمة ولم ينتصر له وهو النصرى مستشهداً فى سبيله ، وإنما هالكاً فى منفا حيث وافاه الأجل (عام ٩٤ هـ / ١٥٣٤ م) فى فاس بعد معاناة وحرمان مورثاً لأعقابه ما تبقى من أسرته ، بدلاً من المجد والرفعة والجاء ، ذل التسول والمعاناة (كما شاهد ذلك صاحب نفع الطيب) - لقد التجأ ووزيره العربى العقيلى لأبى عبد الله الشيخ زعيم بنى وطاس بعد أن سلم غرناطة الصامدة تسليم الخائعين مكتفياً بترديد شعارات تغطية الهزائم والنكبات ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، فذكرت المصادر الكلمات الأخيرة التى كان يلوكها لسانه المتوسل المستسلم : « الله أكبر ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كُتبَ على أن أكون شقياً وأن يذهب الملك على يديّ » فما كان من جوق المرتزقة الحاسرين الملتفين حوله من رجاله إلا أن كرروا : « الله أكبر ، ولا راد لقضاء الله » .

صيحة التكبير ليس مكانها فى بؤر الاستسلام والضياع ، ولكن هى صيحة ساحة المواجهة والتعبئة والاستشهاد ، لم يكتف هذا الملك الضائع بمخادعة

عشيرته وأهله ورعاياه ، وإنما تطاول ليخادع الله .. ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (١١) .

وهذا وزيره العربى العقيلي بدوره ، وهو محمد بن عبد الله ، يشير لنا المقرئ (فى « أزهار الرياض » ج ١ ، ص ٧٢ ومايليهها) ، كيف تباكى على أندلس أضاعه بيده أمام الملك الوطاسى بالمغرب فى عرض ارتزاقى أسمائه « الروض العاطر للأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » ، حيث جاء على لسانه من بين ما جاء عبر عبارات التسول والاستجداء قوله :

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

ولنا عودة فى ملحقات هذا الحوار لهذا الوزير المستجدى ومملكه الضائع ، نورد هنا لما فيها من عبرة لمن يعتبر .

وقفنا قليلاً مع هذا النموذج لمن أطلقنا عليهم المتباكين ، ونسترسل فى تجوالنا الآن عبر بؤر الضياع بين البكائين وذلك لنعرف ما أمكن وفى إطار هذه الإشارة المركزة ، بأمثلة ممن عانوا عمق المأساة ولم يتباكوا عليها ، وإنما ذرفوا الدموع الزكية تحت أنقاض أندلس النكبة مصممين وصامدين ، وليس لهم من وسيلة إلا قناعة الإيمان والإصرار على الهوية والانتماء ، وإن كانت جماعات منهم تحت ثقل وضغوط الغزاة وأمام موسوعة اليأس والطريق المقفول أن يقفزوا من تحت الأنقاض هاربين بدورهم لاجئين إلى أرض للهجرة والإيواء .

وهكذا اختلط ، فى المورسكيين ، الباكي فى عقر الدار مع المتباكى من خارج الديار ، باحثاً عن منقذ لما تبقى له فى الحياة كلاجئ فى بلاد الإسلام ، إما فى أقرب البقاع له ، أو جائلاً فى بقية البلاد المسلمة والأصقاع . وقد كان طبيعياً أن يكون لهذه المأساة أصداء فى مختلف الأرجاء الإسلامية بدءاً بأقربها كالتى أسهمت فى فترات مختلفة فى عملية الإنقاذ ، أو إيقاف التنفيذ لضباع الأندلس ،

كما هو الحال - على سبيل المثال - مع مغرب المرابطين والموحدين ، فلم يكتف المغرب المسلم بالمشاركة فى المواجهة وتدعيم مواكب الصمود والإصرار ، وإنما حتى بعد وقوع الكارثة شارك باستضافته ومشاعره الإيمانية فى تحمل آثار النكبة والمعاناة ، والحث على الجهاد لاسترداد ما افتقد ، فهذا البهلولى وهو أبو عبد الله بن محمد بن يحيى وقد كان على قيد الحياة (عام ٩١٠ هـ) ، بحث الوطاسى على استرداد ليس فقط الشواطىء المغربية وإنما الأندلسية (كما نقل لنا فى الاستقصا ، للناصرى ، الجزء الرابع ص ١١٢ ومايلبها) حيث يقول فى مطلعها :

قم للجهاد رعاك الله منتهجاً نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زلت محتدماً لو كان يمكننى فى الليل أحترم
وذاك الشاعر الذقون أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجى (المتوفى ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) وهو معاصر بدوره لهذه الأحداث يقدم لنا فى قصيدة طويلة تحمل تسمية « الموعظة الغراء » افتتحها بقوله نثراً : « إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء لأخذ الحمراء ، قرعت باب الندبة لما تقدم من الصحبة » ليضيف بعد ذلك شعراً :

فالموت عندى خير من حياة فتى قد اكتسى بعد عز ثوب إذلال
(« أزهار الرياض » ، للمقرئ جـ ١ ، ص ١٠٤ وما يلبها) .
ومثال آخر لمغربى مكناسى هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان (المتوفى حوالى ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م) ، يتأسى بعد أن ساهم كسفير فى فك أسرى مسلمين لدى ملك أسبانيا كارلوس الثانى فى كتاب يحمل هذا الاسم « الإكسير فى إفكاك الأسير » (تحقيق محمد الفاسى ص ١٢٧ وما يلبها) حين مشاهدته لمكتبة الاسكوريال وما فيها من مخطوطات عربية قائلاً :
« فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادى ، ونادت بالشارت فلم يأخذ أحد بثأرها ، ياليتى لم أرها » .

وبدوره مفتى فاس ، وهو أبو محمد بن عبد الواحد البوعناني ، المعاصر للمولى إسماعيل (١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) يخاطبه حين فتح العرائش في قصيدة جاء فيها :

أيا مولاي قم وانهض وشمّر لأندلس فأنت لها الأمير

(« تاريخ سبتة » ، محمد بن تويت ، ص ١٩٦ وما يليها)

ولعل الموركسيين وقد تجسد فيهم وبهم المشهد الأخير قبل إسدال الستار على الفردوس المفقود ، بضياح ما تبقى من الأرض ، ودفن من تبقى تحت الانقراض من الرجال وما أكثرهم ، بل ظل منهم من يجاهد محاولاً دون يأس أو قنوط لاستعادة كجيوب للمقاومة في مناطق حول غرناطة لتنمحي رستسلم عبر فترة تجاوزت الثمانين عاماً من الاحتضار لهؤلاء الرجال بعد الضياح ومطاردة من لفظوا خارج الديار حتى لجوئهم إلى ديار الإسلام ، يمثلون بحق قلب المأساة ، فقد كانت الأحداث من القسوة عليهم إلى حد المحو والإلغاء أو فقدان المرجعية والانتماء .

وهكذا ظهرت لنا منهم فئة بكائية مجهولة الهوية ، فيها الشعراء والمؤرخين وأصحاب الرسائل الموجهة إلى السلاطين : هذا شاعر مجهول نظم مؤرخة في عام (٣٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ، عام النكبة ، يبكي فيها ضياح غرناطة وغيرها من البقاع الأندلسية .

ومؤلف مجهول يخط كتاباً بعنوان : « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » ، بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً ، وجاء في نهاية ما خطه من الأخبار (طبعة العرائش . ١٩٤) قوله : « عم الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، وعلى هذا فليبكي الباكون ، وينتحب المنتحبون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون » .

ومجهول موركسي بدوره يتوجه إلى السلطان بايازيد الثاني العثماني برسالة نشرها شعراً حوالي عام (١٥٠٥ م) ، يشرح فيها واقع المعاناة ، وقد مالت بعض

المصادر فيما يعنى هذا المجهول (مثال عنان فى « نهاية الأندلس » ص ٣٤٦) إلى أن يكون أندلسياً متنصراً يستغيث من المطاردة والعقوبات ، وأعزت مناسبة توجيهها إلى ما حدث عقب ثورة البشراة وما تلاها من قمع فى سنة (١٥٠٥ م) . بل ليست هى الرسالة الوحيدة التى وجهت إلى السلاطين فى هذا المضمار ، فهناك رسالات واستغاثات وصيحات لمجهولين يثنون تحت أنقاض الأندلس ، أو لاهثين فى ممرات الخسارة والضياح ، فضلاً عن المعلومين بأسمائهم من المورسكيين المهاجرين ، الفارين بدينهم إلى ما تبقى من ديار الإسلام ، كمثال : محمد بن عبد الرقيق بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى المتوفى (١٠٥٢ هـ / ١٦٥٢ م) ، وقد آوى إلى تونس بعد الرحيل ، وألف كتاباً بعنوان « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، يشرح فيه واقع المعاناة التى عاشها المورسكيون ، وتطبيقهم الخفى للشعائر الإسلامية رغم قسوة أعداء الدين وممارستهم للقمع والتسلط .

ومثال آخر لمورسكى مهاجر ، وهو أفوقاى أحمد بن قاسم الحجرى ، وقد ذكر أنه كان على قيد الحياة عام (١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) وكان رحيله إلى المغرب بعد مأساة الخروج من الأندلس ، ونجد أصداء لهذه المأساة فى مؤلف له بعنوان « ناصر الدين على القوم الكافرين » ، وهو مختصر لرحلته « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » ، وهذا المهاجر إلى حد ما كان أفضل حالاً من بقية المهاجرين والمعانين حيث تولى السفارة متجولاً فى مختلف المناطق باسم السلطان السعدى ، وأثبت فى رحلته العديد من الأمور التى كانت معاصرة له آنذاك ، مما يجعل آثار المورسكيين المهاجرين وما كتبوه وما صوروه ، بل وما قدموه عن مأساة الأندلس جدير بكل اهتمام ودراسة ، خصصت لها العديد من المؤسسات : أسبانية وعربية على حد سواء ، مكانة متميزة فى ميدان البحث والتنقيب ، فهذا على سبيل المثال معهد فرناندو الكاثوليكي بسرقسطة ينشر لنا أخيراً (عام ١٩٨٨) دراسة طويلة قام بها (Pans) عن المورسكى إبراهيم التجبيلى ، وهو من مواليد طليطلة ، طرد مع المورسكيين وكان عمره ثلاثين عاماً من

أسبانيا (عام ١٦.٩ م) ، ورحل إلى تونس وله مخطوطتان ، إحداهما توجد في أكاديمية التاريخ ، والأخرى في المكتبة الوطنية في مدريد ، يروى هذا المورسكى شهادته كطريد ، والظروف التي أحاطت بمأساته قبل رحيله بعد أن بأسست المحاولات المتعددة من تحويله عن دينه وإلزامه بالمسيحية ، فلم تُحترم المواثيق الخاصة بصيانة حقوق المسلمين بعد سقوط غرناطة ، فتنكر فيليب الثالث لما وقعَ عليه ، كما تنكر فيليب الثاني من قبل في نقضه للمواثيق ، وما كان من تقييد الحريات المورسكيين واضطهاد لهم ، بل لم يكتف بمطاردة وطرود البشر ، بل طوردت اللغة العربية وطردت بمنعها وبشكل نهائي وإلزامي ، من التداول ، بل إلزام المورسكيين بزي النصارى ، وأن تكشف النساء عن وجوههن ، حتى الأفراح فرضت أن تكون بالطريقة المسيحية ومنع استعمال الأسماء والألقاب العربية ، حتى الحمائم العامة طولب بهدمها ، وكم كان غريباً أن يصل التطاول في قهر الحريات إلى الشكليات في حد ذاتها ، إذ مُنعت المورسكيات من تزيين أيديهن بالحناء !!

وهكذا عاش أبطال المحنة المورسكية قبل مأساة الطرد (عام ١٦.٩ م) وما زالت هذه المأساة للمورسكيين تحظى باهتمام الباحثين - كما أشرنا - من العرب والأسبانيين سواءً بسواء ، تُنشر المخطوطات وتُعقد المؤتمرات للتعريف بما استجد حول هذه الفترة الرهيبة بعد ضياع الفردوس المفقود ، فنشير - ودائماً على سبيل المثال لا الحصر - إلى ما جاء في بحث نُشرَ حديثاً تحت عنوان « تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (١٤٩٢ - ١٦.٩ م) » ، وهو خلاصة لأعمال المؤتمر العالمي للدراسات المورسكية وما أُلقيَ فيه عام ١٩٨٧ من بحوث حول ثورة المجاهد المورسكى سليم المنصور ، ومقاومة المورسكيين لمحاكم التفتيش ، والتطبيق الخفى للشعائر ، (ورحلة المورسكى الحجري وقد أشرنا إليه سلفاً) .

وكم يبدو غريباً بل وملفتاً للنظر وداعياً للتأمل ، موقف الإسلام من الآخرين أمام موقف الآخرين من الإسلام ، وخير مَن يُجسّد لنا هذه الغرابة ويُعمّق لنا

طبيعة التأمل حول هذا المسلم الذى يغوص فى أعماق التخفى والتقنع ليمارس ما تبقى له من رموز تؤكد له هويته وإصراره على ذاته فى فترات تحجيمه وتقليصه أمام طغيان المنتصر والسائد والمسيطر ، وهذا المسلم من أجداده الذى كان وهو فى قمة إشراقه ومجده لا يقف عند حد السماح للآخر بمزولة شعائره والاعتزاز بخصوصياته ، وإنما بسلوكه المتفتح السمع ، المعطاء ، يجعل هذا الآخر إن لم يك مندمجاً ومتكاملاً معه ، فعلى الأقل ساعياً إلى ربط مصيره بمصيره ، متأسياً على تراجعه فى الأندلس ، وكأنه يتأسى على ذاته ، وكمجرد مثال يُعطى فى هذا المضمار هذا الإشبيلي إبراهيم بن سهل (المتوفى ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) .

وقد كان على الديانة اليهودية أولاً ، وعاش مع المسلمين وتأسلم وتعاش معهم ، وكان شاعراً من شعراء إشبيلية ووشاحاً ، فضل الهجرة منها أثناء احتلالها من طرف الأسبان سنة (٦٤٥ هـ) راحلاً إلى سبتة ، والذى يعنينا ما جاء فى قصيدته عن إشبيلية حينما حاصرها الأسبان ، وفيها يحث أمراء العرب على إنقاذها ، جاء فى مطلعها :

يامعشر العرب الذين توارثوا بشيم الحمية كابراً عن كابر

إلى أن قال :

أنتم أحق بنصر دين نبيكم ويكم تمهد فى قديم الأعصر

يهودى تأسلم بمشاعره ، بل وتلاحمه ، يدق ناقوس تراجع الأندلس وارتداده كما دقّه شعراء وأدباء العرب ، وأعطينا العديد من الأمثلة لهؤلاء الباكين على أفول شمس الأندلس عبر مختلف مراحل التقلص والانكماش منذ سقوط الخلافة ، وعبر ما يزيد عن أربعة قرون ، حتى ضياع الرمز الأخير للصمود فى الأندلس ، غرناطة الحبيسة ، ريعمئة عام من البكاء انتهى لدى البعض فى النهاية إلى التباكى ، ولم يلتئم جرح الأندلس كفردوس مفقود ، فجاءت خمسة قرون بعد ذلك حتى يومنا هذا ، وما زلنا ننشد هذا الفردوس المفقود شعراء وأدباء على ممر

العصور فى مشرق أمة الإسلام ومغربها ، كل يعبر عن مشاعره الفياضة نحو هذا الأندلس العريق ، هذا الأندلس الماضى فى الحاضر والحاضر فى الماضى ، كما بكاء منذ قرون الهوزانى وابن العسال حتى ابن عاصم وابن الأزرقي ، مروراً بابن الأبار وابن الخطيب وغيرهم من المعاصرين له ، ها هو اليوم يبكيه معاصرون لنا أمثال أحمد شوقي وعزيز أباظة ، وغيرهما الكثير والكثير ، والقائمة تطول بنا لو توخينا الحصر والإحاطة .

لقد بقي الأندلس رغم افتقاده ، افتقدناه كأرض ولم نفتقده كتراث يسطع ويتألق كصفحة مشرقة فى تاريخ أمتنا بقلاع مجده المجسدة فى أبطاله من المجاهدين ، فاتحين مرابطين ، موحدين وصامدين ، كما هى مجسدة فى قلاع مجده من المجتهدين والمبدعين ، فقهاء وفلاسفة وأدباء ، برزوا فى الشعر والنثر على حد سواء ، وعلماء ورعاة ومؤرخين .

وسوف نتناول ، وفاءً منا لهذا الجانب المشرق من الأندلس - فى الصفحات التالية - قلاع المجد هذه عبر جولة فى أرجائها مؤكدين أن هذا الأندلس كما عرف يؤر الضياع التى آلت به إلى التراجع والانهباء والانحدار ، عرف قلاع المجد التى ظلت كتراث وحتى يومنا هذا ، معالم بارزة للمرجعية والإحالة ، ولنبدأ بجولتنا فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين : فاتحين ومرابطين وموحدين وصامدين .

* * *

الحلقة العاشرة

فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين

(فاتحين ، مرابطين ، موحدين ، مرينيين ، ومصامدين)

بؤر الضياع لم ولن تحجب قلاع المجد ، ودموع الباكين أو المتباكين رغم استمراريتها ، وكشافتها وتنوعها ، لم تُذرف فقط على الفردوس المفقود ، وتُسكب عبر أناته المتلاحقة قبل وأثناء احتضاره وبعد ضياعه ، وإنما بكت الأبطال الذين استبسلوا دفاعاً عن راية الإسلام فى الأندلس مستميتين فى سبيل إعلاءها والاندفاع بها فى كل اتجاه فاتحين ، ولالة وأمراء وخلفاء ومرابطين وموحدين ومرينيين منقذين ومتجاوزين بهذا الأندلس أزماته ، ومتلاحمين مع الصامدين فوق أرضه فى فترات التراجع والتردى حتى الرمق الأخير خلف أسوار غرناطة الحبيسة وهى تعاني فى سكرات الموت من الطفيليات داخل جسدتها ، استكمالاً لهجمات عدو شرس عرف كيف يستغل الظروف لصالحه ويحقق وحدته على حساب تفتيت وحدة المسلمين حتى فى داخل الأسرة الواحدة ، ولنستعيد رموزاً من هؤلاء الأبطال فى مختلف الفترات وعلى التوالي ، لنذكر لمن لا يريد أن يتذكر أن أزمة أمة لا تعنى بالضرورة نهايتها وفنائها ، وإنما هى معارج بين كَرٍّ وفَرٍّ ، مهزوم الأمس منتصر اليوم . وهكذا دواليك ، ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) ، مصداقاً لقول الحق سبحانه .

فحينما نفرد هذا الفصل لجولة فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين ، فذلك حتى لا نجعل من بكاء الباكين والمتباكين قاعدة لمسيرة الأمة ، وإنما هو صدى لوعكة من وعكاتها ، ولمَ لا ؟ فمن هذا الذى يغفل أو يتغافل ، يجهل أو يتجاهل « طارق بن زياد » ، و « موسى بن نصير » ، وهذا المعافى « طريف بن مالك » ، المعروف بأبى زرعة ، وبهم نبدأ جولتنا عابرين هذه القلاع .

(١) آل عمران : ١٤٠

دون الدخول فى تفاصيل قد تجد مكاناً لها فى العرض التاريخى للأندلس منذ فتحه بما فى ذلك التمهيد لهذا الفتح والعبور ، يمكننا أن نشير وفى إطار تراتبى ، إلى أن قلاع المجد لا يمكن أن يغفل حين استعراضها من شكلوا الإرهاصات الأولى لها أو حملوا راية التصدر لمواجهة المجهول ، وبكل عزيمة وثبات وصبر ، فهذا « طريف بن مالك المعافى » الملقب بأبى زرعة ، والمستطلع لأبعاد وآفاق العبور ، إلى جانب الاتصالات التى تمت بين القوط ، بليان كمثال الذى اتجه إلى الفاتحين لا حباً فى الإسلام ، وإنما لتصفية حسابات فيما بين القوط . لقد كانت الأرضية رغم صعوبة التعامل معها تحت هذا الذى عبر الشمال الإفريقى داعياً ومبشراً بالإسلام على أن يكمل مسيرته ، فدعوة الإسلام غير محدودة بمكان أو زمان ، ومن ثم كان طبيعياً بعد أن وصل دعاة الإسلام إلى ما وصلوا إليه ، وأصبحوا على مشارف المحيط الأطلنطى ووجهاً لوجه مع الجزيرة الإيبيرية وليس من فاصل إلا البحر ، أن يعبره بدوره ، فلن يكون بمباهه أشد قساوة من رمال الصحراء الحارقة ...

وقد كان ، فبعد أن نزل « طريف » بجزيرة بلوما التى باتت بعد ذلك تحمل اسم « طريفة » نسبة لطريف ، كان الفتح فى عام (٩٢ هـ / ٧١١ م) بريادة المدشنين لقلاع المجد « موسى بن نصير » و « طارق بن زياد » .

لقد اختار « موسى بن نصير » طارق بن زياد ، من بين قواده للعبور ، ولقد غلّف هذا العبور فى العديد من أساطير البطولة وباطناب ، بل ركز كثيراً على خطبة طارق الشهيرة فى مواجهة البحر ، واختلفت المصادر التى حملت إلينا وقائع العبور بين مركز على جانب أو جانب آخر ، بين سارد أو مطنب ، بين من ينسب الخطبة الشهيرة لطارق أو لغيره ، ومع هذا الذى يعنينا هو أنه قد تم العبور ، عبور البطلين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، حمل إلينا التاريخ ما يرمز لاستمرارية هذا الحدث فى صفحاته وآثاره ، فهذا جبل طارق فضلاً عن تسميات أخرى متعددة لأماكن أخرى فى الأندلس ، تؤكد لنا أن مواكب الأبطال لم تمح بصماتها ولن تمحى .

وتتابع الزحف لا للتخريب والتدمير ، ولكن زحف المبشرين بعصر جديد تحت راية الإسلام ، راية التسامح والهداية وإنقاذ الإنسان ، وقد كان طبيعياً أن تكون هناك مقاومة ومواجهة ، بل ومعارك فاصلة كمعركة « وادى لكه » وغيرها ، وكانت المعارك تنتهى فى أغلب الأحيان بهزيمة القوط وتراجعهم ، واستمر طارق فى زحفه محاصراً وفتحاً حتى وصل إلى إشبيلية وقرمونة ، ثم دخول موسى وطارق إلى مدينة طليطلة ، عاصمة القوط آنذاك ، ولقى ملكهم « لذريق » مصرعه ، على يد « مروان بن موسى » ، وتويع الفتح بقيادة البطل طارق نحو سرقسطة ، وتقاسم طارق وموسى قيادة جماعات المسلمين المدعومة بالوحي الحق وينور السماء - بعد والده - المسيرة ليكمل عبد العزيز بن موسى فاتحاً غرب الأندلس (البرتغال حالياً) ، وجنوب شرق الأندلس ، منظماً وواضعاً للأسس التى تسير عليها المناطق التى دخلت تحت راية الإسلام ... طارق بن زياد وموسى بن نصير سيظلان رمزان مشرفان لقلاع مجد هذه الأمة بغض النظر عما لحقهما من معاناة فى النهاية نتيجة الفتن والدسائس .

وهذا « السمع بن مالك الخولاني » المجاهد ، الفاتح والزاحف والمستشهد فى يوم الوقوف على عرفات (عام ١٠٢ هـ) يُذكر أيضاً من بين الأبطال كما يُذكر الغافقى كقائد من قواد المسلمين فى الأندلس ، جاهد وناضل ، والحرب كُرُّ وقرُّ ، مَنْ كان قد انتكس فى معركة « بلاط الشهداء » ، فلم يتراجع منها هارباً أو مبرراً لنكسته ولهزمته عبر الشعارات ، وإنما مستشهداً وراوياً الأرض بدمائه فى « غالة » وفى رمضان ...

ومع مواكب الأبطال فى قلاع المجد نقف قليلاً لنذكر بهذا الصقر « صقر قریش » ، والنعت كما روته مصادره التاريخية جاء على لسان الخليفة جعفر المنصور حينما ذكر « عبد الرحمن بن معاوية » الداخلى الفاتح « المعروف بقوة بأسه وشجاعته ومواجهاته القادرة فى كل الجبهات » قال جعفر : أخبرونى عن صقر قریش من الملوك ، قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكّن الزلازل ، وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال : ما قلتم شيئاً ، قالوا : نعماً .

قال : لا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ما قلت شيئا ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجيباً منفرداً بنفسه ، فمَصَّرَ الأمصار ، وجنَّدَ الأجناد ، ودوَّنَ الدواوين ، وأقام مُلكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة ... إن عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيَّد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطَّدَ الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين ، فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين » (عن ابن عذارى « البيان المغرب » ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩) .

بطل أموى يشهد له خليفة عباسى ، يتصدر فى قلاع المجد متميزاً فى هذه الفترة التى عرفت آخرين جاهدوا محاولين احتواء الفتن ، متدافعين مع الخصوم والأعداء ، رافعين لراية الجهاد كـ « هشام الرضى » ، و « الحكم الرضى » الذى قضى على ثورة « أهل الرضى » بقرطبة ، وإليها تنسب التسمية ، وعبد الرحمن الأوسط ، ومحمد بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن الناصر الذى سُمى بالخليفة ، والمنصور بن أبى عامر ، كانوا كل حسب ظروف وضعه وطبيعة الأحداث التى عاصرتها ، يجاهد ويواجه الثورات والفتن ، دفعاً عن استمرارية الأندلس وتحاشى تمزقه وانفجاره ، ثورات هنا وهناك ، وفتن وتربص من الأعداء ، ومع هذا فتحت الحصون ، وسجلت انتصارات تلو انتصارات فوق أرض أندلس ، هذا الأندلس الذى كان عليه أن لا يغفل عن المتربص به من أعدائه بقدر عدم إغفاله لمكنونات ذاته ، التى كثيراً ما كانت تعاني من طفيليات الفتن ونزعات العصبية والأنانية الضيقة للانتماء ، ولعل هذه الأحداث متكاملة دفعت بـأندلسنا المتأزم إلى التطلع نحو الجنوب ، نحو مغرب المرابطين المنقذ ، لمساندته باسم الإخاء والتكامل تحت راية الإسلام ، وقد كان ، فهذا أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين الذى لم يكتف بتوحيد راية الإسلام فى المغرب حتى تخوم السودان وإفريقيا السمراء فى امتداد شاسع ، ويؤكد ما لسماحة الإسلام وتلقائيته وبساطته من تقبل وتعاطف لدى كل الفئات والشعوب ، وإنما زحف إلى الأندلس

منقذاً أو موقفاً لتنفيذ تراجعته وارتداده وتقلصه ، ولحقة من السنين ، رغم ما كان ينخر في جسد هذا الأندلس من فتن وصراعات وتطاحن حول السلطة ومن أجل السلطة ، وتفشٍ للتعصب والعصبية عبر مختلف الضروب والقنوات ، ومع هذا كان إصرار يوسف بن تاشفين على أن يتواجه مع مختلف الأعداء والخصوم والمارقين عبر هذا الصرح المتهاوى ، ليشده ويعيد إليه إيقاعه وتجانسه ووحدته ، متحدياً لكل الصعوبات ، فهو الذى قال حين التقى بالمعتمد : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان توجهت » (كما جاء فى المعجب ، لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٣١ - ١٣٢) .

وكذا خلال إقامته القصيرة فى إشبيلية بعث إلى ملوك الطوائف يستنفرهم للجهاد ، وكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وغيره ، وكانت كما هو معروف « معركة الزلاقة » يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م) ، التى آلت رغم تفوق الأعداء وتحديهم فى النهاية لتصبح لصالح الجيوش الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين ، الكهل المتصدر بنفسه ، مؤكداً بذلك على مصداقية إمارته للمسلمين ، ومستجيباً لكل من دعوه للدفاع عن الإسلام وإنقاذ الأندلس من أهل العلم بالمغرب والمشرق على حد سواء ، كمجرد مثال : الغزالي وأبو بكر الطرطوشي وغيرهما ، ولم تُثن أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين وفاة ابنه أبو بكر فى مراكش عن جهاده من أجل إنقاذ الأندلس مبرهنأ على أن دوره كقائد أمة ، متجاوزاً لدوره كرب للأسرة (راجع الحلقة ، لابن الأبار ، ج ٢ ص ١٠٠) .

كذلك نتذكر باعتزاز لهذا القائد ما أوردته المصادر التاريخية (وفيات الأعيان - كمثال وغيرها) بخصوص رسالته التى بعث بها إلى قائد جيوش عدوه ويقول فيها : « بلغنا يا اذفونش أنك نحوت (أو دعوت - كما جاء فى وفيات الأعيان) الاجتماع بنا ، وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد جُزناه إليك ، وجمع الله فى هذه العرصة بيتنا وبينك وترى عاقبة ادعاءك :

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (١) . اشتد غضب ألفونسو بعد قراءته ، وقال من بين ما قال : « قل للأمير : لا تتعب نفسك ، أنا أصل إليك وإننا سنلتقى فى ساحة المعركة » ... وكانت له جولات وجولات بعد معركة « الزلاقة » دفاعاً عن أرض الإسلام فى الأندلس ومن بعده ابنه أبى الحسن على بن يوسف ، ومعركة « اقليش » حول طليطلة ، ولقد سميت المعركة بمعركة « الأقطاط السبعة » أى الأمراء السبعة وهنا « معركة أفراغه » ... واستمرت ذرية ابن تاشفين فى اهتماماتها بالأندلس رغم كل التحديات فى الداخل والخارج ، مقدمة بذلك صفحة مشرفة من صفحات التاريخ نستعيدنا ونعيدنا على الأذهان باعتبار أن أبطال الأمة مهما تداول التاريخ أيامه يظلون معالم مضيئة لا يخبر نورها على ممر الأعوام والسنين مصداقاً لقول الحق : ﴿ قَامُوا الزُّيُودُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) ...

هذا هو حال يوسف بن تاشفين ، وأبنائه من بعده ، كممثلين للمرابطين فى جهادهم ، وكقلاع مجد فى الأندلس ، فكيف كان حال الموحدين من بعدهم ؟
تبنى الموحدون بدورهم الدفاع عن الأندلس والمواجهة فوق أرضه ، سواء مع عبد المؤمن ومن بعده ابنه سعد الذى تواجه مع النصارى فى موقعة الجلاب (عام ٥٦٠ هـ) إلى جانب التصدى للفتن والصراعات التى ما انفكت تختفى لتظهر ، وتنطفىء لتتشعل هنا وهناك فى بقاع الأندلس وفترات المتعاقبة .

ولا شك أن البطل يوسف بن عبد المؤمن الذى خرج ليواجه بدوره الخصوم والأعداء فى ناحية قلعة رباح يستحق إشارة لنعرف بما رواه (صاحب الاستقصاء الناصرى ص ١٥٠ - ١٥١) وكيف كانت نهاية هذا الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن التى شاءت التوجهات التى قُهِمت خطأ أن تضعه وجهاً لوجه مع العدو الذى انفرده به بجوار حصن شنترين ، حيث بارز النصارى ولم يتهرب أو يتراجع ، محاطاً بقلعة من عبيده وحشمه ، وحينما وصل العدو إلى مكانه برز له

(٢) الرعد : ١٧

(١) غافر : ٥٠

وقاتل بسيفه وقتل ستة من أعدائه ، ولكنه طعن طعنة غادرة نفذت في جسده ، ومع هذا كانت نهاية المعركة لصالح البطل يوسف بن عبد المؤمن الذي يذكّرنا بطل آخر من أبطال هذه الأمة المعتزة بإسلامها بفضل رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ساعين إلى الشهادة والاستشهاد في سبيل ما يؤمنون به .

لقد كان صلاح الدين الأيوبي بدوره في معركة حطين مواجهة مباشرة مع عدوه ، مع حفنة من حرسه ورجاله ، واستبسل وبجانبه ابنه مقاتلاً حتى انتصر مردداً كذب الشيطان ، يوسف بن عبد المؤمن نذكره جنباً إلى جنب مع صلاح الدين الأيوبي ، فهذا الموحدى وهو يعانى من سكرات الموت نتيجة للطعنة الغادرة لفظ أنفاسه مستشهداً ، ويويع من بعده ابنه يعقوب بن يوسف الذى استكمل جهاد والده ضد أعداء أمة الإسلام فى الأندلس .

يعقوب الملقب بالمنصور بطل معركة الأرك الذى تحرك من مراكش إلى الأندلس للمرة الثانية متوجهاً إلى إشبيلية العاصمة واضعاً للخطط ، فى الوقت الذى استنجد فيه ألفونسو الثامن صاحب قشتالة بملكى ليون رنار، ونزل فى الأرك كنقطة حدود بين قشتالة والأندلس ، وبعد مناوشات ، تواجه الجيشان وانتصر الموحدى المنصور مستعيداً للمسلمين أمجاد الزلافة ، فحينما تُذكر هذه للمرابطين تذكر الأرك تمجيداً للموحدين .

وجاء عصر المرينيين ، وهم كذلك لم يتنكروا للأندلس الذى يعانى ويطلب النجدة والإنقاذ بعد أن تقلص وتراجع أمام معاودة النصارى لهجماتهم مع ألفونسو العاشر ، وما كان من استنجاد محمد بن الأحمر بأمير المسلمين المرينى أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب أيضاً بالمنصور ، الذى استجاب وأرسل بالمساعدات التى وصلت لولد المستنجد فى غرناطة بعد وفاة أبيه .

وقد ذكرت لنا المصادر الخاصة بهذه الفترة حين تأريخها لها (كالذخيرة فى تاريخ الدولة المرينية ، لعلى بن أبى زرع الفاسى ، ص ١٤٨ وما يليها) ، كما تذكر غيرها من المصادر أن ما يقرب من ثلاثة آلاف من بنى مرين هبوا مجندين لنصرة ملك غرناطة محمد الثانى المكنى بالفقيه ، وكانت المعركة عند مدينة

استيعة جنوب غرب قرطبة ، وتواجه المجاهدون بجيش كبير صحبة ابنه يوسف الذى كان فى مقدمة الجيش ، وانتصر على القشتاليين انتصاراً باهراً ، ويذكر أنه استهل المعركة بخطاب تعبوى لجيشه مستشهداً بالأحاديث النبوية الواردة عن معركة « بدر » اقتداءً برسول الله عليه السلام ، وما قاله كما روى : « إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، فبادروا إليها وجُدُّوا فى طلبها ، وابدلوا النفوس فى أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ، وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاغتنموا هذه التجارة الرابعة وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمُّروا عن ساعد الجد فى جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمن مات منكم مات شهيداً ، واصبروا ، وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . (الذخيرة ، المصدر السابق)

ومع هذا ، ورغم كل ما قُدِّم لهذا الأندلس من مساندات مرابطية وموحدية ومرينية استطاعت أن تؤخر ساعة التنفيذ لضياح هذا الأندلس مرممة لشروخه ، باحثة عن توازن لهزاته ، بل وتراجعته وتقلصه ، ليؤول فى النهاية إلى ماتبقى حول غرناطة الحبيسة الصامدة التى ظلت ولفترة من الزمان تصارع وتتصارع فى داخلها ومع ما حولها وما هو خارج عنها ، محاوله تجسيد ما تبقى من أغصان فى هذا الفردوس المفقود .

رمزت غرناطة رغم حصارها ومحاصرتها لصمود لا يمكن أن يُستبعد من مسيرة قلاع المجد ، فإن كان قَدَرُها قد فرض عليها أن تعايش الفتن والمكائد الأسرية بمختلف ضروبها ، تعاني وتمزق ، إلا أنها قدّمت لنا رجالاً تواجهوا مع الأحداث رغم مرارتها وقسوتها وبخاصة فى لحظات الاحتضار ، وكمثال نسوقه من بين أمثلة كثيرة للفداء والعطاء الرفيع : موسى بن أبى الغسان ، فكما ورد عند « كوندى - Condé » فى تاريخه عن حكم العرب لأسبانيا (المجلد الثالث ، الصفحة ٢٥٤) حول هذه الشخصية وجهادها فى فترة سقوط غرناطة ، وخير مثال ما شهدت به الأعداء : أن هذا الغسان سليل إحدى الأسر العريقة

التي تتصل ببيت الملك والتي عُرِفَتْ بفروسيتها ومواجهتها للنصارى ، تبحث عن الاستشهاد وتستنكر موقف المسؤولين عن تسيير الملك فى غرناطة استكانتهم وخضوعهم لملك النصارى ، فكان موسى بن أبى الغسان يُذَكِّى روح الحماس والجهاد وقيادة السرايا إلى أرض العدو ومفاجئة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة ، وحينما بعث فرناندو الخامس إلى أبى عبد الله يطلب تسليم الحمراء كان موسى من أشد المعارضين فى الاستجابة لهذا المطلب المهين ، وحاول بحماسة أن يستعيد المبادرة للدفاع حتى آخر رمق ، ومن أقواله الماثورة يومئذ نكرها باعتزاز بعد قرون : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه من أفخم قصور نغمها بالخضوع لأعداء الدين » .

ورغم قساوة المواجهة وانقطاع الإمدادات من المغرب ، وضعف دولة بنى وطاس التي كانت فى بدايتها آنذاك بالمغرب الأقصى ، ولم تطمح كأسلافها إلى نجدة الأندلس ، كما كان الحال مع المرابطين والموحدين والمرينيين ، قاد الفرسان المعارك وفى مقدمتهم نذكر للتاريخ نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وموسى الذى يعنينا بمواقفه وأقواله الدامية حين يكرر صائحاً : « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

وكان ما كان ، سبعة شهور من الحصار لغرناطة الحبيسة ، واجتمع ما تبقى من رجالها فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس ياد على الوجوه ، وتراكت سُحب التسليم وضباب الاستسلام لتغطى الجمع ، وليس من معارض إلا البطل موسى بن أبى الغسان ، يستعيد أنفاسه مردداً فى إصرار : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات ، ذلك هو بأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لى أن أحصى من الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى من الذين شهدوا تسليمها » ، ولكن ليس فى الجمع من مجيب ، بل فوض السلطان المستسلم المهزوم أبو عبد الله الأمر للجماعة ، وتحامل الوزير أبو القاسم عبد الملك على نفسه المنهارة ليقوم بمهمة المفاوض مع ملك قشتالة

مستسلماً ، وذلك فى اليوم المشئوم من أكتوبر ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) ، وأسدل الستار بعد أن قفلت أبواب الفردوس المفقود .

ومع هذا ، هناك مَنْ يرى أن المفاوضات لم تبدأ فى الواقع يومئذ ، بل مورست فى الممرات السرية بين ملك غرناطة الذليل ووزير ضلاله وضياعه ، وبين ملك قشتالة وما كان من ظاهر الموقف إلا مداهنة ومهادنة لشعب ثائر أبى أن تتحنى رأسه إلا إذا قُطعت ، بل هناك مَنْ يرى أن الهدايا لعبت دوراً بين المفاوضين ، وما أُعطى من ضمانات لملك ذليل وأفراد أسرته ووزرائه ثمناً لخداعهم لشعوبهم ولاستكانتهم .

ضاعت غرناطة الحبيسة شهيدة وضحية لملك عجز عن حمايتها ، متزلقاً فى مزالق الارتزاق والمكاسب الفانية والضمانات المادية الزائلة والمنح الرخيصة ، كما أشار إلى ذلك صاحب « أخبار العصر » (ص ٤٨ - ٤٩) من بيع ممتلكات خونة غرناطة قبل معاهدة التسليم ، وذلك بزمان ليس بقصير ، خيانة مبيتة أو خيانة ذليلة ، أو تراجع عن مواكب البطولة والاستبسال ، لقد وقعت معاهدة التسليم فى نوفمبر ١٤٩١ م (٢١ من المحرم سنة ٨٩٧ هـ) وبقي لنا من غرناطة ، ومن قبلها فى الأندلس أسماء رجال نذكرهم كقلاع للمجد ، أبطالاً مجاهدين ، متجاوزين بهم قطعان الخونة وقلول المرتزقة والانتهازيين والمتشخصنين والمتآمرين

هؤلاء الأبطال عبرنا معهم فى هذه الحلقة مختلف فترات الأندلس : فاتحين ، مرابطين ، موحدين ، مرينيين ، صامدين ، لنؤكد أن يؤر الضياع لم تنسينا قلاع المجد التى حفل بها الأندلس ، كما حفل بالمجتهدين والمبدعين ، علماء مفسرين ، ومحدثين فقهاء وتربويين ، وأطباء ورياضيين وفلكيين ، فلاسفة ومتصوفين ، شعراء وأدباء ، ورؤساء جغرافيين ومؤرخين ، وآثاراً لا أطلالاً ، وإنما مآثر نفخر ونتفاخر بها كمسلمين

وسوف نخصص - وباختصار - الحلقة الحادية عشر والأخيرة للتعريف بهذا العطاء ، فضلاً عما فيه من إعزاز وإكبار واعتبار.

* * *

الحلقة الحادية عشر

فى قلاع المجد مع المجتهدين والمبدعين

(من علماء ، مفسرين ، ومحدثين وفقهاء ، ولغويين ، مروراً بتربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفين ، إلى أدباء وشعراء ورحالة جغرافيين ومؤرخين ، حتى الأقليات والمستعمرين) .

الأندلس ، الوجه المشرق فى الحضارة الإسلامية بقلاع مجده مع المجتهدين والمبدعين ، كما هو شأنه مع الأبطال المجاهدين ، فيض جمع بين المفسرين والمحدثين والفقهاء واللغويين والتربويين ، والأطباء والرياضيين والفلكيين ، والفلاسفة والمتصوفين ، والأدباء والشعراء ، والرحالة جغرافيين ومؤرخين ، كما تقبل فى ربوع حرته ورحابة صدره اليهود باحثين عن ذاتيتهم ومجتهدين فى عقيدتهم ، دونما قهر أو تهريب ، كما عانى المستعربون بعد ضياع الأندلس من هذا القهر ومحاكمه التى لن تقف عند مصادرة الأرض ، وإنما تجاوزتها إلى محو وإلغاء الإنسان ، ولمزيد من التوسع والتفصيل فى هذا المضمار يراجع من بين العديد من المؤلفات التى استئرننا بعطاءها ، وما أكثرها ، الكتاب القيم لانجل جنثالث بالنشيا المنشور عام ١٩٢٠ .

(A.GonzálezPalencia " Histoire de la literatura arabigo Española" .

(وترجم إلى العربية تحت عنوان « تاريخ الفكر الأندلسى » ، نقله حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٥) .

وهكذا وباختصار نخص ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، من المفسرين وقراء القرآن والمحدثين : الدانى وابن فيرة الشاطبى وبقى بن مخلد وغيرهم ، ومن المحدثين ابن عبد البر ، كما كان من الأوائل محمد بن وضاح بن بديع وقاسم بن أصبغ بن ناصع بن عطاء ومحمد بن عبد الملك بن أيمن صاحب كتاب السنن ،

بل ويُعتبر ابن القوطية من كبار المحدثين في الأندلس ، فضلاً عن ابن الحجاج وابن الفردى وعبد الحق الإشبيلي صاحب الأحكام وآخرين ... وآخرين ممن لا يتسع المقام لتحريمهم فرداً فرداً ، وكلهم يستحقون منا كل إعزاز وتقدير .

وموكب الفقهاء بدوره حافل متكامل مع المفسرين والمحدثين ، من أكابر الفقهاء المالكية : أبو الوليد الباجي وأبو الوليد بن رشد - ولنا معه عودة كفيلسوف في الصفحات التالية - والسهيلي الفقيه المالكي دفين مراکش وابن عاصم ، وهذا الذي يعزى إليه دخول المذهب الشافعي إلى الأندلس قاسم بن محمد بن محمد بن سيار من أهل قرطبة ، يشاركه في شافعيته بقى بن مخلد المفسر القاريء وخلق بن عبد الله بن مخارق الخولاني ، ونذكر أيضاً يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني وعبد السلام بن السمح بن نابل بن عبد الله بن يحيون الهواري ، ولم لا ؟ ابن حزم القرطبي الذي كان شافعيّاً في فترة من حياته قبل ظاهريته وهو يُعد من ناشري مبادئها ، لقد كان فتح الأندلس فتحاً حضارياً وليس غزواً عسكرياً كما يزعم البعض ، فالمذهب الظاهري مع محمد بن قاسم بن هلال الذي تتلمذ على داود الأصفهاني منشئاً للمذهب الظاهري وناسخاً لكتبه بخطه ، ومن أوائل الظاهريين أيضاً منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطي ، ولا شك أن ابن حزم يتصدر بشهرته لما قدّم من العديد كمؤلفات في مختلف ضروب المعرفة ، كأمثلة كتاب « المحلى في الخلاف العالي » ، وكتاب « الفصل في الأهواء والنحل » ، وهو من أهم كتبه ، وقد حاول ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة سابقاً في ذلك ابن رشد بقرن من الزمان ، وكتب رسالات كثيرة ، بل تنوع في إنتاجه فله في التاريخ « جمهرة أنساب العرب » وله « الإمامة والخلافة » و « نقط العروس » ورسالة « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » وعرف بها المقرئ في نفع الطيب ، ويذكر له من أعماله الأدبية « طوق الحمامة في الألفة والإلاف » ، وكانت له آثار ومدرسة حزمية من ممثليها صاعد الطلبيلي .

وهكذا تكامل الفقهاء مع المفسرين والمحدثين ، ومنهم من برز في الفلسفة وأشرق أيضاً ، كالوليد بن رشد وابن حزم ، وانتشر المذهب كما انتشر المذهب الشافعي والظاهرى ، وكان أيضاً التكامل مع اللغويين ممن برزوا في ميدان الثقافة بصفة عامة ، فاللغة العربية عبر الآلاف من كلماتها استقرت في اللغة الأسبانية حتى الآن ، بل تبنى المعجم الرسمى للأكاديمية الأسبانية العديد من الكلمات العربية ، وحتى مجال الرتب والمجال البحرى والفلاحى والزراعى نلمس فيه حضور الكلمات العربية .

لقد انتشرت العربية ولم يمر على فتح الأندلس أكثر من ربع قرن ، ويعطى كمثال : رسول يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل ، وقد كان يجيد العربية ، وقد تمت الاستعانة بالنصارى المستعربين من الأسبان فى النقل إلى اللاتينية ، ويُذكر فى هذا المضمار أن باجيرارد الكريمنى وقد جاء من إيطاليا ، ونقل ما يزيد على سبعين كتاباً مستعيناً فى البداية بالمستعربين النصارى من الأسبان .

لقد غص الأندلس بمخطوطاته العربية إلى حد أن الكاردينال « سيسه يورس » فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى جمع المخطوطات العربية فى باب الرملة بغرناطة وأحرقها ، وكانت تقترب من المليون مخطوط لم يُبق منها إلا على مائة وخمسين مخطوطاً فقط فى الطب ، وقد عرفت اللغة العربية من اجتهد فيها وحرص على صفاء نحوها وقواعدها ، نذكر الزبيدى أثير الدين أبو حيان والأثرى الغرناطى الملقب بشيخ النحاة ، ويُلاحظ فى ميدان اللغة من حيث الاستعمال أنه كانت هناك اللغة العربية الفصحى للمتأدبين والعلماء ، واللغة العربية الدارجة لغة الدواوين والإدارة المدنية ، واللغة اللاتينية وتستخدمها الكنيسة فى التراتيل الدينية والصلوات ، ولهجة رومانسية وأكثرها مشتق من اللاتينية الدارجة قُدِّر لها بعد أن تصبح اللغة القشتالية أو الأسبانية ، كما أن هناك كلمات دخلت كذلك اللغة البرتغالية .

وهكذا أشرقت اللغة العربية فى مختلف الميادين ، ولم يقف هذا الإشراق عند حد المفسرين والمحدثين والفقهاء واللغويين ، بل تجاوزهم إلى ميادين معرفية

أخرى، تؤكد لنا أصالة لغتنا العملاقة وقدرتها ، وأن ما يزعمه البعض آتياً من قصور في توظيفها في بعض العلوم ، فهذا قصور مردود إليهم ، لأنها مورست في التربية كما مورست في الطب والرياضيات والفلك والعلوم ، واستأنس بها الفلاسفة والمتصوفة واستأنسوها ، فضلاً عن ميدانها المحوري الذي تنفرد فيه بين كل لغات العالم بعطائها المتميز ، ونعني به الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، فضلاً عن توظيفها السلس الجذاب ، المبسط من قبل الرحالة جغرافيين ومؤرخين ، لغة بهذا الحجم لا يمكن أن توصف إلا بالعميقة والجهبضة والعبرة بالمتكلم بها والمستأنس لها من حيث العظمة والانحطاط .

ففي التربية كُتِبَ العديد وبخاصة في الأخلاقيات ، كمثال من بين أمثلة كثيرة : ما اقتبس من كتاب « سر الأسرار » وكتاب « الأمثال الطبية » لحنين بن إسحاق ، وكتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » لمؤلفه أبو حمو موسى ابن يوسف ... وغير ذلك من الكتب الأخلاقية في التربية ، بينما في الطب والرياضيات والفلك والعلوم ، وكيف أن هذه التخصصات شهدت علماء تركوا بصماتهم وآثارهم ليس فقط في لغتنا العربية ، وإنما فيما تُرجم عنها كالزهرأوى أبو القاسم (Abulcasis) وهو الذي ارتفع في أعين معاصريهم إلى طبقة أبيقراط وجالينوس ، ويُعتبر من أوائل من جعل من الجراحة فناً قائماً بذاته ، مستقلاً عن الطب ومرتكزاً أساساً على التشريح ، ونخص أيضاً ابن وافد الذي عُرف عند اللاتينين (Eben guefitf) . كما نذكر من الأطباء يونس بن أحمد الحوراني ، ومن النباتيين حمدين بن أبان ، كما نذكر ابن حجاج القرطبي ولكنه قد وضع كتاباً في الزراعة ، ومن الأطباء الذين اشتغلوا بالفلسفة أيضاً أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني وابن باجة وبنو زهر وابن العوام الإشبيلي وبخاصة أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي ، صاحب كتاب « الأدوية المفردة عن العقاقير والأعشاب » .

ولم يقف العطاء في الطب والرياضيات عند العرب ، بل هناك من اليهود كموسى بن ميمون واجتهاداته في الطب ، وهو المعروف عند اللاتينيين

بـ « ميمونيدس » ، ونذكر أيضاً في مضمار علماء النباتات ابن البيطار ، وفي الرياضيات والفلك أحمد بن نصر صاحب كتاب « المساحة المجهولة » ، ومسلمة المجريطى الذى اعتبر إقليدس الأندلس وهو صاحب كتاب « رسالة الإسطرلاب وثمار علم العدد » وتعديل الكواكب وغير ذلك ، وفي الفلك ابن برغوت ومحمد ابن عمر بن محمد ، وأبو إبراهيم بن يحيى النقاش الزرقالى القرطبى ، ومن الرياضيين والفلكيين أيضاً جابر بن أفلح الإشبلى ، وينسب إليه اختراع علم الجبر بنسب تشابه اسمه واسم هذا العلم ، وقد ابتدع نظرية جديدة فى حركة النجوم ترجمها إلى العبرية موسى بن طيبون ونور الدين البطروجى المعروف لدى الغرب « البتراجيو Alpetragio » ، وأبو بكر بن أحسن الرقوطى الذى ترأس أول مدرسة إسلامية أنشأها ألفونسو العاشر فى مرسية ، واشتهر باجتهاداته فى الرياضيات والحساب ، وأيضاً ابن الشماط السرقسطى وغيره الكثير ممن اجتهدوا فى هذه الميادين ونقلت مؤلفاتهم إلى اللاتينية فى العصور الوسطى الأوروبية ، كما تشهد بذلك الآثار الكثيرة التى تزرع بها مكتبة الاسكوريال والمكتبة الوطنية بمدريد ، بل واهتمام الأسبان حالياً بذلك فضلاً عن اعترافهم بها بقدر اعترافهم بما قدّمته الأندلس المسلمة من عطاء وبلا حدود فى إطار الفلسفة والتصوف .

فمن المعروف أنه بعد افتقار العصر القوطى للتفكير الفلسفى وبعد إرهابات الاعتزال ، كانت المدرسة الأفلاطونية الحديثة مع محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى (٢٦٩ - ٣١٨ هـ / ٨٨٣ - ٩٣١ م) ، اتجه إلى آراء المعتزلة وكتب الكثير ، نخص من كتاباته كتاب « التبصرة » ، وكتاب « الحروف » ، وتمحور مذهبه حول آراء امباذقليس بغض النظر عما طرح هذه الآراء ، لامباذقليس الحقيقى أو المزيف ، والربط بالأساطير والامتزاج بالغنوصية والتكامل مع أفكار فلون الاسكندرى وغيره ، فالذى يعنينا الإشارة إليه أنه كان لابن مسرة مدرسة ، كما كان لهذه المدرسة خصوم نذكر منهم قاضى قرطبة ونخص من بين من أخذ بآراء ابن مسرة محبى الدين بن عربى ، كما أخذ بها بعض مفكرى

اليهود ، وتطورت المدرسة الفلسفية واستعادت نشاطها مع المدرسة المشائية ، غير أننا قبل أن نشير إلى بعض ممثليها نعرّف وبإيجاز بشخصية إلى جانب ما قدّمت في إطار الشريعة وعلوم الدين والتاريخ أشرقت بنشاطها الفلسفي ، ونعني بذلك ابن حزم القرطبي (٣٨٣ - ٤٥٤ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٣ م) ، إذ أنه ألّف في العديد من أصناف العلوم وفي المنطق ، كما أن له نقداً لأبي بكر الرازي ، ومن تواليفه نخص إلى جانب ما أشرنا إليه سلفاً في عرضنا عنه بين فقهاء الأندلس « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » ، ونعود إلى المشائية بعد هذه اللوحة التكميلية لابن حزم . لنشير إلى ابن السيد البطليوسي (٤٤٤ - ٥٢١ هـ / ١٠٥٢ - ١١٢٧ م) ، وأبي الصلت أميه بن عبد العزيز الداني (٤٥٩ - ٥٢٨ هـ / ١٠٦٧ - ١١٣٤ م) ، وابن باجة (متوفى ٥٢٢ هـ / ٥٣٢ هـ / ١١٢٨ أو ١١٣٨ م) ، وابن الطفيل (٥٠٦ - ٥٨١ هـ / ١١١٠ - ١١٨٥ م) ، وكما صنّف في الفلسفة صنّف في الطب أيضاً وله آراء في الفلك ، ونخص من مؤلفاته رسالة « حي بن يقظان » ، ونصل إلى ابن رشد أبو الوليد محمد (٥٢٦ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م) وهو ابن رشد الحفيد تميزاً له عن جده الفقيه ، وهو بدوره كان يسمى أبا الوليد محمد بن رشد ، بدأ فيلسوفنا الشهير بعلوم الشرع كما مارس الطب أيضاً ، بل كتابه « الكليات في الطب » عرف طريقه إلى الأوروبيين آنذاك تحت تسمية « كلجات » وله دراسات أخرى في الطب ، ثم اهتم ابن رشد بكتب أرسطو وشروحها ، كما وضع مؤلفات فلسفية أخرى نخص منها « تهافت التهافت » ، وهو رد على كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي ، وله كتاب « المقدمات » في الفلسفة ، كما كتب في علوم العقائد كـ « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال » ، وكتاب بعنوان « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وله في الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » عن المذهب المالكي ، وفي الفلك يُذكر له ترجمة عبرية للمختصر الذي وضعه لكتاب المجسطي ، كما يُنسب إليه رسالة عن « حركة الفلك » . وكتاب آخر عن « استدارة فلك السماء والنجوم الثابتة » ، ومع هذا يتصدر ابن رشد كفيلسوف أولاً وقبل كل شيء ، وبخاصة

كشارح لأرسطو ومعلق عليه ، فضلاً عما يعرضه من آراء خاصة فى سياق شروحه ، حاول ابن رشد التوفيق بين القول بحدوث العالم وبين النظرية المشائية القائلة بقدمه ، إلى جانب آرائه الفلسفية المعروفة الأخرى كقوله بقدم المادة ووحدة العقل الإنسانى ، وغير ذلك من الأفكار النيرة ، وكان لابن رشد تلاميذ كابن طملوس أبا الحجاج يوسف بن محمد ، وكان طبيباً نابهاً ، وهو صاحب « المدخل إلى صناعة المنطق » ، إلى جانب أتباع وتلاميذ آخرين ، كما تأثر بمذهبه وبصورة حاسمة الفكر الأوروبى ، وترجم اليهود شروحه إلى العبرية ، كما وضعوا لها ملخصات وسارت إلى حد ما العماد الأكبر الذى بُنى عليه العلم العبرى ، بدأ من القرن السادس عشر إلى جانب معاصره موسى بن ميمون القرطبى (٥٢٩ - ٦٠٠ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٤ م) ، ومحاولة الأخير التوفيق بدوره بين المشائية والعقيدة الموسوية فى « دلالة الحائرين » ، كما لا يمكن إنكار أثر ابن رشد على الحركة الاسكولاسية النصرانية ، ولعبت مدرسة مترجمى طليطلة دوراً هاماً فى نقل الفلسفة العربية إلى أوروبا حيث أتم فيها ميخائيل الاسكتلندى ترجمة كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، كما ترجم أيضاً هرمان الألمانى ، ويميل بعض الباحثين فى هذه الفترة (كبلنشنا وقد أشرنا إلى كتابه سلفاً) إلى أن هذه الترجمة تمت على مرحلتين من العربية إلى عجمية الأندلس ، ومن هذه إلى اللاتينية ، كما نقلت آراء ابن رشد بفضل العديد من مريديه والمهتمين بفكره ، واعتمد - على سبيل المثال لا الحصر - القديس توماس الأكوينى على فيلسوفنا المستنير فى قضية هامة من قضايا اللاهوت لديهم ، وهى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، وعرفت أفكار ابن رشد المعارضين أيضاً كما غصت بالمتحمسين .

إن ابن رشد معلمة أساسية تُذكر بمداد الفخر والاعتزاز بين معالم قلاع المجد التى أشعت داخل الأندلس وحوله كما أشعت على الأوربيين وأشرق ، وتركت من الآثار التى لا يمكن أن يتغافلها إلا جاهل أو جهول .

وفى سياق عرضنا نذكر أيضاً ابن العريف أبو العباس عطاء الله الصنهاجى (القرن الخامس والسادس الهجرى ، الحادى عشر والثانى عشر الميلادى) . وكأنه صدى لمدرسة ابن مسرة وقد أشرنا إليها سلفاً ، وله كتاب « محاسن المجالس » وقد نحا بكتابيه منحىً صوفياً ، الزهد فى كل شىء ما عدا الله ، بل الزهد فى منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات ، ويرى أن المنن كلها تكون للعوام دون الخواص من الراغبين فى سلوك الطريق إلى الله .

والتصوف يقودنا إلى محبى الدين بن عربى حيث تتمثل الصورة الأوفى لما وصل إليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة المقلع من مدرسة ابن مسرة فى شخصية أبى بكر محمد بن على بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ / ١١٦٤ - ١٢٤٠ م) وعُرفَ بمحبى الدين وبالشيوخ الأكبر وابن أفلاطون ، أقلع من دراسة الفقه على يد أحد تلامذة ابن حزم الظاهرى ، وقد تأثر كما يذكر بزوجه الصالحة الورعة مريم بنت محمد بن عبد الرحمن الباجى إلى جانب أمه ، كما يذكر أنه أصيب بمرض فلزم الفراش وتراءت له منامات عن العذاب فى جهنم ، إلى جانب عوامل متعددة دفعته إلى الزهد والتصوف ، مارس محاسبة النفس والاعتكاف إذ كان ينفرد بنفسه أياماً طويلة بين القبور ، وكانت تتراءى له منامات فضلاً عن تأثره بعجوز تسمى نونة القرطبية ، وقد لزمها خادماً ومريداً مشاهداً لممارساتها وتنبؤاتها (كما هو معروف فى المصادر الخاصة بسيرته) ، ثم مارس الجولان فى بلاد الإسلام راحلاً ومترحلاً ، هنا وهناك متجهاً إلى المشرق ، ويحكى عنه أنه تزوج زوجاً صوفياً بكل نجوم السماء ... وفُسِّرَ له هذا المنام على أنه فتح من الله فى العلوم العلوية وعلوم الأسرار ، كما أنه حينما جاور فى مكة تزوج ببنت إمام مقام إبراهيم وضع كتابه « ترجمان الأشواق » ، وكتاب « الحكمة الإلهامية » وهو رد على الفلاسفة ، واستقر فى النهاية بدمشق ومات فيها ، وفيها كتب « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » و « الديوان » ، ولقد ترك ابن عربى أثراً كبيراً بعد موته ، بل اعتبر قطباً فريداً من أقطاب التصوف ، ويقدر ما كان له من المريدين كانت التحفظات من قبَلِ مَنْ رَأَوْا فى فكره -

وبخاصة « الفتوحات المكية » مجالاً للمناقشة بين المريد والمتحفظ ، ولقد كان محيي الدين مكثراً في التأليف وتناول العديد من ضروب الفقه والفلسفة والشرع والفلك ، ولقد انتشرت آراءه ليس فقط في ديار الإسلام ، بل حتى في أوروبا النصرانية ووصلت إلى دانتى وغيره .

وفي مجال التصوف يُذكر أيضاً ابن سبعين أبو محمد عبد الحق الشهير بابن سبعين الأندلسي (٦١٤ - ٦٦٩ هـ / ١٢١٨ - ١٢٧٠ م) وكان يلقب بقطب الدين ، درس علوم القرآن والحديث والفلسفة ، وتلقى الصوفية على يد إسحاق بن دهاق ، وبدوره كان له مريدين ومتحفظين ، وبخاصة من الفقهاء ممن رأوا في ملابس تابعيه وسلوكاتهم وطريقة معاشاتهم مجافاة للمألوف والعرف ، ولقد خرج ابن سبعين إلى الحج وجاور في مكة وتوفي فيها ، وفي هذا الصدد قال ابن شاعر الكتبي في « فوات الوفيات » : « سمعت عن ابن سبعين أنه فصد يده وترك الدم يخرج حتى تصفى ومات وله من العمر خمس وخمسون سنة » ، يُذكر من بين كتبه « يد المعارف عقيدة المحقق » ... ، وكتاب « الدرج » ، وكتاب « الذرة المضية والخافية الشمسية » ورسائل متنوعة ، وعُرف عن ابن سبعين استعماله في كتبه الألفاظ والرمز بالحروف ، وله اصطلاحات ذات معاني رمزية بعيدة عن المألوف ، وكانت له شهرة كبرى بين معاصريه تجاوزت ديار الإسلام حتى وصلت إلى مسامع البابا وكونت روما ، كما ذكر ابن الخطيب بل لجأ إليه الامبراطور فردريك الثاني النورمانى ملك صقلية ليجيبه على بعض المسائل الفلسفية ، فأجابه ابن سبعين عليها بعد أن عزت الإجابة على الآخرين من العلماء .

ومن المتصوفة أيضاً الأندلسيين ابن عباد الرندى أبو عبد الله محمد (٧٣٣ - ٧٩١ هـ / ١٣٣٠ - ١٣٨٩ م) ، وكان فقيهاً وخطيباً بليغاً وبخاصة متصوفاً ، صرف حياته كلها في الزهد وقد وُصف بالولى العارف ، وكان ابن عباد صوفياً على الطريقة الشاذلية ، ومن أهم كتبه « شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري » .

وهكذا قدّم لنا الأندلس صفوة من المتصوفين ممن تركوا بصماتهم واضحة في ساحة الصفاء والشفافية ، كما قدّم لنا فلاسفة وعقولا معطاءة تفخر بها لا فيما يعنى عصرها ولكن على ممر العصور ، هذا الأندلس بقلاع مجده العامرة بالمجتهدين والمبدعين زخرت ساحته بشعراء وأدباء ، كما زخرت بالرحالة جغرافيين ومؤرخين .

فالشعر فى الأندلس تعددت دروبه وإبداعاته من طلائع شعراء عصر الإمارة مع زرياب وابتكاراته ويحيى بن الحكم البكرى ، وكانوا يلقبونه بالغزال لجماله ، وقد بُعثَ فى عدة سفارات ووفق فيها من قبَل عبد الرحمن الأوسط ، وله « أرجوزة فى فتح الأندلس » ، ونذكر أيضاً تمام بن عامر بن عقلمة وله أيضاً « أرجوزة مشهورة فى فتح الأندلس » ، وسعيد بن جودى وشعراء البلاط ، واستمر الشعر فى عطاءه عبر عصر الخلافة مع ابن عبد ربه ومنذر بن سعيد البلوطى وبخاصة ابن هانىء والزبيدى وصاعد البغدادى والرمادى والوزير أبو المغيرة ابن حزم وابنه من بعده ، له أيضاً عطاء شعرى ونعنى به أبو محمد بن حزم القرطبى ، ونذكر أيضاً ابن أبى زمنين وابن الهندى والفرضى وحبيب الصقلى وغيرهم ، وقد كان للشعر خصائصه المتميزة فى عصر الطوائف ، فقد كان عصراً ، رغم ما فيه من أحداث سياسية ، مثمراً للشعر والشعراء ، فقد نافس ملوك الطوائف فى جذب الشعراء إلى نواحيهم إذ كان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها فى منّهِ وعطاءه أو رغبته وميله لاجتذاب الشعراء ، مما كان له انعكاس واسع على الحياة الشعرية بصفة عامة ، فهذا أبو الوليد بن زيدون بقرطبة ، ولا يُذكر دون أن تُذكر ولادته وهجاء لابن عبدوس وماتم من مبارزة فى هذا المضمار ، ولم لا ؟ هذه إشبيلية المعتضد بن عباد والمعتمد وشعراء بلاطه كإبن حمديس الصقلى ، وشعر المعتمد نفسه فى منفاه والذى لا يمكن إنكار ما فيه من قدرات وإبداع ، وبغرناطة نخص أبو الفتوح الجرجانى وأبو إسحاق الألبيرى ، وبالمرية المعتصم صاحب المرية ، وشعراء بلاطه ، وببلنسية ومرسية ابن وهبون وابن ليون والوقيشى هشام بن أحمد وابن عبدون ببطليوس وغيره ،

وابن باجة فى سرقسطة وابن خفاجة وابن الزقاق وما عرفته ساحة عصر المرابطين ، وأبو جعفر ابن سعيد وحفصة الركونية وحمدة بنت زياد ، وما عرفته ساحة عصر الموحدين ، فضلاً عما قدّمه هذا العصر من إبداعات جديدة بالإشارة مع ابن الأبار وبخاصة أبو البقاء الرندى وهو غنى عن التعريف ، ومملكة غرناطة بدورها مرة أخرى مع ابن الخطيب كشاعر وابن زمرك ، كما كان هناك الاتجاه الشعبى الدارج مع مقدم ابن معافى القبرى مبتكراً الموحشة ، وابن قزمان ومدرسته ، وعرفت شعراء شعبيين وعلى رأسهم الشستري ، إنه الأندلس المبدع فى كل بحور الشعر ومعارجه من شعر الصفوة إلى الشعراء الشعبيين ، ومع شعراء القصور إلى شعراء الساحات والأسواق ، شعراء حتى من البسطاء عمّال وزُّراع فضلاً عن الفنانين والنساء ، شعراء تناولوا كل الموضوعات ترفيحية وعاطفية وطبيعية وكل دروب الشعر ، حماس ونسيب ، ومبدع وخمريات ، ووصف ورثاء .

وتصدّر الأدب أيضاً كقدرة رفيعة من فنون الفكر العربى فى الأندلس ، ويكفى كمثال أن نذكر ابن عبد ربه وكتابه « العقد الفريد » ، وأبو على القالى وابن الجسور ، وأبو بكر الطرطوشى وكتابه « سراج الملوك » ، وابن أبى الخصال وابن الأفطس وابن الموائىنى ويوسف بن الشيخ البلوى الملقى ، فضلاً عن المقلدين لمقامات الحريرى والمعلقين عليها ... نهضة عارمة فى كل اتجاه غطت الأدب كما رأينا وأبدعت فى الشعر ، وأشرقت بإلهام الشعراء وحفلت بتيار القصص متغذياً بالعديد من المؤثرات ، على سبيل المثال لا الحصر : « كليلة ودمنة » و « السندباد » و « ألف ليلة وليلة » وقصص الفروسية . وقد كان كما هو معروف لهذا التيار تأثيراً واسعاً فى الغرب نذكر « الدون خوان مانويل » و « تورميذا » وغير ذلك ، مما يؤكد عمق تأثير هذا النوع من الأدب وانعكاساته على الجزل بصفة عامة فى الأدب الأوروبى من فرنسا إلى إيطاليا والبرتغال ، مروراً بانجلترا وألمانيا وبخاصة فرنسا ...

ترك الأندلس من البصمات إبداعاً في كل مجالات الفكر والمعرفة ، وهاهم فضلاً عن ذكرنا رحالته جغرافيين ومؤرخين من الوراق والبكري وابن عبد المنعم الحميري وأبو حامد الغرناطي والإدريسي المعروف بالشريف الإدريسي حفيد إدريس الثاني الحمودي أمير مالقة ، إلى ابن جبير إلى أبو عمر عبد الله رشيد ابن النشريس وابن جابر من أهل واد آش ، والبلوي أبو البقاء من أهل قنتورية ، فضلاً عن جالوا في الأندلس كابن بطوطة ومعاصره ابن خلدون عابرين غرناطة وغيرهما ، ومن المؤرخين في عصر الخلافة نذكر على سبيل المثال لا الحصر : عبد الملك بن حبيب وآل الرازي وابن القوطية وعريب بن سعد ، ومن عصر الطوائف أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ومحمد بن مزيد بن مسلمة وابن أبي الفياض ، وبخاصة ابن حزم القرطبي ، وقد كررنا الإشارة إليه سلفاً ، وفي عصر المرابطين والموحدين : ابن صاحب الصلاة وأبو مروان الباجي وابن سعيد وعبد الواحد المراكشي ، ومن مملكة غرناطة ابن الخطيب ، وقد أشرنا إليه سلفاً كشاعر ، إلى جانب أصحاب التراجم وفهارس الكتب كابن الفردى والحجاري وابن بشكال وابن الأبار ، وقد أشرنا إليه سلفاً بدوره ، وابن خير وأصحاب التراجم الخاصة كابن ديحة ، ومن مؤرخي الأدب على بن بسام الشنتريني وابن خاقان الشقندي والمقرئ ، إلى جانب مؤرخي النواحي كابن خاتمة وإسحاق بن مسلمة القيني وابن علقمة ... وغيرهم الكثير ، إن كنا قد أشرنا إلى هذه المعالم في قلاع المجد كرحالة وجغرافيين ومؤرخين بعد إشراقة الشعراء والأدباء ، مختتمين جولتنا حول ما قدمه الأندلس من مجتهدين ومبدعين ، فلا يعني هذا بالضرورة أن ساحة الأندلس انفردت بمن يمثلها أصالة وانتماءً بإسلامه ، وإنما فتحت لغير المسلمين من القاطنين في رباهها وفيافيها ممراتها المشرقة باسم حرية الفكر في وقت كانت هذه الحرية تحترق في ميادين وساحات أوروبا الوسيطة المظلمة ، تباد الأقليات ويُصادر الإنسان ، لاحظنا من المستعربين والأقليات - وبخاصة اليهود - من تمتع بكامل هذه الحرية ليفكر ويعبر ويكتب ، فما هي إشارات « البور القرطبي » و « القس بنجنسيس » و « ربيع بن زيد الأسقف » ، بل كان الكثير من المستعربين يفضلون استعمال لغة العرب

وأسماءهم وأزياءهم إذ يُذكر « للبور القرطبي » (كما جاء عند النشا » تاريخ الفكر الأندلسي - الترجمة ص ٤٨٥ - ٤٨٦) قوله : « إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقدوها ، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً ياللعسرة ، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ... فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك بازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، يا للألم . لقد نسي النصارى حتى لغتهم » .

هذا ، ولم تقف رياح الحرية ورحابة الصدر والتفتح عند حد المستعربين من النصارى ، بل ها هم وبخاصة اليهود يتمتعون تحت رايتها بكل عطاء للدراسات العبرية والتي كانت أسبانيا خلال هذه العصور مركزاً هاماً من مراكزها ، بل انعكست إشعاعات الفكر العربي المسلم على ثقافة يهود أسبانيا وتغذوا من مواردها بصورة مباشرة ، فبعثت الدراسات التلمودية في قرطبة مع « ابن شربوط » ، الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر بعد أن بسط يد المساعدة والعون لموسى بن حنوك ومدرسته ، فأفرزت أعلاماً في الأدب العربي مثل « منحاييم الطرطوشي » و « ابن لبراط » وكانا متأثرين بالأدب العربي وتمثلوا صورته ، كما نذكر أيضاً اليهودي « إسماعيل صموئيل بن النغدة » بقرناطة الذي كان يؤلف بالعبرية واجتهد في النهوض بالدراسات التلمودية ، كما ألف يهودا بن داود بدوره أول نحو علمي باللغة العبرية وهو الذي يسميه بعض كُتَّاب اليهود فيمن كتبوا بالعربية أبا زكريا بن داود حيوج ، وألف ابن جناح - الذي عُرف بين المسلمين بأبي الوليد مروان بن جناح ، وعُرف عند النصارى بيونا (يونس) - في علم النحو باللغة العبرية ما سمي بـ « جمل النحو العبراني » لديهم .

وفى إطار الفلسفة ومن تأثروا بالكتب العربية يُذكر « سلموم بن يهودا بن جبرول » ، والذي سُمى لدى المسلمين أبا أيوب سليمان بن يحيى ، وعُرفَ عند النصارى بـ « أفيسبرون - AVicebron » ، وقد تأثر فى تأليفه بمذهب ابن مسرة ، وهو يتصدر بين شعراء اليهود فى العصور الوسطى . ويحيى بن يوسف بن فاقوزة المعاصر لابن جبرول السابق ، وقد تأثر بآراء الغزالي فى الأخلاق والتصوف وقد سماه الناس بـ « توماس ديكامبيس » اليهودى .

ونشير أيضاً إلى أبى عمر يوسف بن صديق وكان قاضى اليهود فى قرطبة ، وكتب فى المنطق بالعربية ، وترجم إلى العبرية ، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا ، كما نشير إلى موسى بن عذرى وهو من أهل غرناطة ويهودا بن ليفى الطليطلى ، أو يهودا هليفى ، وإبراهيم بن داود الطليطلى ، الذى تأثر بمؤلفات الفارابى وابن سينا ، وقد حاول أن يوفق بين كتب اليهود المقدسة وفلسفة أرسطو ، ومن اليهود أيضاً ممن انتفعوا بحرية الفكر تحت راية الإسلام : يهودا الجزيرى بن شلمون ، ومن الغريب أنه كان ساخطاً مع هذا التفضيل على أهل ملته للغة العبرية وقام بترجمة مقامات الحريرى إليها .

هكذا ومن خلال نماذج محدودة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، برز مفكرون وكتّاب يهود ، شعراء وفلاسفة بل وتوزروا (أصبحوا وزراء) فى ظلال حرية الإسلام بالأندلس وما أمّنه من حقوق للإنسان المسلم وغير المسلم ، فعمرت قنوات الفكر اليهودى بالمجتهدين ، بل شهدت نهاية القرن الثانى عشر نشاطاً ملحوظاً لليهود فى التأليف والنقل من العربية إلى العبرية ، بل النهوض بحركة الترجمة من العبرية إلى العربية ، ولعل موسى بن ميمون القرطبى (٥٢٩ - ٦٠٠ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٤ م) خير مثال يُضرب فى هذا المضمار لنقف عنده قليلاً ونعرّف به كصورة من أبرز صور التسامح الإسلامى مع غير المسلمين وبخاصة اليهود ، فبعد دراسته فى مدارس اليهود والعرب بقرطبة ألف بالعربية كتابه المسمى « رسالة فى الردّة » ، وكتب كذلك بالعربية كتابه المسمى

« السراج » ، كما كتب « رسالة العزاء » ، وبلغتنا العربية العريقة وفي إطارها المتسامح وضع أيضاً كتابه « الفرائض » يدفع به ما وُجّه من نقد إلى كتاب « تشنية التوارث » ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على ما كانت تتمتع به رحاب الأندلس من حرية حقّة ، نكررها باعتزاز ونتساءل - فقط تساؤل - وفي مجال المقارنة حول ما يجرى باسم الحرية وتزييف البعض له في القرن العشرين ، ويعتبر « دلالة الحائرين » من أشهر كتب ابن ميمون ، وقد كُتِبَ أصلاً بالعربية وتُرجم إلى العبرية واللاتينية ولغات أوروبية أخرى كثيرة ، وهو استخلاص لما في اليهودية من لاهوت وفلسفة ، حاول فيه ابن ميمون أن يوفق بين العقل والدين كما فعل ابن حزم وابن رشد من قبله ، وكما سيحاول القديس توماس الأكويني من بعده .

وأشرق أيضاً في سماء الأندلس أدب المستعجمين ، ويُعتبر آخر صورة ظهر فيها الأدب الأندلسي الإسلامي مكتوباً بلغة أسبانية ويحروف عربية وعُرفت في المصطلح الأسباني بـ « الخميادية » أي المستعجمية ، وهذه دلالة على معاناة الفكر بعد ضياع الأندلس لدى المستعجمين ، ضاعت الأرض وضاعت اللغة واستشهد الرجال ، تهجر من تهجر ، وبقيت الآثار الخالدة لا الأطلال البالية تذكرنا بـ « الفردوس المفقود » ، فمن بين الكثير نذكر آثار الزهراء ، وقرمونة ، وقصر الجعفرية ، وحي البيازين ، ومتحف وقصر الحمراء ، والقصبة بالمرية ، ورندة والجزيرة ، والقصبة الأندلسية ، ولبلبة التي زالت محتفظة بأسوارها الأندلسية ، وحتى البرتغال بحصونه العاتية ، وشلب ، وباجة ، وظل جبل طارق ابن زياد شامخاً وشاهداً في المضيق على مأساة عصره وعلى كل عصور الأندلس بما فيها من بؤر للضياء وقلاع للمجد . إنه الأندلس الذي سنطرح حوله في النهاية استخلاصاً لهذا الحوار حول الماضي في الحاضر ، ماضى نطالعه في مختلف الثقافات والحضارات ، ونتلمسه ماثلاً كعبرة وعظة لنا في النكسات والأزمات .

* * *

الخاتمة

وانتهى بنا الحوار عابرين الأندلس مقلعين من الفتح وعصر الولاة " مارين بعصر الإمارة والتحول إلى الخلافة حتى دويلات الطوائف وغرناطة الحبيسة ، لنقف عند بؤر الضياع متحسرين على الخاسرين والبيكائين والمتباكين ، دون أن نتجاهل قلاع المجد بأبطالها المجاهدين وما أبرزته من عطاء لعقول المجتهدين والمبدعين .

لقد ترك الأندلس بصماته عبر مختلف قنوات الثقافات والحضارات التالية داخل وخارج الدار ، لقد أثرى فكرنا بقدر ما أثرى فكر غيرنا ، وهذه هي خصائص الحضارات الإنسانية العملاقة ، حضارة ارتكزت على وحي من الله ، فأنارت الطريق للإنسان إذا ما التزم بهذا الوحي وفي كل زمان ومكان . حضارتنا إذن ترعرعت في ساحة الإسلام وأعطت خلال تداول الأيام والسنين والأعوام كنوزاً للبشرية ، لم تبخل ولم تمارس مصادرة أو اغتيالاً للإنسان باسم الإنسان ، لقد أحيتة مستخلفاً في الأرض وأضاءت له السبل ، وحينما تراجعت - وهذه سنة الله في تدافع الناس والأمم - محصورة ومحاصرة في معاقلها ورثتها حضارة الغرب كما ورثت من غيرها بعد أن مارست عليها كل وسائل الضغوط وتحت مختلف المسميات ، وفي النهاية كان الاستعمار وبيات السائد مسوداً ، قابلاً في عقر داره يدافع عما تبقى له ، ومع هذا نتساءل هل استطاعت حضارة الغرب أن تعيد للإنسان هذا الإشراق وهذا التعادل الذي عرفه حينما كانت تشع شمس حضارة الإسلام على وجهه فتكسبه مع القناعة والرضا ثوباً من الطمأنينة والصفاء ، حضارة الغرب وهي حضارة الأشياء ركزت على ترفيه ورخاء جسد الإنسان وأملت عليه تسلط الاستهلاك والإشباع ، وأصبح الإنسان في خدمة الأشياء ولم تعد الأشياء في خدمته ، فهو من أجلها يعيش ويسلاسها مرهون أو مستعبد يلهث ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ووصل وهو في قمة إنجازاته إلى قمة معاناته ، تحاصره الهموم النفسية ، يستنشق التلوث ويرتعب من « الإيدز - السيدا » ليستقط في ضباب المخدرات .

تلك هي خصائص العملاق - القزم ، الصحيح - المريض ، الذى عليه أن يفخر فعلاً بإنجازاته العملاقة ، عصر الكمبيوتر وعصر اختزال الزمان والمكان ، عصر المعلومات ، وعصر التوصيل والاتصال ، مرثية ومسموعة ومقروءة ، عصر السباحة فى الفضاء والتتزه فوق سطح القمر ، ومع هذا فهو عصر متميز أيضاً بما أشرنا إليه سلفاً من هموم ومعاناة وتلوث واهتزاز وأوبئة مريضة ...

ونعود إلى أندلسنا الذى لا يمكن إنكار دوره فى إرهاصات هذه الحضارة الغربية وفى بذر جذورها ، أسماء نذكرها ونتذكرها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، أشعت على تربة هذه الجذور وغذتها برحيق العطاء ، فهذا الزهراوى أبو القاسم « أبو الكاسيس » ، وابن وافد « ابن غفلق الطبيب » ، والبطروجى « البتراجيو » ، وبخاصة ابن رشد « أفيرويس » ، وكتابه فى الكليات « كليجات » الذى غذى الأوربيين بمعرفته ، فضلاً عن دوره فى الحركة الاسكولاستيكية النصرانية ، وتأثيره على القديس توماس الأكوينى ، وآثاره فى قضية التوفيق فى اللاهوت لديهم بين الدين والفلسفة ، حتى متصوفة الأندلس ، محيى الدين بن عربى وابن سبعين ، كانت لهما الأصداء فى الغرب التى لا يجهلها العارفون ... أعلام ، وأعلام قدمها هذا « الفردوس المفقود » الذى عدنا إليه فى النصف الأخير من القرن العشرين كسائحين نتطلع إلى آثاره وبقاياه ، وباستئذان دخلنا وخرجنا من « قصر الحمراء » بعد أن انتهى الوقت المخصص للسياحة والجولان ، وتهاوت بنا الأقدام عبر صخرته ، فمضغ الأحزان ، وانزويننا فى أسفل المكان ، ونظرنا إلى ما حولنا من آفاق نتأسى على الماضى فى الحاضر ، كما نتأسى على الحاضر فى الماضى عبر الأندلس ، وكيف أن الجروح مهما التأمّت بعد الاستئصال تظل دائماً تذكرنا بين الفينة والأخرى باستيطانها ، وقد استعصت عليها دماء الاستنزاف من كثرة ما تعايشت معه من نكسات وأزمات .

كان الأندلس الذى لم يقدم حضارته العملاقة عبر جلسة ودية أو لقاء مجاملة ، أو على إيقاع أنغام هادئة حافلة بالرياحين والورود ، وإنما قدمها عبر مخاضات ومن خلال أعاصير تواجه معها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يحفلوا

بالعوائق ، ولم يقفوا أمام الحواجز ، ولا أثنتهم عن عزيمتهم شوامخ الجبال ،
ما تقلص مدهم فى أية مواجهة ولا على أى جبهة كانت ، فبقدر التحلى بقناعة
الإيمان والتلاحم مع الغاية والهدف والتضحية فى سبيل المثل العليا المجسدة
لقداسة العقيدة والتي من أجلها تبرز أصالة الإنسان ، بقدر ما يثبت فى زحفه
ويفجر طاقته محققاً لما يبتغيه وما يأمله ، وهذا ما لاحظناه مع الجيل الذى ثبت
أقدامه على أرض الأندلس فى البداية رافعاً لراية الله ، ناشراً للمبادئ الخالدة ،
تعاوناً وبرا ، وإخاءً ووفاءً ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً وتوالت الأجيال
وتدولت الأيام وتداخل فيها الواعى بالغافل والجاد باللاهى والملتزم بالانتهازى ،
وفى كل مرة يتصدر فى التداخل جيل الواعين الجادين والملتزمين ، جيل قلاع
المجد من الأبطال المجاهدين ، يستعيد الأندلس تعادله ولو إلى حين ، وتعلو
كلمة الحق مرفرفة براية الإسلام ، خفاقة بالإشعاع والإشراق ، وفى كل مرة
يتزاحم فى التداخل طافياً جيل الغافلين والمتغافلين بهوامشه من اللاهين
والمتلايين ، مهيناً الأرض للانتهازيين والوصوليين ، مجسداً لبؤر الضياع ،
يتراجع الأندلس ويفتقد توازنه وتكفهر سماءه وتتقلص قدراته ويعتمة الضباب
ليصبح ضحية لكل طامع مفترس ، ومن باب أولى لهذا الخصم المترص به
والقابع فى الانتظار حوله يتحين الفرص لينقض ويستحوذ .

رهكذا لاحظنا منذ الجولة الأولى فى الأندلس مع عصر الولاة كيف أن هذا
المنتصر الفاتح ، رغم قدراته وتفانيه فى أداء رسالته ، كان عليه أن يكمل تأمين
مسيرته ، ويعى بأن ضمان استمراره مرتبط بوعيه بما يدبره له خصمه ، فلا يترك
لبريق الانتصار فرصة إعمائه عن جزئيات قد لا تبدو عظيمة الشأن فى حينها ،
ولكن حين استغلالها من الخصم تؤدى إلى قلب الموازين ، وربما إلى تأهيل المنهزم
ليستعيد أنفاسه ، وهذا ما حدث ، فضلاً عن أن بعض الهفوات بدورها قد تتسع
فيصعب احتواءها ، ومن ثم كان لزاماً على المنتصر أن يتحاشاها محصناً
لانتصاره من خارجه وداخله ، من خارجه بمتابعة خصمه سعياً لاستنصاله من
الأساس ، مؤمناً بذلك عدم عودته ، ومن داخله بعدم تركه للطفيليات

والحاساسيات والحماسات الشخصية ، والعصبيات العشائرية والقبلية ، والفتن والمؤامرات والمكائد ، أن تنمو وتنبت في أحشائه لتبث فيها بذور الفرقة ، مؤهلة الجسد للتمزق والتفتت .

لقد تغافل الفاتح المنتصر - كما رأينا في عرضنا - وهو واثق من قدرته عن قدرة خصمه ومناوراتِه في اقتناص الفرص ليستعيد معه الكرة تلو الكرة ... تغافل أملته ربما نشوة السيطرة والهيمنة والنصر ، لقد كان على هذا المجاهد الذي اجتاز كل حواجز الأندلس أن يختار أيضاً حواجز أنانيته وشخصانيته ، فيعلو برغباته لتصبح لديه الرغبة الكامنة والمعلنة على حد سواء : هي إعلاء كلمة الله ، لم يتغافل المتغافلون أو الغافلون عن نية مبيتة أو مقصد دفين ، ولكن طبيعة الأحداث بما في ذلك تركيبة الفئات والجماعات الفاتحة التي كانت تعبى ، قدراتها إبّان اندماجها وتلاحمها مع عقيدتها الخالدة وإيمانها الراسخ ، بينما هذه التعبئة تتضائل ، بل وكثيراً ما تتلاشى ، حينما تغزوها النزعة الذاتية غير الواعية بغاياتها وأهدافها ، فتسقط في متاهات المنافع الفانية والمصالح الوقتية الزائلة ، متساقطة في بؤر الضياع ، باكية أو متباكية ، خسرت الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ضاعت وأضاعَت معها الأندلس الملموس ، وبقي لنا ذكرى عالقة بالوجدان ترجمتها تلقائياً صفحات هذا الحوار لتكون عظة وعبرة للأجيال الحاضرة والقادمة ، شعوباً ونخباً وقيادة ، تتحمل صياغة القرار ، وتقع عليها مسؤوليته للسير بالأمة نحو استعادة قلاع مجدها ، متجاوزة لبؤر ضياعها ، واعية برسالتها الخالدة لأمة لا تُخلق عبثاً ، وإنما هي كانت وستكون بمشيئة الله : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١١) .

* * *

(١١) آل عمران : ١١٠

ملحقات

- ١ - الوثيقة الأولى : قصيدة الرندى .
- ٢ - الوثيقة الثانية : خاصة ليوسف بن تاشفين .
- ٣ - الوثيقة الثالثة : كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس .

* * *

تقديم

استكمالاً للفائدة ، بعد أن حرص مفكرنا الكبير الدكتور رشدي فكار في حوارهِ أن يدع الأندلس يتحدث عن نفسه في كل مرة تملئ طبيعة الوقائع والأحداث ذلك ، أفردتُ هذه الملحقات لذكر وثائق نتذكرها ونستعيد ذكرها ، وهي ليست بالجديدة في نشرها أو المجهولة لدى المتخصصين والمختصين ، وإنما اختيرت إما لعمق مضمونها وارتباطه بأساة الأندلس عبر كل الأجيال ، كما هو الحال في الوثيقة الأولى التي تتضمن رائعة الأندلس ، التي نسبت للمفقيه أبو يحيى صالح بن شريف الرندي بمطلعها « لكل شيء إذا تم نقصان » ، وإما لما ترمز إليه الوثيقة من تذكير بقلعة من قلاع المجد ، يوسف بن تاشفين ، هذا القائد الذي يُجسّد هذه النوعية من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، نذكره اليوم وبكل اعتزاز من خلال كلماته الواعية ومواقفه القادرة ، لنؤكد لمن في حاجة إلى تأكيد أن معين هذه الأمة لم ولن ينضب أبداً ، وهذا هو موضوع « الوثيقة الثانية » من الملحقات . وأما « الوثيقة الثالثة والأخيرة » من هذه الملحقات ، فقد اختيرت لما فيها من تصوير مفعّل وتذكير في غنى عن كل بيان بهذه الفئة الانتهازية التي احترفت بيع الشعارات وتزييف الكلم والسمسرة به ، لتحقيق مآربها التي كثيراً ما تتم على حساب الأمة لا لحسابها ، إنها الوثيقة التي عُرِفَت بـ « كتاب ابن الأحمر إلى صاحب فاس » ، كتاب السلطان أبي عبد الله بن الأحمر المخلوع الذي بعث بها إلى الشيخ الوطاسي صاحب فاس توسلاً ومقلقاً ، وهي من إنشاد الأديب أبي عبد الله محمد بن أبي عبد الله العقيلي ، عرضناها بنصها وشروحها كما هي ، تتممة لهذا الحوار رغم طولها دونما اختزال أو تدخل ، أو تداخل أو إيجاز ، أوردناها هكذا وفاءً منا لمن

أوردها من قبلنا وهو المقرء التلمساني « أزهار الرياض في أخبار عياض »
حيث قال في نهايتها نصاً (ص ٢٠٢) : « انتهى الكتاب وأوردته بطوله لما
فيه من ذكرى واعتبار بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعظم الكبار » ، غير أننا
نتباين معه في نعتة لهؤلاء الملوك على أنهم « الأعظم الكبار » وهم ملوك
خلعوا وأضاعوا ممالكهم ، فاستبدلنا « الأعظم » بالقماقم ، كما استبدلنا
نعت « الكبار » بالصغار ، تلاعبوا بمصير أمتهم ، فعانوا من نفس المصير .

* * *

ملحق (١)

الوثيقة الأولى « قصيدة الرندى »

كما جاءت عند : على بن أبى زرع الفاسى ، « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » ، (الرباط ، من مطبوعات دار المنصور ١٩٧٢ ص ١١٢ وما يليها) .

وقد ذكرت القصيدة ضمن أحداث سنة ٦٦٥ هـ ، حينما تعرض المؤلف لما جرى فيها من نكبات حلت بالمسلمين ، وما تم من استسلام للألفونش حيث قال نصاً : « وفيها (أى فى هذه السنة) صالح ابن الأحمر الفونشى على أن أعطاه ابن الأحمر نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من جملتها شريش والمدينة والقلعة ، وقيل إن جملة ما أعطاه ابن الأحمر للألفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس .

وفىها استعان ابن الأحمر بالفونش على قتال ابن أشقيلولة الشائر عليه بمالقة ، فنزلوا عليه بها ثلاثة أشهر ولم يقدرُوا منها على شىء فانصرفوا عنه خائبين .

ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش قال الفقيه أبو محمد صالح ابن شريف الرندى يرثى بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدو من مرين وغيرهم بهذه القصيدة :

فلا يُقَرُّ بطيب العيش إنسان
مَن سره زمن ساءت له أزمان
ولا يدوم على حال لها شان
إذا نبت مشرفيات وخرسان
كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
وأيمن منهم أكاليل وتيجان

لكل شىء إذا ما تم نقصان
هى الأمور كما شاهدتها دول
وهأذه الدار لا تُبقى على أحد
يمزق الدهر حتماً كل سابعة
وينتضى كل سيف للفناء ولو
أين الملوك ذور التيجان من يمن

وأين ما شاده شداد فسى إرم
وأين ما حازه قارون من ذهب
أنا على الكل أمر لا مرد له
تخلفوا عيبراً وأصبحوا خيراً
دار الزمان على دارا وقاتله
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
فجائع الدهر أنواع متنوعة
وللحوادث سلوان يسهلها
دها الجزيرة خطب لا عزاء له
أصابها العين فى الإسلام فامتحنحت
فسل بلنسية ما شأن مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد وما
تبكى الحنيفة البيضاء من أسف
على بيوت من الإسلام عاطلة
صارت كنائس قد طال الضلال بها
حتى المحارب تبكى وهى جامدة
أغافلاً وله فى العيش موعظة
وما شياً مسرحاً يلهيه موطنه
تلك المصيبة أنست ما تقدمها

وأين ما ساسه فى الفرس ساسان
وأين عاد وشداد وقحطان
حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
كما حكا عن خيال النوم وسمان
وأم كسرا فما آواه إيوان
يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
وبعضها فوق بعض وهى ألوان
وما لما خل بالإسلام سلوان
هوا له أحد وانهد ثهلان
حتى خلت منه أوطان وبلدان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فياض وملآن
عسا البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكت لرسول الله أجفان
كأنها لم تكن بالذكر تزدان
فليس إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترثى وهى عيدان
إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
أبعد حمص تغر القوم أوطان
وما لها مع طول الدهر نسيان

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهفة
وراتعين وراء البحر فى دعة
أعندكم خبر من أهل أندلس
كم يستغيث بها المستضعفون وهم
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم
يامن لذة قوم بعد عزتهم
ألا نفوس أبيات لها همم
بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم
فلو تراهم حياراً لا دليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
كم من أسير بحبل الذل معتقل
يارب أم وطفل حبل بينهما
وطفلة ما رأتها الشمس قد برزت
يقودها العليج للمكروه مكرهة
لمثل هذا يذوب القلب من كمد

كأنها فى مجال السبق عقبان
كأنها فى ظلام النقع نيران
لهم بأوطانهم عز وسلطان
فقد سراً بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلاً فلا يهتم إنسان
وأنتم يا عباد الله إخوان
كأنهم وهم الأحرار عبدان
أما على الخير أنصار وأعوان
واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
عليهم من ثياب الذل ألوان
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
كأنه ميت والذل أكفان
كما تُفَرِّق أرواح وأبدان
كأنها هى ياقوت ومرجان
والعين باكية والقلب حيران
إن كان فى القلب إسلام وإيمان

* * *

ملحق (٢)

الوثيقة الثانية خاصة ليوسف بن تاشفين

ويطالعنا رمزاً من قلاع المجد ، يجسده هذا القائد المتميز يوسف بن تاشفين ،
الذى صاح فى رجاله وهو يعبر بهم إلى الأندلس فى يوم الخميس عند الزوال فى
منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيو ١٠٨٦ م) - (كما ورد فى
« الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس »
لأبى على بن أبى زرع القاسى ، المنشور سنة ١٩٧٣ عن دار المنصور للطباعة
بالرباط ص ١٤٥) ، حيث حينما ركب السفينة واستقر على ظهرها ، رفع يديه
ودعا الله تعالى ، وقال فى دعائه : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازي هذا خيراً
وصلاحاً للمسلمين ، فسهّل على جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه
على حتى لا أجوزه » ، فسهّل الله عليه الجواز فى أسرع ما يكون ... » .

إنه أمير المسلمين المؤمن يوسف بن تاشفين الذى هو بحق من خير من
يستشهد بهم التعبير عن أنفة هذه الأمة وشموخها وقدرتها على المواجهة ، هذا
القائد الواعى والذى كان يردد فى كل مجلس من مجالسه ما ذكره له
صاحب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ونعنى به عبد الواحد المراكشى ،
(الطبعة السابعة ١٩٧٨ ، عن دار الكتاب بالدار البيضاء ، تحقيق سعيد
العرىان ومحمد العربى العلمى ص ٢٤١) ، حيث يقول يوسف بن تاشفين بصدد
الأندلس ، هذا المنقذ لأندلس متهاوى قبل أن يتحوّل إلى فردوس مفقود ، يحدّد
عرضه بوضوح : « إنما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي
الروم لما رأينا استيلائهم على أكثرها وغفلة ملوكهم واعمالهم للغزو ، وتواكلهم
وتخاذلهم وإيثارهم للراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تُسمعه ،
ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد الذى ملكها الروم فى
طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة

ولا علم عندهم برخاء العيش ، وإنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه
أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبى دعوته » .

ويضيف المراكشى (ص ٢٤٢) : « فبلغ ذلك ملوك النصارى فيزداد فرقهم
ويقوى مما بأيدي المسلمين بل مما بأيديهم بأسهم » .

وهكذا كان لهذا العملاق يوسف بن تاشفين الحق أن يُنعت من معاصريه بأمير
المسلمين والمسترد لجزيرة الأندلس بأسرها ، هذا المرابطى الذى عدّ وابنه فى
عصره - كما ذكر المراكشى فى نفس الصفحة - من أكابر الملوك ، وأفردنا له
هذا الجانب فى ملحقاتنا الثلاثة لتجسد به كمثال قلعة من قلاع المجد ، على أن
نُفرد الملحق التالى لمثال من بؤر الضياع فى انتظار استعادة الأندلس ، ولم لا ؟
إن لم نستطع كواقع ملموس ، فلنستعده على الأقل فى أذهاننا بقلع مجده وبؤر
ضياعه .

* * *

ملحق (٣)

كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس

كما جاء نصاً عند شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني « أزهار الرياض في أخبار عياض » (الرباط ، منشورات صندوق التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧٨ -) من ص ٧٢ إلى ص ١٠٢ .

« ولا بأس أن تُورد كتاب السلطان أبي^(١) عبد الله بن الأحمر المخلوع المذكور ، الذي بعث به لصاحب فاس^(٢) في ذلك العهد ، تمهيداً لعُذْره ، وتوطئة لمقصده ، وتطارحاً على تلك الأبواب وتعلّفاً ، وتمسكاً بذلك الجناب وتعلّفاً ، وهو في الغاية^(٣) من الفصاحة والبلاغة ، من إنشاء الفقيه الأديب ، الشاعر الناظم ، النائر الكاتب ، المجيد البارع البليغ ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي رحمه الله ، وسماء بالروض العاطر^(٤) الأنفاس ، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان ، فاس ؛ ونصّه بعد الافتتاح^(٥) :

« مَوْلَى الْمُلُوكِ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ رَعِيًّا لِمَا^(٦) مِثْلُهُ يُرْعَى مِنَ الذَّمِّ بِكَ اسْتَجَرْنَا وَنِعْمَ الْجَارُ أَنْتَ لِمَنْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ جَوْرٌ مُنْتَقِمٌ

(١) في (ط) : « أبا » وهو تحريف . (٢) هو الشيخ الوطاسي سلطان فاس .

(٣) في (ت) : « وفي الغاية » .

(٤) كذا في (ت) ونفع الطيب ، وفي (ط) : « العطير » .

(٥) كذا في (ت) ونفع الطيب ، وفي (ط) : « افتتاح » .

(٦) في نفع الطيب : « لمن » .

حتى غدا ملوكه بالرغم مستلبا
 حكم من الله ختم لا مرد له
 وفي الليالي وقاك الله صولتها
 كنا ملوكا لنا في أرضنا دول
 فأيقظتنا سهام للردى صيب
 فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا
 يبكى عليه الذي قد كان يعرفه
 كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا
 وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت
 وأبسط لنا الخلق المرجو بأسطه
 لا تأخذنا (٥) بأقوال الوشاة ولم
 فما أطلقنا دفاعاً للقضاء وما (٦)
 ولا ركوباً يازعاج لسابحة
 وأقطع الخطب ما يأتي على الرغم
 وهل مرد لحكم منه منحتم (١)
 تصول حتى على الآساد في الأجم
 نحنا (٢) بها تحت أفتان من النعم
 يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
 وأي ملك بطل الملك لم يتم
 بأدمع مزرجت أمواها بدم
 يشم بو الصغار (٣) الأنف ذا الشم (٤)
 فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
 واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
 نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم
 أرادت أنفسنا ما حل من نقم
 في زاخر بأكف الموج ملتطم

(١) كذا في الأصلين وإحدى روايتي نفع الطيب ، ولم ترد صيغة « انحتم » في المعاجم التي
 بين أيدينا . وفي رواية أخرى لنفع الطيب : « منحسم » .
 (٢) في (ت) « نما » ، وهو تحريف .
 (٣) البو : جلد الحوار يحشى تبناً ونحوه لتعطف عليه أمه فتدر . والصغار : الذل .
 (٤) في (ط) « ذو الشم » .
 (٥) كذا في (ط) ونفع الطيب طبعة أوروبا . وفي (ت) ونفع الطيب طبعة المطبعة الأزهرية :
 « لا تأخذونا » .
 (٦) في (ت) : « ولا » .

والمرء ما لم يُعنه الله أضيع من
وكل ما (١) كان غير الله يحرسه (٢)
كُن كالسموئل إذ سار الهمام له
فلم يُبيح (٥) أذرع الكندي وهر يرى
أو كالمعلّى (٧) مع الضليل الأروع إذ
وصار يشكره شكراً يكافىء ما
ولا تعاتب على أشياء قد قدرت
وعدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له
إيه حنائيك يا بنى الأكرمين على
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت
رحماك يا راحماً يُنمى إلى رَحَماً
فكم مواقف صدق في الجهاد لنا
والسيف يخضب بالمحمر من علق

طفيل تشكى بفقد الأم في اليتم
فإن محروسه لحم على وضم (٣)
فى جحفل كسواد الليل مرثكم (٤)
أن ابنه البر قد أشفى على الرجم (٦)
أجاره من أعاريب ومن عجم
أسدى إليه من الآلاء والنعم
وخط مسطورها فى اللوح بالقلم
وعدّ أحرارنا فى جملة الخدم
ضيف ألم بفاس غير محتشم (٨)
بنا (٩) إليها خطا الوخادة الرسم (١٠)
فى النفس والأهل والأتباع والحشم
والخيل عالكه الأشداق للجُم
ما ابيض من سبل واسود من لَم (١١)

(١) كذا فى (ط) ونفع الطيب . وفى ت : « من » .

(٢) كذا فى (ت) ونفع الطيب . وفى (ط) : « ما كان غير الله يحرسه فإن محرسه » ، وهو تحريف .

(٣) الوضم : خوان القصاب ، وهو ما يقطع عليه اللحم ويهينه .

(٤) الجحفل : الجيش الجرأر . ومرثكم : متراكم . (٥) فى (ط) : « فلا » .

(٦) الرجم : جمع رجمة ، وهى الحجارة توضع على القبر ، ويريد القبر نفسه .

(٧) المعلّى : هو أحد بنى تيم ، وكان قد أجار أمراً القيس من المنذر بن ماء السماء .

(٨) إيه : أى حسبك . (٩) كذا فى (ت) ونفع الطيب . وفى (ط) : « منا » .

(١٠) الوخادة : السريعة السير . والرسم : جمع رسوم ، وهى الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدة الوطء .

(١١) يريد بالسبل : شعر اللحية . واللَم : جمع لمة ، وهى شعر الرأس الذى يلم بالمنكبين .

ولا ترى صدر غضب غير مُنْقَصِفٍ
حتى دُهينا بدهيا لا اقتدار بها (٢)
فقال مَنْ لَمْ يشاهدها فرِيَتَمًا
هيهات لو زَيَّنَتْه الحرب كان بها
تالله ما أضمرت غِشًا ضمائرنا
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت
فخساننا عنده الجَدُّ الحَثون ومن
فاسود ما اخضر من عيش دَهْتَه عدا
وشتت البين شمسلا كان منتظما
فرب مَبْنَى شديد قد أناخ به
قمنا لديه أصيلا نَسَائِلَه
وما ظننا بأن نبقى إلى زمن
لكن رضا بالقضا الجارى وإن طويت

ولا ترى متن (١) لذن غير مُنْحَطِمٍ
سوى على الصون للأطفال والحرم
يُخال جامحها يُقتاد بالخطم
أعيا يدا من يد جالت على زلم (٣)
ولا طوت صِحَّة منها على سقم
ولأثنا (٤) قبلنا فى الأعصر الدُّهم
تَقَعُدْ به نكبات الدهر لم يقيم
بالأسمر اللذن أو بالأبيض الخدم (٥)
والبين أقطع للموصول من جلم (٦)
ركب البلا فقرته أدمع الدِّيم (٧)
أعيا جوابا وما بالربع من أرم (٨)
نرى به غرر الأحباب كالحمم (٩)
منا الضلوع على برح من الألم

(١) فى (ت) : « مثل » . (٢) فى (ت) : « بدهى لا اقتدار بنا » .

(٣) كذا فى (ت) . والزلم - بفتح تين ، أو بضم ففتح - : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية . وفى (ط) ونفع الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « رحم » . وفى نفع الطيب طبعة أوربا : « رخم » . وما أثبتاه أوضح ، فهو يريد أن يد هذا اللاتم أضعف من يد تجيل قذاح المبسر .

(٤) كذا فى نفع الطيب . وفى ت : « ولاته » . وفى (ط) : « ولاية » .

(٥) الأسمر اللذن : الرمح . والأبيض الخدم : السيف القاطع . (٦) الجلم : المقرض .

(٧) الدِّيم : جمع ديمة ، وهى السحابة يدوم مطرها أياما .

(٨) أصيلا : قرب الأصيل . وما بالربع من إرم : أى من أحد .

(٩) الغرر : جمع غرة ، وهى بياض الجبين . والحمم : الفعم الأسود ، الواحدة حمة (بالضم) .

لَبَّيْكَ يَا مَنْ دَعَانَا نَحْوَ حَضْرَتِهِ
وَأَعْطِ الْأَمْنَ ^(١) الَّذِي رُصِّتْ ^(٢) قَوَاعِدُهُ
خَلِيفَةُ اللَّهِ وَافَاكَ الْعَبِيدُ فَكُنْ
وَبَيْنَ أَسْلَافِنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ بِهِ
وَأَنْتَ مِنْهُمْ كَأَصْلِ مُطْلِعِ غُصْنًا
وَقَدْ خَطَرَتْ خُطَاهُمْ فِي مَآثِرِهِمْ
وَصِيَتْ مَوْلَى الْوَرَى الشَّيْخَ الْإِمَامَ غَدَا
سُلَالَةِ الْأُمَرَاءِ ، الْجِلَّةِ الْكِبَرَاءِ
بَنُو مَرِّينَ لُبُوثٌ فِي عَرِينِ أَبَوَاءِ
النَّازِلِينَ مِنَ الْبَيْضَاءِ ^(٥) وَسَطِ حِمَى
وَالْجَانْسِينَ بِدُهُمِ الْخَيْلِ كُلِّ ذَرَى
يَرِيكَ فَارِسُهُمْ إِنْ هَزَّ عَامِلُهُ ^(٧)
لَيْثًا عَلَى أَجْدَلِ عَارٍ مِنْ أَجْنَحَةٍ

دَعْنَاءَ إِبْرَاهِيمَ الْحُجَّاجِ لِلْحَرَمِ
عَلَى أَسَاسٍ وَفَاءٍ غَيْرِ مَنْهَدِمِ
فِي كُلِّ فَضْلٍ وَطَوَّلٍ عِنْدَ ظَنِّهِمْ
مِنْ اعْتِقَادٍ بِحُكْمِ الْإِرْثِ مُقْتَسَمِ
أَوْ كَالشُّرَاكِ الَّذِي قَدْ قُذِيَ مِنْ أَدَمِ
فَلَمْ يُذَمُّوا إِذِنْ فِيهَا وَلَمْ تُذَمَّ ^(٣)
فِي النَّاسِ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ
، الْعِلِيَّةِ الظُّهْرَاءِ ، الْقَادَةِ الْبُهِمِ ^(٤)
رُؤْيَا قَرِينٍ لَهُمْ فِي الْبَاسِ وَالْكَرَمِ
أَحْمَى مِنَ الْأَبْلَقِ السَّامِيِّ وَمِنْ إِرَمِ
وَالدَّاعِسِينَ بِسَمْرِ الْخَطِّ كُلِّ كَمَى ^(٦)
فِي مَازِقٍ ^(٨) بَلْظَى الْهَيْجَاءِ مُضْطَرِمِ
يَسْطُو بِأَرْقَمِ لَدَاغٍ بِغَيْرِ قَمِ ^(٩)

(١) فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ : « وَاعْطِ الْأَمَانَ » .

(٢) فِي (ت) : « رَسَتْ » .

(٣) لَمْ تُذَمَّ : لَمْ تَعْبَ . يُقَالُ : ذَامَهُ يَذِيهِ : إِذَا عَابَهُ .

(٤) الظُّهْرَاءُ : جَمْعُ ظَهِيرٍ ، وَهُوَ النَّصِيرُ . وَالْبُهِمُ : جَمْعُ بُهْمَةٍ - بِالضَّمِّ - وَهُوَ الْبَطْلُ الشَّجَاعُ .

(٥) الْبَيْضَاءُ : فَاسُ الْجَدِيدَةِ .

(٦) الْجَانْسِينَ : الَّذِينَ يَتَرَدَّدُونَ خِلَالَ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ فِي الْغَارَةِ . وَكُلُّ ذَرَى : كُلُّ نَاحِيَةٍ .

وَالدَّاعِسِينَ : الطَّاعِنِينَ . وَسَمَرُ الْخَطِّ : الرِّمَاحُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْخَطِّ ، وَهُوَ مَرْفَأٌ بِالْبَحْرَيْنِ . وَالْكَمَى : الْبَطْلُ الْمَتَسَتِّرُ فِي سِلَاحِهِ .

(٧) عَامِلُ الرَّمْحِ : صَدْرُهُ .

(٨) فِي الْأَصْلَيْنِ وَنَفْعِ الطَّيِّبِ : « مَارِقٌ » وَلَعَلَّهَا مَحْرَفَةٌ عَمَّا أُثْبِتَتْ .

(٩) الْأَجْدَلُ : الصَّقْرُ ، شَبَّهَ بِهِ الْحَصَانُ فِي سُرْعَةِ انْقِضَاظِهِ . وَالْأَرْقَمُ : الثَّعْبَانُ ، شَبَّهَ بِهِ الرَّمْحُ

فى اللام يُدْغِم من عَسَّالِهِ أَلِفًا
 أَهْلُ الحَفِيزَةِ يَوْمَ الرُّوعِ يَحْفَظُهُمْ
 بَأْسٌ ^(٣) تَطِيرُ شَرَارٌ مِنْهُ مَحْرَقَةٌ
 هُمْ ^(٤) بِطَائِفَةِ التَّثْلِيثِ قَدْ فَتَكُوا
 وَإِنْ يُلْثَمُهُمْ يَوْمَ الوَغَى رَهْجٌ
 تَضَىءُ آرَاؤُهُمْ فِى كُلِّ مُعْضَلَةٍ
 هَذَا وَلَوْ مِنْ حَيَاءٍ ذَابَ مُحْتَشِمٌ
 طَابَتْ مَدَائِحُهُمْ إِذْ طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ
 لِلَّهِ دَرُّهُمْ وَالسُّخْبُ بِاخْلَةٍ
 بِحَيْثِ الْأَفْقِ يُرَى مِنْ لَوْنِ حُمْرَتِهِ
 هُنَاكَ تَنْهَلُ أَيْدِيهِمْ بِصُوبٍ حَيًّا
 وَلَمْ نَجِدْ أَلِفًا أَصْلًا بِمَدْغَمٍ ^(١)
 مِنْ عَصَةِ اللَّهِ مَا يُرَى عَلَى الْعِصَمِ ^(٢)
 لِكُلِّ مَدْرَعٍ بِالْحَزَمِ مُحْتَزَمٌ
 كَمَثَلِ مَا يَفْتِكُ السَّرْحَانُ بِالْغَنَمِ ^(٥)
 أَنْسَوُكُ مَا ذَكَرُوهُ عَنْ ذَوَى اللَّثَمِ ^(٦)
 إِضْبَاعَةُ السُّرُجِ فِى دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
 لَذَابٍ مِنْهُمْ حَيَاءٌ كُلُّ مُحْتَشِمٍ
 فَاشْتَقَّتِ النَّسَمَاتُ اسْمًا مِنَ النَّسَمِ
 بِدَرُّهِنَّ عَلَى الْأَنْعَامِ وَالنَّعَمِ
 كَالشَّيْبِ يُخْضَبُ بِالْحِنَاءِ وَالْكُتَمِ ^(٧)
 يُحْيَى بِالْأَجْدَاثِ مَا فِيهَا مِنَ الرُّمِ ^(٨)

(١) اللام : مسهلة عن اللأم ، جمع لأمة ، وهى الدرع . والعسال : الرمح اللدن ، وقد شبهه فى استقامته بالألف . وفى البيت توريه .

(٢) العصم : ما يعتصم به الناس فى الحرب من معاقل وشبهها .. يريد أنهم محوطون من عناية الله وحياطته بما لا تفى بمثله المعاقل والحصون .

(٣) فى (ت) ونفع الطيب : « يامن » .

(٤) كذا فى (ت) ونفع الطيب . وفى (ط) : « وهم » . (٥) السرحان : اللثب .

(٦) كذا فى (ت) ونفع الطيب . والرهج : الغبار تشيره الحرب . وفى (ط) : « وهج » .

وذوو اللثم : يريد الملتصين ، قبائل من البربر عرفوا بالشجاعة .

(٧) الكتم (كسب) : نبت يُستعمل فى خضاب الشعر . يصفهم فى هذا البيت والذى قبله

بالجود فى أزمان القحط والشدة .

(٨) تنهل : تفيض . وصوب الحيا : ماء المطر . والأجداث : القبور .

وَإِنْ بَيَّتْ نَسِي زِيَادٍ طَالَمَا ذَكَرَا
« أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَادُ مُطَهَّرَةٌ
يَسْرُونَ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِفْظَ جَارِهِمْ
قُرُوعُهُ (٣) بِالْدَوَاهِي لَا يُرَاعَ وَلَا
هُمْ الْبَحَارُ سَمَاحًا غَيْرَ أَنْ بِهَا
وَلَيْسَ يَسْلَمُ مَنْ حَتَفَ مُحَارِبُهُمْ
كَمْ فِيهِمْ مِنْ أَمِيرٍ أَوْحَدٍ نَدَسٍ
وَلَا كَسِبَطٍ أَبِي حُسُونٍ مَنْ حَسُنَتْ

إِذَا أَلَمْتُ أَحَادِيثَ بِذِكْرِهِمْ (١)
مِنَ الْمَعَقَةِ وَالْآفَاتِ وَالْإِثْمِ (٢)
فَلَمْ يُضَرَّ نَازِلٌ فِيهِمْ وَلَمْ يُضْمَ
يُغَمُّ مِنْهَا بِمَا يَعْرِو مِنَ الْغَمِّ (٤)
مَا قَدْ أَنَافَ عَلَى الْأَطْوَادِ (٥) مِنْ هِمِّ
حَتَّى يَكُونَ إِلَيْهِمْ مُلْقَى السَّلَامِ
يُقَرِّطُ الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ بِالْفَهَمِ (٦)
أَمْدَاحَهُ حُسْنًا مَا فِيهِ مِنَ الشِّيمِ (٧)

(١) زياد : هو النابغة الذبياني .

(٢) المعقة : العقوق . والإثم : جمع إثم ، وهي الإثم . وهذا البيت من مقطوعة للنابغة أبياتها أربعة في مدح الغساسنة ، وقبله :

هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضل على الناس في الأواء والنعم

ولعل الناظم يعنى هذين البيتين .

(٣) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « فروعهم » .

(٤) الروح : موضع الفزع من القلب .

(٥) كذا في (ت) ونفع الطيب . وفي (ط) : « الأطراء » .

(٦) الندس (كعضد وكثف وسهم) : الفطن الفهم . ويقرطس الغرض : يصيبه .

(٧) أبو حسون : هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى بن زيان الوطاسي ،

يُعرف بأبي حسون الباذسي ، بويج بناس أول مرة سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة . (انظر بقية أخباره في الاستقصا للسلوى) .

هَذَا كُمْ ابْنُ أَبِي زَكَرَى ^(١) الْهَامُ فَقُلْ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ حَقًّا فِي خَلِيقَتِهِ
 مَهْمَا تُنَزِّقَ سِمَاتُ ^(٣) مِنْهُ نَيْرَةٌ
 فَوَجْهَهُ بِدُجَى وَكَفَّهُ بِجَدًّا
 وَفَضْلُهُ وَلَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ جَرَى
 وَجُودُهُ الْمُتَسَوِّلَى لِلْبَرِيَّةِ مَا
 إِذَا ابْتَغَتْ نِعْمًا مِنْهُ الْعُقَاةُ لَهُ
 وَإِنْ يُعْبَسُ زَمَانٌ فِي وُجُوهِهِمْ
 وَجْهَهُ تَبِينُ سِمَاتُ الْمَكْرُمَاتِ بِهِ
 وَرَاحَةٌ لَمْ تَزَلْ فِي كُلِّ آوِنَةٍ
 لِلَّهِ مَا التَّزَمْتُهُ مِنْ نَوَاقِلِهِ
 أَنْسَى الْخِلَافَ فِي حِلْمٍ وَفِي شَرَفٍ
 فَجَازَ مَعْتَمِدًا مِنْهُمْ وَمُعْتَضِدًا
 وَنَاصِرَ الدِّينِ فِي الْإِقْبَالِ فَاقٌ وَفِي
 فِي أَصْلِهِ الْمُنْتَقَى مِنْ مَجْدِهِ الْعَمَّ ^(٢)
 كُنَائِبُ نَابٍ فِي حَكْمٍ عَنِ الْحَكَمِ
 تُنِيلُ بَنَانٌ لَهُ مَا جَلُّ مِنْ نِعَمٍ ^(٤)
 أَبْهَى مِنَ الزَّهْرِ أَوْ أَثْلَى مِنَ الدِّيمِ ^(٥)
 كَجَرَى الْأَمْثَالِ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأُمَمِ
 وَجُودُهُ بَيْنَهَا طَرًّا بِمَنْهَدِمِ
 لَمْ يَسْمَعُوا كَلِمَةً مِنْهُ سِوَى نَعَمٍ
 لَمْ يُبْصِرُوا غَيْرَ وَجْهِهِ مِنْهُ مُبْتَسِمِ
 كَمَا تَبَيَّنَ سِمَاتُ الصَّدَقِ فِي الْكَلِمِ
 فِي ^(٦) نَيْلِهَا رَاحَةُ الشَّاكِيِّ مِنَ الْعُدْمِ
 أَيَّامَ لَا قَرْضَ مَفْرُوضٌ بِمِلْتَزَمِ
 وَفِي سَخَاءٍ وَفِي عِلْمٍ وَفِي فَهْمِ
 وَامْتِازَ عَنْ قَائِمٍ مِنْهُمْ وَمُعْتَصِمِ
 مَحَبَّةِ الْعِلْمِ أَزْرَى بِابْنِهِ الْحَكَمِ

(١) زكري : يريد زكرياء وفيه لغات ، منها زكري (كعربي) - بتشديد الياء وتخفيفها ،
 وبهذه الرواية الأخيرة جاء هنا مع إسكان الكاف ، ليستقيم الوزن .

(٢) العمم : التام (٣) رواية هذا البيت في (ط) :

مهما نشم نسيمات منه نيرة تنل بنازله ما جل من نعم

(٤) قسمات الوجه : ما أقبل منه ، أو محاسنه .

(٥) الجدا : العطاء . والديم : جمع ديمة ، وهي مطر يدوم أياماً .

(٦) كذا في (ط) ونفع الطيب . وفي (ت) : « من » .

أفعال أعدائه معتلة أبدا
فويل أهل القلا من حية ذكر^(٢)
راموا عداوة من إن شاء غادرهم
فسوف يأكلهم من جيشه لجب^(٣)
وإن الأعراب إذ ساروا لغابته
وهم كما قاله ماض : أرى قدمي
فقل إذن للمناوي الناري الآن الأذى
له صوارم لو ناجتك ألسنها
وإن روحك عن قرب سيقبضه
فهو الذي ما له ند يشابهه
يُدبر الأمر تدبيراً يخلصه

متى^(١) يرم جزمها بالحذف تنجزم
(الملتب^(٣)) { اللهم المجر ملتقم^(٤)
مثل الأحاديث عن عاد وعن إرم
بكل قرم إلى لخمانيهم قرم^(٥)
لسائرون إلى لقم على لقم^(٦)
بسعيه نحو حتفي قد أراق دمي^(٧)
ياغبر^(٨) غرك ما أبصرت في الحلم
لبشرك بغير منك منصرم
قبض المسلم ما قد حاز من سلم^(٩)
من كل متصف بالدقي^(١٠) متسيم
مما عسى أن يرى فيه من الوهم

-
- (١) كذا في (ت) ونفع الطيب . وفي (ط) : « حتى » . (٢) حية ذكر : شهم .
(٣) كذا في نفع الطيب ، ويريد بالملتب : الجيش المتمد . وفي (ت) : « الملتب ، وهو تحريف . وسقطت هذه الكلمة من (ط) . (٤) اللهم والمجر : هما بمعنى الجيش العظيم .
(٥) اللجب الجيش الكثير ، والقرم : السيد . واللحمان : جمع لحم . وقرم (ككتف) : شديد الشهوة لأكل اللحم .
(٦) كذا في (ت) ونفع الطيب . واللقم : الأكل ، ويريد به الافتراس ، واللقم - بالتحريك - : وسط الطريق . وفي (ط) : « ... نعم على لقم » .
(٧) يشير إلى قول أبي الفتح البستي :
إلى حتفي سعى قدمي أرى قدمي أراق دمي
(٨) كذا في (ت) ونفع الطيب . وفي (ط) : « يغر » .
(٩) المسلم : السلف ، الذي يعطى ذهباً أو فضة على سلعة معلومة إلى أجل معلوم . والسلم : البيع المبيع المزجل قبضه .
(١٠) الدهى والدهاء : الفكر وجودة الرأي .

وَيُبْصِرُ الْغَيْبَ لِحَظِ الذَّهْنِ مِنْهُ إِذَا
وَيُنْعِمُ^(١) النَّظَرَ الْمُنْفِصِي بِنَظَرِهِ
ذُو مَنْطِقٍ لَمْ تَنْزِلْ تَجَلِسُوا نَتَائِجُهُ
وَمِسْمَعٍ لَيْسَ يُصْغِي لِلْوُشَاةِ فَلَمْ
فَعَقَلَهُ لَا تَوَازِيهِ الْعُقُولُ وَهَلْ
إِيَّاهُ جَمِيعَ الْوَرَى مِنْ بَدْرِ أَوْ خَضِرٍ
شُدُّوا وَجَسَّدُوا وَلَا تَعْنُوا وَلَا تَهْنُوا
هَذَا الْأَمِيرُ^(٦) الْمَرِينِيُّ السَّعِيدُ لَهُ
قَدْ أَقْسَمَتْ أَنَّهُ الْمَنْصُورُ أَلْسِنَةُ
قَشِيعَوِهِ وَوَالُوهُ تَرَوُا عَجَبًا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَبْقَى خِلَافَتَهُ
حِرْزَ حَرِيرِزٍ وَعِزَّ قَائِمٍ وَنَدَى

تَعْمَى عَنِ ادِّرَاكِهِ الْحَاضِرِ كُلِّ عَمٍ
لَصُوبٍ وَجْهٍ صَوَابٍ وَاضِحٍ اللَّقْمِ^(٢)
عَنِ مُبْطِلٍ بِخِصَامِ الْمُبْطِلِ الْخَصِمِ^(٣)
يَنْفَقُ لَدَيْهِ الَّذِي عَنْهُمْ إِلَيْهِ نَمِي^(٤)
يَوَازِنُ الطُّودَ مَا قَدْ طَالَ مِنْ أَكْمٍ
نِدَاءٍ مُرْتَبِطٍ بِالنُّصْحِ مُرْتَسِمٍ
قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِالسَّوَاكَةِ الْخُطَمِ^(٥)
سَعْدٌ يُوَيِّدُهُ فِي كُلِّ مُصْطَلَمٍ
مَنْ نُخْبِئُهُ الْأَوَّلِيَا مَبْرُورَةُ الْقَسَمِ
وَتَظْفَرُوا مَعَهُ بِالْأَجْرِ وَالْغَنَمِ^(٧)
كَهْفًا لَنَا مَنْ يُخَيِّمُ فِيهِ لَمْ يُرَمِ^(٨)
غَمْرٌ دِرَاكٌ بِلَا مَنْ وَلَا سَامَ^(٩)

-
- (١) كَذَا فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ . وَإِنْعَامِ النَّظَرِ : تَدْقِيقُهُ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ : يَمَعْنُ ، وَهُوَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ الْجَرِّ . يُقَالُ : أَمَعْنُ فِي الْأَمْرِ ، أَيُّ أَبْعَدُ فِيهِ . (٢) اللَّقْمُ (كَسْبٌ) : وَسْطُ الطَّرِيقِ . (٣) الْخَصِمُ (كَكَتَفَ) : الْمَجْدَلُ الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ . يُرِيدُ أَنَّهُ يَبْطُلُ حُجُجُ خَصْمِهِ بِقُوَّةِ بَيَانِهِ . (٤) يَنْفَقُ : يَرْجُو . وَفِي إِلَيْهِ : وَصَلَ إِلَيْهِ . (٥) لَا تَعْنُوا : لَا تَخْضَعُوا وَتَذَلُّوا . وَلَا تَهْنُوا : لَا تَضَعُفُوا . وَلَفَّهَا : جَمَعَهَا ، وَالضَّمِيرُ فِي الْأَصْلِ لِلْأَيْلِ ، وَالسَّوَاكَةُ : السَّوَاكُ ، وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ . وَالْخُطَمُ : الشَّدِيدُ السُّوقِ ، وَهَذَا مِثْلُ . يُرِيدُ أَنْ مَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ - وَهُوَ الْمَدْدُوحُ - رَجُلٌ قَوِيٌّ شَدِيدٌ . (٦) فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : « لِلْإِمَامِ » . (٧) شَيْعَوُهُ : نَاصِرُوهُ . وَالْغَنَمُ - بِالتَّحْرِيكِ - : الْمَغْنَمُ ، كَالْغَنَمِ - بِالضَّمِّ . (٨) لَمْ يُرَمِ : أَيُّ يَعْزُ عَلَى مَنْ يَطْلُبُهُ . (٩) غَمْرٌ : كَثِيرٌ . وَدِرَاكٌ : مُتَتَابِعٌ مُتَلَاحِقٌ .

دامت ودام لها سَعْد يساعدها
 فالله - عز اسمه - قد زانها بحلى
 الواهب الألف بعد الألف من ذهب
 والفاعلُ الفعل لم يهتم به أحد
 ذاكم هو الشيخ فاعجب إنه هَرَمٌ (٤)
 وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت
 فما مُحالِفَه يوماً بمضطهدٍ
 ولا موافيه فى جهْدٍ بمطرحٍ
 ولا مُحَيَّا مُحَيَّيه بمنكشِفٍ
 وما (٧) تَكْرُمه سِرًّا (٨) بْمُنْكَشِفٍ
 وليس لامِحٌ مَرآه بمكتتبٍ
 ولا مُقْبَلٌ يُمناه الكريمة فى
 وما وسيلتنا العظمى إليه سوى
 وإنما هى وَمَا أدراك ما هى مِنْ

فى كل مُبتدأ منه (١) ومختَم
 من غُرٍّ أمداحه كالدُر فى النُّظْم (٢)
 كالجَمْر يلمع فى مُستوقد الضَّرَم (٣)
 والقائل القول فيه حكمة الحِكم
 جوداً وحاشاه أن يُعزى إلى هَرَم (٥)
 من حبله بوثق غير مُنْقَصِم
 ولا مُؤالَفَه يوماً بمهتَضَم
 ولا مُصافيه فى ودٍّ بمُتَّهَم
 ولا رجاء مُرجَّيه بمنخَرَم (٦)
 ولا تنكُّره جهراً بمُكْتَتَم
 وليس راضع جَدواه بمنقَطَم
 محلُّ مُمتَهَن بل دَسْتِ مُحْتَرَم (٩)
 ما ليس يُنكر ما فيها من العِظَم
 وسيلة رُدُّها أدهى مِنَ الرُّضَم (١٠)

(١) فى نفع الطيب طبعة أوربا : « منها » .

(٢) النظم : جمع نظام ، وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه .

(٣) فى (ط) : « الظلم » .

(٤) يريد أن المدوح مثل هَرَم بن سنان ، بمدوح زهير بن أبى سلمى ، المزنى .

(٥) فى نفع الطيب طبعة أوربا : « الهرم » . (٦) بمنخرم : أى بمنقطع .

(٧) فى نفع الطيب (طبعته أوربا ومصر) : « ولا » . (٨) فى (ط) : « يوماً » .

(٩) يريد بالدست : المكان الكريم ، مأخوذ من دست البيت ، وهو صدره .

(١٠) كذا فى (ط) . والرضم : صخور عظام . وفى (ت) : « الوخم » .

نبينا المصطفى الهادي بخير هدى محمد خير خلق الله كلهم
داعى الورى من أولى خيم وأهل قرى إلى طريق رشاد لاجب أمم (١)
عليه منا صلاة الله ما ذكرت « أمن تذكر جيران بذي سلم » (٢)
وما تشفع فيها بالشفيع له دخیل حرمة العليا في الحرم (٣)

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من
الخاسرين ﴾ (٤) ، ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين ﴾ (٥) ، ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك
المصير ﴾ (٦) ، ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين
لا مولى لهم ﴾ (٧) ، ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ (٨) .

أما بعد حمد الله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، الذي طلع الفجر بل البدر فلاح ، يدعو إلى
سبيل كل فلاح ، أولى قلوب غافلة ، ونفوس سواه ، والرضا عن آله وأصحابه ،
وعترته الأكرمين وأحزابه ، الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ،
وعزوزه ونصروه في حالي قرينه ونواه .

فيا مولانا ، الذي أولانا من النعم ما أولانا ، لا خط الله تعالى لكم من
العزة رواقاً (٩) ، ولا أذوى لدوحة (١٠) دولتكم أغصانا ولا أوراقا ، ولا زالت
مخضرة العود ، { مبتسمة } (١١) عن زهرات البشائر متحفة بشمرات السعود ،
مطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق (١٢) ولا رعود :

(١) أهل خيم : أى ساكنى الخيام . واللاحب : الواضح . والأمم : البين . وقد ورد الشطر الأول
من هذا البيت في (ط) هكذا : « داعى الورى من أولى من أهل خيم قرى » .
(٢) هذا الشطر مطلع قصيدة البردة المشهورة للبوصيرى في مدح الرسول ﷺ .
(٣) الدخیل : اللاجىء . والحرمة : الذمة .

(٤) الأعراف : ٢٣ (٥) الأعراف : ١٥٥ (٦) المتحنة : ٤

(٧) محمد : ١١ (٨) الأنفال : ٤

(٩) الرواق : الخيمة ، يدعو له بدوام ارتفاع المنزلة .

(١٠) الدوحة : الشجرة الواسعة الظلال ، وأذوى : أذبل وأضعف .

(١١) الزيادة عن (ت) ، ونفع الطيب . (١٢) في (ت) ونفع الطيب : « برق » .

هذا مقام العائد بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج (١) اللسان عند محاولة (٢) مفاتحة كلامكم ، وماذا الذى يقول من وجهه خجل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل ، بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترأى عليه أكثر ، واجترأى (٣) إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مُستقيل (٤) مُستنيل (٥) مستعيب (٦) مستغفر ، ﴿ وَمَا أَبْرِئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٧) . هذا على طريق التنزل والاتصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف ، وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق (٨) : « والله إنى لأعلم أنى إن أقرت بما يقوله الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة (٩) ، لأقولن (١٠) ما لم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوننى ، فأقول ما قاله يوسف (١١) : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٢) .

على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى ، فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكو عجرى ويجرى (١٣) ، وسقطاتى وغلطاتى . نعم ، كل شىء ولا ما يقوله المتقول . المشنع المهورل ، الناطق بقم الشيطان المسؤل . ومن أمثالهم : « سبئى واصدق » ، ولا تفتّر ولا تخلّق ، فمثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل (١٤) من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويخبط

(١) فى (ط) : « والمتلجلج » .

(٢) كذا فى (ط) ونفع الطيب . وفى (ت) : « عن مفاتحة » .

(٣) اجترأى : ذنبى (٤) مستقيل : طالب الإقالة من العثرة .

(٥) مستنيل : طالب النوال . (٦) مستعيب : طالب العتبى ، وهى الرضا .

(٧) يوسف : ٥٣ (٨) يريد أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق .

(٩) كذا فى نفع الطيب وسيرة ابن هشام . وفى الأصلين : « برىء » .

(١٠) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى نفع الطيب و (ط) : « لأقول » . وفى (ت) :

« لا أقول » .

(١١) تريد سيدنا يعقوب عليه السلام . (١٢) يوسف : ١٨

(١٣) العجر والبجر (هنا) : العيوب والأحزان وما يبدى المرء وما يخفى . والعجر (فى

الأصل) : العروق المتعقدة الناتئة ، والبجر : ما تعقد منها على البطن خاصة .

(١٤) فى (ط) ونفع الطيب : « ويحمل » .

أَعْمَالُهَا ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ خُسْرَانِ الدِّينِ ، وَإِثَارِ الْجَاهِدِينَ وَالْمُعْتَدِينَ ، قَدْ ضَلَلْتُ
إِذَنْ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . وَإِيْمُ اللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ شَعْرَةً فِي قَوْدَى ^(١) تَمِيلُ إِلَى
الْجَهَةِ لَقَلَعْتُهَا ، بَلْ لَقَطَفْتُ ^(٢) مَا تَحْتَ عِمَامَتِي مِنْ هَامَتِي وَقَطَعْتُهَا ، غَيْرَ أَنْ
الرُّعَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانَ ، لِلْمَلِكِ أَعْدَاءٌ وَعَلَيْهِ أَحْزَابٌ وَأَعْوَانٌ ، كَانَ أَحْمَقُ
وَأَجْهَلُ مِنْ ابْنِ ثُرَوَانَ ^(٣) ، أَوْ أَعْقَلَ وَأَعْلَمُ مِنْ أَشَجُّ بْنِ مِرْوَانَ ^(٤) ، وَرُبُّ
مُتَّهَمٍ بَرِيٍّ ، وَمُسْرِيلٌ بِسَرِيَالٍ وَهُوَ مِنْهُ عَرِيٌّ ^(٥) ، وَفِي الْأَحَادِيثِ صَحِيحٌ وَسَقِيمٌ ،
وَمِنَ التَّرَاكِيِبِ الْمُنْطَقِيَّةِ مُنْتَجِعٌ وَعَقِيمٌ ، وَلَكِنْ ثَمُّ مِيزَانِ عَقْلِ ، تُعْتَبَرُ بِهِ أَوْزَانُ
النَّقْلِ ، وَعَلَى الرَّاجِعِ الْإِعْتِمَادُ ^(٦) ، ثُمَّ إِشَاعَةُ الْإِحْمَادِ ، الْمُتَّصِلُ الْمُتَّعَدُ ،
وَالْمَرْجُوحُ الْإِطْرَاحُ ، ثُمَّ الذَّمُّ الصُّرَاحُ ، بَعْدَ النَفْضِ ^(٧) مِنَ الرَّاحِ ، وَأَكْثَرُ مَا تَسْمَعُهُ
الْكُذْبُ ، وَطَبِيعُ جَمْهُورِ الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ ^(٨) إِلَيْهِ مَنْجَذِبٌ ، وَلَقَدْ قُذِفْنَا
مِنَ الْأَبَاطِيلِ بِأَحْجَارٍ ، وَرُمِينَا بِمَا لَا يُرْمَى ^(٩) بِهِ الْكُفَّارُ ، فَضْلًا عَنِ الْفُجَّارِ ،
وَجَرَى مِنَ الْأَمْرِ الْمُنْقُولِ عَلَى لِسَانِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو ، مَا لَكُمْ مِنْهُ حِفْظُ الْجَبَّارِ ^(١٠) .

-
- (١) كَذَا فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ ، وَفِي الْأَصْلَيْنِ : « مِنْ قَوَادِي » .
(٢) كَذَا فِي (ط) . وَالْقَطْفُ : الْقَطْعُ . وَفِي (ت) : « بَلْ لَقَلَعْتُ » ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ .
(٣) كَذَا فِي أَخْبَارِ الْحَمَقِيِّ وَالْمَغْفَلِينَ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ، وَالْمُضَافُ وَالْمَنْسُوبُ لِلتَّعَالِيِّ . وَهُوَ هَيْئَةُ
الْقَيْسِيِّ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ ، الْمَعْرُوفُ بِذِي الْوَدَعَاتِ ، وَهُوَ مِثْلُ فِي الْحَقِّ وَالْجَهْلِ . وَفِي (ط) :
« مِنْ أَبِي ثُرَوَانَ » . وَفِي (ت) : « مِنْ أَبِي ثُرَوَانَ » . وَكِلَاهُمَا تَحْرِيفٌ .
(٤) أَشَجُّ بْنُ مِرْوَانَ : هُوَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، لِأَنَّهُ كَانَتْ بِهِ شَجَّةٌ .
(٥) كَذَا فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ : « وَمُسْرِيلٌ بِسَرِيَالٍ عَارٍ وَهُوَ مِنْهُ عَرِيٌّ » .
(٦) كَذَا فِي (ت) وَنَفْعِ الطَّيِّبِ . وَفِي (ط) : « وَعَلَى الرَّاجِعِ عَلَى الْإِعْتِمَادِ » .
(٧) فِي (ت) : « النِّفَاضُ » . (٨) فِي (ط) : « إِلَّا مَنْ عَظَّمَ اللَّهُ » .
(٩) فِي (ت) : « بِمَا لَمْ يَرْمَ » .
(١٠) كَذَا فِي (ت) . وَرَوَايَةُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي (ط) : « وَجَرَى ... وَعَمْرٍو مَا يَرِيكُمْ مِنْهُ
حِفْظُ الْجَارِ » . وَفِي نَفْعِ الطَّيِّبِ : « وَجَرَى ... وَعَمْرٍو مَا لَدَيْكُمْ مِنْهُ خَطُّ الْجَارِ » ، وَظَاهَرُ أَنَّهَا
مَعْرِفَتَانِ عَمَّا أُثْبِتْنَاهُ .

وإذا عظم الإنكاء (١) ، فعلى تُكَاة التجلُد الاتكاء ، أكثر المكثرون ، وجهَد (٢)
 فى تعشيرنا المتعشرون ، ورمونا عن قوس واحد ، ونظمونا فى سلك الملاحده ،
 أكفراً أيضاً كُفراً ، غَفراً اللهم غَفراً ، أعدْ نظراً يا عبد قيس ، فليس الأمر على
 ما خِيل (٣) لك ليس ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ، ممن رام محقه ومحققنا ؟
 فطاردنا فى سبيله عداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق ، لم يمكننا
 له رتق ، وما كنا للغيب حافظين .

وبعد ، فاسأل أهل الحل والعقد ، والتمييز والنقد ، فعند جهينتهم تلقى
 الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يؤثمننا فيوثقنا ، أو يبرئنا فيقينا . إيه يا من
 اشْرأبُ إلى ملامنا ، وقَدَح حتى فى إسلامنا ، رويداً رويداً ، فقد وجدت قوة
 وأيداً ، ويحك ، إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء إلينا ، لأن الزمان لنا
 مُصغِر ، ولك مُكَبِّر ، والأمر عليك مُقْبِل ، وعَنَّا (٤) مُدْبِر ، كما قاله كاتب
 الحجاج المدبر (٥) .

وعلى الجملة ، فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلاً ، وذهبنا فأقررنا بالخطأ
 فى كل وردٍ وصدر ، فله دَرُّ القائل :

* إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القَدَرُ * (٦)

(١) كذا فى (ت) ونفع الطيب . والإنكاء : شدة النيل من العدو . وفى (ط) : « وإذا علم
 الإنكار » . (٢) فى (ط) : « وجهر » .

(٣) كذا فى (ت) ونفع الطيب . وفى (ط) : « ما خيلت لك » .

(٤) فى (ت) : « وعلينا » وهو تحريف .

(٥) كاتب الحجاج : هو يزيد بن أبى مسلم . يشير إلى رد يزيد على سليمان بن عبد الملك حين
 دخل عليه فتتقصه سليمان وسب الحجاج : « إنك رأيتنى والأمر عن مدبر ، ولو رأيتنى والأمر على
 مقبل استعظمت من أمرى ما استصغرت » (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ طبعة
 الفتوح سنة ١٣٣٢ هـ) .

(٦) هذا عجز بيت لأبى العتاهية ، صدره : « هي المقادير فلمنى أو قدر » .

وكأنّا (١) بـمعتسف (٢) إذا وصل إلى هنا ، وعدم إنصافه يعلمه الهنا (٣) ،
قد ازور متجانفاً (٤) ، ثم افتر متهانفاً (٥) ، وجعل يتمثل بقولهم : « إذا
غيروا قالوا مقادير قُدرت »

ويقولهم : « المرء يعجز لا محالة » (٦) ، فيعارض الحق بالباطل ،
والحالى بالعاطل ، وينزع بقول القائل : « رَبِّ (٧) مُسْمِعِ هَاتِل ، وليس تحته من
طائل » (٨) . وقد فرغنا أول أمس (٩) من جوابه ، وتركنا الضغن يلصق حرارة
الجوى به ، وسئلُم (١٠) الآن بما يوسعُه تسكيتا ، ويقطعه تبكيتا . فنقول له :
ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قطٌ وعرض ، خروج أمر ما على القصد منك
فيه والغرض ، مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك ، في وقوعه على وفق
اقتراحك ومُرادك ؟ أو جميع ما ترواله بإدارتك ، لا يقع إلا مطابقاً لإرادتك ؟
أو كل ما تقصده وتنويه ، تُحرزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بُدَّ أن يُقر اضطرارا ،
بأن مطلوبه يشدُّ عنه مرارا ، بل كثيراً ما يُفلت صيده من أشراكه ، ويطلبه
فيعجز عن إدراكه ، فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل ، أيها النبيه النبيل ،

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « وكان » .

(٢) في (ت) : « بـمعتسف » .

(٣) يريد بالهنا : جمع هنة ، وهي العيب . والذي في كتب اللغة أنها تُجمع على هنات وهنات .

(٤) ازور متجانفاً : مال متباعداً .

(٥) كذا في (ط) ونفع الطيب . وافتر متهانفاً : أى فتح فاه ضاحكاً مستهزئاً . وفي (ت) :

« متهانفاً » وهو تصحيف . (٦) في (ط) : « لا المحالة » .

(٧) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « ذى » ، وهو تحريف .

(٨) كذا في (ط) . وفي (ت) : « وليس من تحته من طائل » . وفي نفع الطيب :

« وليس تحته طائل » .

(٩) أول أمس : أى بكرته ومبتدأه . والمسموع من العرب عند إرادة اليوم السابق لأمسك :

« أول من أمس » .

(١٠) كذا في (ت) ونفع الطيب . وفي (ط) : « ونسلم » ، وهو تحريف .

ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شينا ، مما يُسائرنا في غرضنا منه ويماشينا ، كقوله ﷺ : « كل شيء بقضاء وقدر حتى العَجَز والكَيْس » . وقوله أيضاً : « لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض على أن ينفعوك بشيء ، لم يقض الله لك ، لم يقدرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يقض الله عليك ، لم يقدرُوا عليه » (١) ، أو كما قال ﷺ . فأخلق به أن يلوذ بأكناف الإحجام ، ويَزِمَّ على نَفْثَةٍ فيه كأنما ألجم بإلجام ، حينئذ نقول له ، والحق قد أبان وجهه وجلّاه ، وقهره بحجته وعَلَاهُ : ليس لك من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله . وفي حاجة آدم موسى (٢) ما يقطع لسان الخصم ، ويرحض (٣) عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَن الوَصْم ، وكيفما كانت الحال ، وإن أساء الرأي والانتحال ، ووقعنا في أوجال وأوحوال ، فثُلْ عَرُشُنا ، وطويت قُرُشُنا ، ونكس لواؤُنا ، ومُلِك مَثوانا ، فنحن مثلُ مَنْ سِوانا ، وفي الشر خيار ، ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار (٤) ، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفًا ، ولا عَدَمنا (٥) أدوات أدعية تعطف بلا مُهْلَةٍ على جُمْلَتنا المقطوعة جُمْلَ النعم الموصولة عَطفاً ، وإلا فتلک بغداد دار السلام ، ومُتَبَوِّأ الإسلام ، المحفوفُ بفرسان السيوف والأقلام ، مثابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفضلاء

(١) الذي في الأربعين النووية : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » .

(٢) راجع صحيح البخاري في تفسير قوله تعالى : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » .

(طه : ١١٧)

(٣) كذا في (ط) ونفع الطيب . ويرحض : يغسل . وفي (ت) : « يدحض » ، وهو تحريف .

(٤) يريد بالأغيار : تقلبات الدهر وأحداثه .

(٥) في (ت) : « ولعدمنا » ، وهو تحريف .

أولى السير الأوتسية (١) ، والعقول الإياسية (٢) ، وقد نُوزِلت بالجيش ونُزِلت ، وزُوولت بالزُحوف (٣) وزُلُزِلت ، وتَحَيَّفَ (٤) جوائِبها الحَيِّف ، ودخلها كِفار التُّتار { عَنوة } (٥) بالسيف ، ولا تسل إذ ذاك عن كيف ، أيام تجلّت عروس المنية ، كاشفة عن ساقها مُبْدِيه ، وجرت الدماء فى الشوارع والطرق { كالأنهار } (٦) والأودية ، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والأردية ، وللتنجيع (٧) سيول ، تخوضها الخيول ، فتخضبها إلى أرساغها ، وتَهْمُ ظماؤها بوردها ، فتتكل عن تجرعها ومساغها ، فطاح عاصمها ومستعصمها ، وراح ولم يَغْد ظالمها ومتظلمها ، وخرت مساجدها وديارها ، واصطلم (٨) بالحسام أشرارها وخيارها ، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبما عرفت أو حسبما تعرف ، فلا تكن مُتشككاً متوقفاً ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند مؤرخين من قفا (٩) ، فأين تلك الجحافل ، والآراء المدارة فى المحافل ، حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر ، لم تُجد ولا قلامة ظفر ، إذن فَمَنْ سَلِمَتْ له نفسه التى هى رأس ماله ، وعباله وأطفاله ، اللذان هما من أعظم آماله ، وكلُّ أو جُلُّ أو أَقَلُّ ريشه ، وأسباب معاشه ، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ، ثم وَجَد مع ذلك سبيلاً إلى الخلاص ، فى حال مُياسرة ومساهلة ، دون تصعب واعتياص (١٠) ، بعد ما ظن كل الظن أن

(١) الأوتسية : نسبة إلى أوتيس بن عامر القرنى ، وهو من سادات التابعين زهداً وعبادة ، وقد قُتِلَ بصفين .

(٢) الإياسية : نسبة إلى إياس بن معاوية ، قاضى البصرة فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان معروفاً بشدة زكاته ، وحسن قضاته ، وقوة جنانه ، وفصاحة لسانه .

(٣) كذا فى (ط) ونفع الطيب ، وفى (ت) : « بالزحاف » .

(٤) تحييف : تنقصه . (٥) ، (٦) زيادة عن (ت) ونفع الطيب .

(٧) النجيع : الدم الأحمر . (٨) اصطلم : استوصل .

(٩) يشير إلى المثل المضروب : « أشهر من ففا نيك » . وهى مطولة امرىء القيس المشهورة .

(١٠) اعتناص الأمر عليه : اشتد والتاث ، فلم يهتد للصواب .

لا مَحِيدَ ولا مَنَاصَ ، فما أَحَقُّه حينئذ وأولاه ، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه ،
على ما أسداه إليه من رِفْدِه وخيرِه ، ومعافاته مما ابتلى به كثير من غيره ،
وَيَرْضَى بكل إيراد وإصدار ، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر
عَدَّارٌ ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ، والقضاء لا يُرَدُّ ، ولا يُصَدُّ ، ولا يغالب ،
ولا يُطالب ، والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيعٌ
لا مُطَاعٌ ، وليس يُطَاع إلا المُسْتَطَاع ، وللخالق القدير جلَّت قدرته في خليقته علم
غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع ، ومالى والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا
القول ، بين يدي ذى الجلالة والمجادة والفضل والطول ، فله من العقل الأرجح ،
ومن الخلق الأسجح ، ما لا تَلْتَأَطُ ^(١) معه تهمنى بصَفَرِه ^(٢) ، ولا تَنفُقُ عنده
وشاية الواشى ، لا عُدُّ من نَقَرِه ، ولا فاز قِدْحُه بظَفَرِه ، والمولى يعلم أن الدنيا
تلعب باللاعب ، وتجرُّ براحتها إلى المتاعب ، وقديماً للأكياس من الناس خَدَعَتْ ،
وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ، وفعلت بهم ما فعلت ، بيسار
الكواعب التى جَبَّتْ وجَدَعَتْ ^(٣) . ولئن رَهَصَتْ وهَصَرَتْ ^(٤) ، فقد نبهت
وبَصَرَتْ ، ولئن قَرُعَتْ ومَعُضَتْ ^(٥) ، فقد أرشَدَتْ ووعَظَتْ ، وبأ ويلنا من
تَنَكَّرْها لنا بمره ، ورميها لنا فى غَمرة أى غَمَرِه ، أيام ^(٦) قَلَبَتْ لنا ظَهَرَ المَجَنِّ ،
وغَيَّمْ أفاقها المَصْحَى وأدَجَّن ^(٧) ، فسَرَّعان ما عايناً حبالها مُنْبَتَّةً ، ورأينا منها
ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بفته ، فَمَنْ استعاذ من شىء ، فليستعذ بما
صَرَّنا ^(٨) إليه ، من الحَوَرِ بعد الكَوَرِ ^(٩) ، والانحطاط من التَّجْدِ إلى الغور :

(١) تلتأت : تلتصق . (٢) الصفر - بالتحريك - : اللب والعقل .

(٣) الجب والجدع : القطع . يشير بهذه العبارة إلى حادثة عبد يدعى يساراً راود بنت مولاه عن
نفسها ، فجبت مذاكيره (انظر كتاب المضاف والمنسوب للثعالبي) .

(٤) الرهص والهصر : العصر والأخذ الشديد .

(٥) معضت : أغضبت . (٦) فى (ط) : « وإن قلبت » .

(٧) أدجن : أظلم . (٨) فى (ت) : « سرنا » .

(٩) الحور : النقص . والكور : الزيادة .

فبينما نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرَ أَمَرْنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ (١)
فَأَفْ لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ثَقَلُ تَارَاتِ بِنَا وَتَصَرَّفُ
وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا ، وجرعتنا من صاب (٢) الأَوْصَابِ كَأْساً دَهَاقاً (٣) ،
ولم نفرز إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المتفتح حين سُدَّتِ الأبواب ، ولم نلبس
غير لباس نَعْمَائِكُمْ حين خَلَعْنَا مَا أَلْبَسَنَا الْمَلِكُ مِنَ الْأَثْوَابِ ، وإلى أمه يلجأ
الطفل لجأ اللَّهْفَانِ ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الْأَجْفَانِ (٤) ، ووجه الله
تعالى يبقى ، وكلُّ من عليها فان ، وإلى هنا ينتهى القائل ثم يقول : حسبى
هذا (٥) وكفان ، ولا ريب من اشتغال العلم الكريم ، على ما تعارفته الملوك
بينها فى الحديث والقديم ، من الأخذ باليد عند زَلَّةِ الْقَدَمِ ، وقَرَعِ الْأَسْنَانِ وعَضِ
البنان من النَّدَمِ ، دينا به تَدَيَّنْتَ حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة اطَّردت فيهم
على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عَرَضَ علينا صاحب قَسْتَالَةِ مواضع معتبرة ، خير فيها وأعطى من أمانه ،
المؤكد فيه خَطُّهُ بِإِيمَانِهِ ، ما يقنع النفوس ويكفيها . فلم نر ، ونحن من سلالة
الأحمر ، مجاورة الصُّفْرِ ، ولا سَوْغٌ لَنَا الْإِيمَانَ الْإِقَامَةَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْكُفْرِ ،
ما وجدنا على ذلك مَنْدُوحَةً ولو شاسعه ، وأمنا من المطالب المشاغِبِ حُمَةً شَرُّ لَنَا
لاسعه ، وادَّكَّرْنَا أَىْ أَدْكَارٍ ، قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنْكَرِ لَذَلِكَ غَايَةُ الْإِنْكَارِ :
﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِيعَةً ﴾ (٦) ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام ،

(١) نتنصف : نطلب النصفة ، وهى الإنصاف .

(٢) كذا فى (ط) ونفع الطيب . والصاب : عصارة شجر مر ، وفى (ت) : « كَأْس » .

(٣) دهاقا : مملوءة .

(٤) فى (ط) : « تمتاز السيوف فى الأجوان من الأجفان » . ويريد بالأجوان : جمع جون ، وهو الظلام .

(٥) كذا فى (ط) ونفع الطيب . وفى (ت) : « الله » .

(٦) النساء : ٩٧

المبالغ فى ذلك بأبلغ الكلام : « أنا برىء من مؤمن مع كافر لا تتراعى ناراها » (١) ، وقول الشاعر الحاث على حث المطيه ، المتشاقلة عن السير فى طريق منجاتها البَطِيَّة :

وَمَا أَنَا وَالتَّلْدُ نَحْوُ نَجْدٍ وَقَدْ غُصَّتْ تِهَامَةٌ بِالرُّجَالِ (٢)

ووصلت { أيضاً } (٣) إلينا ، من الشرق (٤) كتب كريمة المقاصد لدينا ، تستدعى الانحياز إلى تلك الجنبات (٥) ، وتبضين ما لا مزيد عليه من الرغبات ، فلم نختر إلا دارنا ، التى كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وُصِّلَ حبلنا ، وبريش نبله ريش نبُلنا : إِدْلالاً على محل إخاء متوارث لا عن كلاله ، وامتنالاً لوَصاةِ أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالةً وجلاله ، إذ قد رَوَيْنَا عن سلف من أسلافنا ، فى الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلاقنا ، ألا يَبْتَغُوا إِذَا دَهَمَهُمْ دَاهِمٌ بِالْحَضْرَةِ الْمُرِينِيَّةِ بَدَلًا ، ولا يجدوا عن طريقها فى التوجه إلى فريقها مَعْدَلًا : فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج ، وركبنا إلى البحر القرات ظهر البحر الأجاج ، فلا غَرَوُ أن نرد منه على ما يُقَرُّ العين ، ويشفى النفس الشاكية من ألم البين ، وَمَنْ تَوَصَّلَ هَذَا التَّوَصُّلُ ، وتَوَسَّلَ بِمِثْلِ ذَلِكَ التَّوَسُّلِ ، تَطَارَحًا عَلَى سُدَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، المحارب للمحاربين ، والمؤمن للمستأمنين ، فهو الخلق الحقيق ، بأن يُسَوِّغَ أَصْفَى مَشَارِبِهِ ، وَيُبْلُغَ أَوْفَى مَآرِبِهِ ، على توالى الأيام والشهور والسنين ، وَيَخْلُصَ مِنَ الثُّبُورِ إِلَى الْحُبُورِ ، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ، ولعلَّ شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة

(١) نص هذا الحديث فى النهاية لابن الأثير ولسان العرب (مادة رأى) : « أنا برىء من كل مسلم مع مشرك » ، قيل : لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « لا تراعى ناراها » . أى لا يحل للمسلم أن يسكن بلاد المشركين ، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه .

(٢) التلد : التلفت . وفى الأصلين ونفع الطيب : « التلذذ » ، وهو تصحيف .

(٣) زيادة عن (ت) ونفع الطيب .

(٤) فى (ط) : « الشرق » . (٥) فى (ط) : « الجهات » .

قَبول إقباله تسرى إلينا ، فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول
الشريف الرضى فى الخليفة القادر :

عَطفاً أمير المؤمنين فإثنا فى دوحة العلياء لا نتفرقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوتُ أبداً كلانا فى المعالى مُعرقُ
إلا الخلافة ميزتك فإتنسى أنا عاطل منها وأنت مطوقُ

لا ، بل الأحرى بنا والأحجى ، والأنجح لسعيننا والأرجى ، أن نعدل عن هذا
المنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ،
وينشد ما قال فى الشيرازى ابن حجاج (١) :

الناس يَفقدونك اضطراراً منهم وأفديك باختيارى
وبعضهم فى جوار بعض وأنت حتى أموت جارى
فِعشٌ لِحُبزى وعش لمانى وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من المنان الوهاب تعالى وجلت أسماؤه ، وتعاضمت نعمائه ، رحمة
تجعل فى يد الهداية أعنتنا ، وعصمة تكون فى مواقف المخاوف جنتنا ، وقبولاً
يُعطف علينا ثوافر القلوب ، وصنعاً يُسنّى لنا كل مرغوب ومطلوب ، ونسأله ،
وطالما بلغ السائل سُؤلاً ومأمولاً ، متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً ،
ثم عزاءً حسناً وصبراً جميلاً ، عن أرض أورثها مَنْ شاء من عباده مُعقِباً لهم
ومُدبِلاً ، وسادلاً عليهم من سُتور الإملاء (٢) الطويلة سدولاً ، ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) . فليطر طائرُ
الوسواس المُرَقَرَفُ مطيراً ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، ولم نستطع عن
مورده صدوراً ، وكان أمرُ الله قَدراً مقدوراً .

(١) ابن حجاج : هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد الكاتب الشاعر . وهذه الأبيات من أبيات خمسة

قالها فى أبى الفضل الشيرازى (انظر يتيمة الدهر للثعالبي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان) .

(٢) الإملاء : الإمهال .

(٣) الفتح : ٢٣

ألا ، وإنَّ لله سُبْحانه فى مقامكم العلى الذى أَيْده وأعانه ، سرّاً من النصر ،
 يترجم عنه لسان من النُصْل ، وترجع فروع البشائر الصادقة ، بالفتوحات
 المتلاحقة ، من قاعدته المتأصلة إلى أصل ، فيمثله يجب اللبّاذ والعبّاذ ،
 ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ، ولأمر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا
 الله تعالى واستخرناه ، ومنه جلّ جلاله نرغب أن يَخِيرَ لنا ولجميع المسلمين
 ، وَيُؤْوِيَنَا ^(١) من حمايته ووقايته إلى مَعْقِلٍ مَنِيْعٍ ، وجناب ^(٢) [رفيع] ^(٣) ،
 آمين ، آمين ، آمين .

نرجو أن يكون ربُّنا ، الذى هو فى جميع الأمور حَسْبُنَا ، قد خَارَ لنا حيثُ
 أرشدنا وهدانا ، وساقنا توفيقه وحدانا ، إلى الاستجارة بِمَلِكٍ حَقِيٍّ ، كريمٍ وقِيٍّ ،
 أعزُّ جاراً من أبى دُواد ^(٤) ، وأحمى أنفأ من الحارث بن عُبَاد ^(٥) ، يشهد بذلك
 الدانى والقاصي والحاضر والباد ، إن أغاث ملكهوما فما الأسود بن قَنان ^(٦)
 يُذكر ، وإن أنعش حُشاشة هالك فما كعب بن مَامة على فعله وحَدّه ^(٧) يُشكر ،

(١) فى (ط) : « ويوردنا » . وفى نفع الطيب : « ويثوب بنا » .

(٢) هذه الكلمة : « وجناب » : ساقطة من (ت) . (٣) زيادة عن نفع الطيب .

(٤) أبو دواد : هو جارية بن الحجاج ، وقيل حنظلة بن الشرقى الإيادى . كان بعض الملوك
 أخافه ، فصار إلى بعض ملوك اليمن فأجاره وأحسن إليه ، فَضُرِبَ المثل بحسن هذا الجوار . وقيل
 غير ذلك . (انظر تفصيل ذلك فى الشعر والشعراء لابن قتيبة عند الكلام على ترجمة أبى دواد) .

(٥) يشير إلى حميد الحارث بن عباد البكرى فى الحرب بين بكر وتغلب حين بلغه قتل مهلهل
 بجيراً ابنه وقوله له : بؤ بشسع نعل كليب ، فنادى بالرحيل وقال فى قصيدته المعروفة :

« قُرْباً مَرِيطُ النعمامة منى لقحت حرب وائل عن حبالى »

(٦) لم نجد شيئاً عن الأسود بن قنان هذا فى المظان التى رجعنا إليها .

(٧) يشير إلى ما أثيرَ عن كعب بن مامة إِيادى من أنه أثرَ بنصيبه من الماء رفيقه النمري ،
 فمات عطشاً ، وَضُرِبَ به المثل فى الإيثار . (انظر الشعر والشعراء ص ١٢ . طبعة أوربا ،
 والمضاف والمنسوب للثعالبي) .

جَلِيسَه كَجَلِيسِ الْقَعْقَاعِ بْنِ شُورٍ ^(١) ، وَمُذَاكِرُهُ كَمُذَاكِرِ سَفْيَانَ ^(٢) الْمُنْتَسِبِ مِنَ الرِّيَابِ ^(٣) إِلَى ثُورٍ ، إِلَى التَّحْلِ بِأُمِّهَاتِ الْفَضَائِلِ ، الَّتِي أَضْدَادُهَا أُمِّهَاتُ الرِّذَائِلِ ، وَهِيَ الثَّلَاثُ : الْحِكْمَةُ ، وَالْعَدْلُ ، وَالْعِفَّةُ ، الَّتِي تَشْمَلُهَا الثَّلَاثُ : الْأَقْوَالُ ، وَالْأَفْعَالُ ، وَالشَّمَائِلُ ، وَيَنْشَأُ مِنْهَا مَا شَتَّى ^(٤) مِنْ عَزْمٍ وَحَزْمٍ ، وَعِلْمٍ وَحِلْمٍ ، وَتَيْقِظٌ وَتَحْفِظٌ ، وَاتِقَاءٌ وَارْتِقَاءٌ ، وَصَوْلٌ وَطَوْلٌ ، وَسَمَاحٌ وَنَائِلٌ ، فَبِنُورِ حِلَاةِ الْمَشْرِقِ ، يَفْتَخِرُ الْمَغْرِبُ عَلَى الْمَشْرِقِ ، وَبِمَحْتَدِهِ ^(٥) السَّامِيُّ خَطَرُهُ فِي الْأَخْطَارِ ، وَبَيْتُهُ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي النِّبَاهَةِ وَالنَّجَابَةِ قَدْ طَارَ ، يُبَاهِي جَمِيعَ مُلُوكِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ ، وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الرَّفِيعُ الْمُنْتَمَى وَالنُّجَارُ ، الرَّاضِعُ مِنَ الطَّهَارَةِ صَفْرِ أَلْبَانِ ^(٦) ، النَّاشِءُ مِنَ السَّرَاوَةِ وَسَطِ أَحْجَارِ ، فِي ضَنْضِيٍّ ^(٧) الْمَجْدِ ، وَيُحْبَوُحُ الْكَرَمِ ، وَسَرَاوَةُ أَسْرَةِ الْمَمْلَكَةِ الَّتِي أَكْنَافُهَا حَرَمٌ ، وَذَوَابَةُ الشَّرَفِ الَّتِي مُجَاذِبَتُهَا لَمْ تُرَمَ ، مِنْ مَعْشَرٍ أَيْ مَعْشَرٍ ، بَخِلُوا إِنْ وَهَبُوا مَا دُونَ أَعْمَارِهِمْ ، وَجَبْنُوا إِنْ لَمْ يَحْمُوا سِوَى ذِمَارِهِمْ ، بَنُو ^(٨) مَرِينٍ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا بَنُو مَرِينٍ :

سَمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ ^(٩)

.....

وَالطَّيْبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ

النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ

(١) الْقَعْقَاعُ بْنُ شُورٍ : تَابِعِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي حَسَنِ الْمَجَاوِرَةِ ، كَانَ إِذَا جَالَسَهُ وَاحِدٌ بِالْقَصْدِ إِلَيْهِ جَعَلَ لَهُ نَصِيبًا مِنْ مَالِهِ ، وَأَعَانَهُ عَلَى عُدُوهِ ، وَشَفَعَ لَهُ فِي حَوَائِجِهِ . (انظر المضاف والمنسوب ، وشرح القاموس مادة : قعقع) .

(٢) هُوَ سَفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ مَسْرُوقِ الثَّوْرِيِّ ، تَابِعِي مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الْحَدِيثِ .

(٣) الرِّيَابُ - بِالرَّاءِ الْمَشْدُودَةِ الْمَكْسُورَةِ - : الْجَمَاعَاتُ ، وَتُطْلَقُ عَلَى قِبَائِلِ عَوْفٍ وَثُورٍ وَأَشْيَبٍ وَضَبَةٍ عَمَّهُمْ ، سَمُوا بِذَلِكَ لِتَفَرُّقِهِمْ .

(٤) كَذَا فِي (ت) وَنَفَحَ الطَّيْبُ وَالِاسْتَقْصَا لِلْسَّلَاوِي . وَفِي (ط) : « نَاشِئَةٌ » .

(٥) فِي نَفَحِ الطَّيْبِ : « وَيَمُحِدُهُ » . (٦) فِي (ت) : « أَلْبَانِ » .

(٧) الضَنْضِيُّ : الْأَصْلُ . (٨) فِي (ط) : « فَبَنُو » .

(٩) هَذَا عَجَزُ بَيْتٍ ، وَصَدْرُهُ : « لَا يَبْعَدُنَ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ » . وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي يَلِيهِ مِنْ قَصِيدَةِ الْخُرْنَقِ بِنْتُ هِفَانٍ تَرثِي زَوْجَهَا وَابْنَهَا عَلَقَمَةَ وَأَخُوَيْهِ . (راجع الأملالي ج ٢ ص ١٥٨ طبعة دار الكتب) .

لَهُمْ مِنَ الْهَفَوَاتِ انْتِفَاءً ، وعندهم من السَّيْرِ النُّبوية اكتفاء ، انتسبوا إلى بَرِّ
ابن قَيْسٍ (١) ، فخرجوا في البرِّ عن القَيْسِ (٢) ، مألهم القديم المعروف ، قد
نَفَدَ في سبيل المعروف ، وحديثهم الذي نقلته رجال الزُّحُوف (٣) ، من طُرُق القنا
والسِّيُوف ، على الحَسَن من المقاصد موقوف (٤) ، تَحَمَّد من صغيرهم وكبيرهم ،
ذَابِلَهُمْ وَلَدَتَّهُمْ ، فَلله آباءٌ أَنجَبُوهُمْ ، وَأُمَّهَاتٌ وَلَدَتَّهُمْ :

* شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ * (٥)

إِلَيْهِمْ فِي الشَّدَائِدِ الْإِسْتِنَادُ ، وَعَلَيْهِمْ فِي الْأَزْمَاتِ الْمُعَوَّلُ ، وَلَهُمْ فِي الْوَفَاءِ
وَالصَّفَاءِ وَالِاحْتِفَاءِ ، وَالْعَنَایَةِ (٦) وَالْحِمَايَةِ وَالرَّعَايَةِ ، الْخَطُّ الْوَاسِعُ ، وَالْبَاعِ
الْأَطُولُ ، كَأَنَّمَا عَنَاهُمْ بِقَوْلِهِ جَرُولُ (٧) :

أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَسُوا أَحْسَنُوا الْبَنَى وَإِنْ عَاهَدُوا وَقُوا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا (٨) وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَرُهَا وَلَا كَدُّوا
وَتَعَذَّلْنِي أَبْنَاءُ (٩) سَعَدَ عَلَيْهِمْ (١٠) وَمَا قَلْتُ إِلَّا بِالتِّي عَلِمْتُ سَعَدُ

(١) هو بر بن قيس عيلان ، وإليه ينسب البربر . (انظر شرح القاموس مادة : بر) .

(٢) القيس : القياس والتقدير .

(٣) الزحوف : جمع زحف ، وهم الجماعة يزحفون إلى العدو بمرة .

(٤) في (ط) : « موصوف » .

(٥) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت من قصيدة يمدح بها الغساسنة ، صدره : « بيض الوجوه
كرمة أحسابهم » .

(٦) هذه الكلمة : « العناية » ساقطة في (ت) .

(٧) جرول : اسم الخطيئة الشاعر المخضرم المعروف .

(٨) رواية هذا الشطر في مختارات ابن الشجري : « وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها »

(٩) من مختارات ابن الشجري : « أفناء » . والأفناء : الأخلاط .

(١٠) يروى : « وقد لامنى أفناء سعد عليهم » .

ويقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه :

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لَجَارِهِمْ شَدُّوا الْعِجَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا (١)

يُزِيحُونَ عَنِ النَّزِيلِ كُلِّ نَازِحٍ قَاصِمٌ ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم (٢)
أَحَقُّ بِمَا قَالَهُ فِي مَنَقَرٍ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ (٣) :

لَا يَنْفُطُونَ لَعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحِفْظِ جَوَارِهِ قُطْنٌ (٤)

حَلَّاهُمْ هَذِهِ الْغَرِيزَةَ الَّتِي لَيْسَتْ بِاسْتِكْرَاهٍ وَلَا جَعْلٌ ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، دَامَ نَصْرُهُ ،
قَسَمُهُمْ فِيهَا حَذَوَ (٥) النَّعْلَ بِالنَّعْلِ ، ثُمَّ هُوَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ سِوَاهُمْ بِالْأَوْصَافِ
الْمُلُوكِيَةِ مُسْتَعْلٍ ، أَرْفَضَ مُزْنَهُمْ مِنْهُ عَنْ غَيْثٍ مَلَتْ يَمَحُو أَثَارَ اللَّزِيهِ (٦) ، وَانْشَقَّ
غَيْلُهُمْ مِنْهُ عَنْ لَيْثٍ ضَارٍ مُنْقَبِضٍ عَلَى بَرَائِنِهِ لِلْوُثْبَةِ (٧) ، فَقُلْ لِسَكَّانِ الْقَلَا :
لَا تَغُرُّكُمْ أَعْدَادُكُمْ وَأَمْدَادُكُمْ ، فَلَا يُبَالِي السَّرْحَانُ الْمَوَاشِيَ . سَوَاءٌ مَشَى إِلَيْهَا
النُّقْرَى أَوِ الْجَفَلَى (٨) ، بَلْ يَصْدِمُهُمْ صَدْمَةٌ تَحْطِمُ مِنْهُمْ كُلَّ عَرْنَيْنٍ ، ثُمَّ يَبْتَلَعُ بَعْدُ

(١) العِجَاجُ : عُرْوَةٌ فِي أَسْفَلِ الْغَرْبِ مِنْ بَاطِنٍ ، تُشَدُّ بِوُثَاقٍ إِلَى أَعْلَى الْكَرْبِ ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي
تَعْلُقُ فِيهِ الدُّلُ مِنْ عِرْقَوَاتِهَا ، فَإِذَا انْقَطَعَ الْكَرْبُ أَمْسَكَ الْعِجَاجُ الدُّلُ أَنْ تَقَعَ فِي الْبَثْرِ . يَرِيدُ أَنَّهُمْ
إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لَجَارِهِمْ أَحْكَمُوهُ .

(٢) كَذَا فِي (ط) . وَفِي (ت) وَنَفَعَ الطَّيِّبُ وَالْإِسْتِقْصَا لِلْسَّلَاوِي : « فَهَو » .

(٣) هُنُو مَنَقَرٍ : مِنْ قَيْمٍ ، مِنْهُمْ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ هَذَا .

(٤) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ أَبْيَاتِ لَقَيْسٍ مَطْلَعُهَا : « إِنِّي أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي حَسْبِي وَنَسِي يَفْنِيهِ وَلَا أَفْنِي »

(٥) كَذَا فِي (ت) وَنَفَعَ الطَّيِّبُ . وَفِي (ط) : « حَذُوك » .

(٦) الزِيَّةُ : الضِّيقُ وَالشَّدَّةُ .

(٧) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ النَّابِغَةِ : « وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَائِنِهِ لِلْوُثْبَةِ الضَّارِي »

(٨) مَشَى إِلَيْهَا النَّقْرَى أَوِ الْجَفَلَى ، أَيِ دَهْمِهَا وَحَدِّهَا أَوْ مَعَ غَيْرِهَا .

أشلائهم المعقرة ابتلاع التثنين ^(١) ، فهو هو كما عرفوه ، وعهدوه وألفوه ،
أخو ^(٢) المنايا ، وابن جلا ^(٣) وطلاع الثنايا ^(٤) ، مجتمع أشده ، قد احتنكت
سنه ^(٥) ويان رثده ، جاد مجد ، محتزم بحزام من الحزم ، مشمر عن ساعد الجد :
لا يشرب الماء إلا من قلب دم ولا يبيت له جار على وجل ^(٦)
أسدى القلب آدمى الرواء ، لا بس جلد النمر لذوى العناد والنواء ^(٧) :
وليس بشاوى عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم ^(٨)
ولكنه يسعى عليه مفاضة ^(٩) دلاص كأغيان الجراد المنظم ^(١٠)
فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوحاء الوحاء ^(١١) لاحقين به خاضعين ،
قبل أن تساقوا إليه مقرنين فى الأصفاد ، ويعيا الفداء بنفائس النفوس والأموال
على الفاد ^(١٢) ، حينئذ يعرض ذو الجهل والفدامه ^(١٣) ، على يديه حسرة وندامة ،

-
- (١) التثنين - بكسر أوله - : الحية العظيمة . (٢) فى (ط) : « وأخو » .
(٣) يقال : هو ابن جلا : للسيد الشريف الذى لا يخفى مكانه . .
(٤) الثنايا : جمع ثنية ، وهى العقبة . وطلاع الثنايا : من يسمو لمعالى الأمور .
(٥) احتنكت سنه : قويت تجاربه .
(٦) القلب : البئر . وهذا البيت من صيدة لأبى سعيد المخزولى . (انظر الأمالى ج ١ ص ٢٥٩ طبعة دار الكتب المصرية) .
(٧) النواء : المناواة ، وهى المعادة .
(٨) شاوى : صاحب شاء ، وهى الغنم . ورواية هذا البيت فى اللسان مادة (شوه) :
« ولست بشاوى عليه دمامة إذا ما غدا يقدو بقوس وأسهم »
وهوالذى بعده ليزيد بن عبد المدان .
(٩) رواية هذا الشطر فى اللسان مادة (عين) : « ولكنى أغدو على مفاضة » .
(١٠) المفاضة : الدرع . والدلاص : اللينة البراقة الملساء .
(١١) كذا فى الأصلين . والوحاء : السرعة . وفى نفح الطيب : « والوجل الوجل » .
(١٢) الفاد : القادى ، وهو من يفديهم بالمال .
(١٣) الفدامة : العى عن الحجة مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .

إذا رأى أبطال الجنود ، تحت خوافق الرايات والبُنود ، قد لَفَحَتْهم نار ليست
 بذات خُمود ، وأخذتهم مثل صاعقة الذين من قبلهم : عادٍ وثمود ، زَعَقَات
 سَبَطَانَات ^(١) تَوَز ^(٢) الكتائب أزا ، وهمزاً محققاً للخيل بعد المدّ المشيع للأعنة
 همزا ، وسلاً للهندية سلاً وهزاً للخطية هزاً ، حتى يقول النُسر للذئب : هل تُحسُّ
 مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ^(٣) . ثِقْ خليفة الله بذاك ، فى كل مَنْ رام
 أذى رعبتك أو أذاك ^(٤) ، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى فى ذوى الشقاق
 والنِّفاق ، الذين يَشُقُّون عصا المسلمين ، ويقطعون طريق الوفاق ^(٥) ، وينصبون
 حَبَائِل البَغْي والفساد فى جميع النُّواحى والآفاق ، فلنْ يجعلَهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ من
 الآمنين ، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا ؟ وهو سبحانه لا يُصلح عمل المفسدين ،
 ولا يهدى كيد الخائنين .

وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وُجوه صلواتِ التقديس والتعظيم ، بعد
 ما زينا معاطفها باستعطافكم بدرّ ثناء أبهى من دُرِّ العقد النظيم ، منتظمين فى
 سلك أوليائكم ^(٦) ، متشرفين بخدمة عليائكم ، ولا فَقْدَ عزة ولا عدمها ، مَنْ
 قصد مَثَابَتكم العزيزة وخدمها ، وإن المترامى على سنائكم ، لجدير بحرمتكم
 واعتنائكم ، وكل ملهوف تَبَوَّأ من كنفكم حصناً حصيناً ، عاش بقية عمره
 محروساً من الضيم مصوناً ، وقد قيل فى بعض الكلام : مَنْ قعدت به نكايه
 الأيام ، أقامته إغاثة الكرام ، ومولانا أيده الله تعالى ولى ما يَرْزُقُهُ إلينا من
 مكرمة بِكْر ، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف ^(٧) حسنِ الذكر ،

(١) سبطانات : جمع سبطانة ، وهى آلة يُرمى بها فى الحرب ، (موكدة) .

(٢) تَوَزهم : تحركهم بشدة . (٣) رِكْزاً : صوتاً خفياً .

(٤) كذا فى (ت) ونفع الطيب . وفى (ط) : « وأذاك » .

(٥) فى (ت) ونفع الطيب : « الرفاق » .

(٦) فى (ط) : « ومنتظمين فى سلك أولائكم » .

(٧) فى (ت) : « الصحائف » .

وَيَرَوِي مُعْنَعْنَ حَدِيثَ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ طَرَسُ عَنْ قَلَمٍ عَنْ بَنَانٍ عَنْ لِسَانٍ عَنْ فِكْرٍ ،
وغيره مَنْ يَنَامُ عَنْ ذَلِكَ فَيُوقِظُ ، وَيَسْتَرْسِلُ مَعَ الْغَفْلَةِ حَتَّى يُذَكِّرَ وَيُوعِظَ ،
وَمَا عَهْدُ مَنْذٍ وَجِدَ إِلَّا سَرِيعاً إِلَى دَاعِيِ النَّدَى وَالتَّكْرُمِ ، بَرِيثاً مِنَ الضُّجَرِ
بِالْمَطَالِبَةِ وَالتَّبَرُّمِ ، حَافِظاً لِلجَارِ الَّذِي أَوْصَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِهِ ،
مُسْتَفْرِغاً وَسَعَهُ فِي رَعْيِهِ الْمُسْتَمِرِّ وَلِحَظِهِ ، آخِذاً مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي جَمِيعِ
الْأَوْقَاتِ وَالْأَنَاءِ بِحَظِّهِ :

فَهُوَ مِنْ دَوَّحَةِ السَّنَا فَرَعٌ عَزِزٌ	لَيْسَ يَحْتَاجُ مُجْتَنِيهِ لَهْزٌ
كَفُّهُ فِي الْإِمْحَالِ أَغْزَرُ وَيَلٌ	وَذَرَاهُ فِي الْخَوْفِ أَمْنَعُ حِرْزٌ (١)
حَلْمُهُ يُسَفِّرُ اسْمَهُ لَكَ عَنْهُ	فَتَفْهَمُ يَا مَدْعَى الْفَهْمِ لُغْزِي (٢)
لَا تَسْلُهُ شَيْئاً وَلَا تَسْتَنْلِيهِ	نَظْرَةٌ مِنْهُ فِيكَ تُغْنِي وَتُجْزِي
فَنَدَاهُ هُوَ الْفَرَاتُ الَّذِي قَدْ	عَامَ فِيهِ الْأَنَامُ عَوْمَ الْإِوْزِ
وَحِمَاهُ هُوَ الْمَنِيْعُ الَّذِي تَرَى	جَعَّ عَنْهُ الْمَخْطُوبُ مَرْجِعَ عَجْزِ
فَدَعُّوا ذَهَنَهُ يَزْوَالَ قَوْلِي	فَهُوَ أَدْرَى بِمَا تَضْمَنُ رَمْزِي
دَامَ يُخَيِّسِي بِكُلِّ صُنْعٍ وَمَنْ	وَيَعَافِي مَنْ كُلِّ بَوْسٍ وَرَجْزِ

وَكَأَنَّاهُ بِهِ قَدْ عَمِلَ عَلَى شَاكِلَةِ جَلَالِهِ ، مِنْ مَدِّ ظِلَالِهِ ، وَتَهْيِيدِ خِلَالِهِ ، وَتَلْقَى
وَرُودَنَا بِحَسَنِ تَهْلِيلِهِ وَاسْتِهْلَالِهِ ، وَتَأْنِيْسِنَا بِجَمِيلِ قَبُولِهِ وَإِقْبَالِهِ ، وَإِيرَادَنَا عَلَى
حَوْضِ كَوْنِهِ الْمُتَرَعِّعِ بِزُلَالِهِ . وَاللَّهُ [سُبْحَانَهُ] (٣) يُسَعِّدُ مَقَامَهُ الْعَلِيِّ ،
وَيُسَعِّدُنَا بِهِ فِي حَلِّهِ وَارْتِحَالِهِ ، وَمَالِهِ وَحَالِهِ ، وَيُؤَيِّدُ جَنْدَهُ الْمَظْفَرِ ، وَيُؤَيِّدُنَا
بِتَأْيِيدِهِ عَلَى نِزَالِ عَدُوِّهِ وَاسْتِنْزَالِهِ ، وَهَزْأِ الذَّوَابِلِ (٤) لِإِطْفَاءِ ذُبَالِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ

(١) ذَرَاهُ : كَنَفُهُ .

(٢) لَعَلَّهُ يَرِيدُ أَنَّ الْحَلْمَ يَلْحَظُ فِي اسْمِهِ (الشَّيْخُ) ، لِأَنَّهُ مَعَ الشَّيْخُوخَةِ الرِّزَانَةُ وَالْهَدْوُ .

(٣) زِيَادَةُ عَنْ نَفْعِ الطَّيِّبِ . (٤) الذَّوَابِلُ : الرِّمَاحُ ، جَمْعُ ذَابِلٍ .

وتعالى المستول أن يُريه قُرّة العين في نفسه وأهله وخُدّامه وأمواله ،
وأنظاره ^(١) وأعماله ، وكافة شتونه وأحواله . وأحق ما نصل بالسّلام وأولى ،
على المقام الجليل مقام الخليفة المولى ، أزكى الصلاة والسلام على خاتمة ^(٢)
أنبياء الله وأرسله ^(٣) ، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله ،
صلاة وسلاماً دائماً دائمين أبداً ، موصولين بداوم الأبد واتصاله ، ضامنين لمجدّهما
ومردّدتهما صلاح فاسد أعماله ، وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعالى
وإذنه وفضله وإفضاله .

« انتهى الكتاب ، وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار ، بما فعلته الدنيا
مع الملوك الأعظم الكبار » .



(١) كذا في (ط) ونفع الطيب . والأنظار : جمع نظر ، وهو مصدر ، يراد به ما يتولى النظر
عليه من الأعمال . وفي (ت) : « أقطاره » .

(٢) كذا في (ط) ونفع الطيب . وفي (ت) : « خاتم » .

(٣) يريد رسله : والأرسال : غير مسموع في هذا المعنى .

دكتور رشدي فكار

● المؤهلات . والعمل . والإنتاج .. باختصار :

- من مواليد الكرنك بمحافظة قنا - جنوب مصر العربية .

- بعد أن التحق بمعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر وتخرج منه وحصله على البكالوريا الفرنسية أيضاً بالمعادلة ، وأصل دراسته فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوريون ، حيث تخرج منه بحصوله على دبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصل فى نفس الوقت على ليسانس الآداب « تخصص فلسفة بالمعادلة » من جامعة جنيف .

- حصل على دبلومين فى الدراسات العليا من باريس أحدهما فى الاجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

- حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦

- تُوِّجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عام ١٩٦٧

* * *

● الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضوية فى الأكاديميات العالمية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، وإقرار ترشيحه لجائزة نوبل فى الآداب منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٦٧ :

- مكلف بمحاضرت بالسوريون فى القسم العلمى للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

- محاضر فى جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .

- عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الإجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيو شاتل (١٩٦٢ - ١٩٦٣) .

- أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤
- أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨
- أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى .
- شارك فى الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة فى الجامعات الأوروبية والعربية .
- ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤمراً عالمياً مثل :
- عضويته لجمعية استرنبرج الإسكندنافية بالسويد .
- عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » (A . D . E . L . F .) بباريس .
- انتُخبَ عضواً مشاركاً فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم بمجامع الخالدين - دائرة ما وراء البحار - منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣
- أقرّ ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية « لجائزة نوبل فى الآداب » منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :
- أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » ، وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم « الكسو » . والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..
- إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

* * *

● الإنتاج العلمى :

- يتجاوز إنتاجه العلمى حالياً ١٤٠ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ،
وتعليقات باللغة الفرنسية أساساً ، والعربية والإنجليزية .

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يراجع « الكتالوج الدولى لجامعة جنيف ..
وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس » ..

* * *

● فى الإنتاج العالمى بالفرنسية والإنجليزية ...على سبيل المثال :

- السوسنيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصول الماركسية
فى مجلدين (عدة طبعات فى عدة لغات) عن دار النشر العالمية « دولا
شونستليه - نيوشاتل وباريس » سنة ١٩٦٨

- المراهنة الصناعية فى خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء فى الأكاديمية
الفرنسية ، وأستاذة من الجامعات فى دول الكتلة الشرقية خصوصاً المجلد
الخامس عن « الصناعة وأزمة الحضارة » منشورات « دى نويل » .. « كويلج
دى فرانس » والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢

علم الاجتماع ، وعلم النفس والإنشروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى
عالمى ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية
والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جتنير (١٩٨٠ - ١٩٨١) .

* * *

● وفى الإنتاج بالفرنسية عن العالم العربى والإسلامى :

- نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى - الفرج بعد الشدة - عن
دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥

- تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات - عن دار النشر العالمية
ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣

- انعكاسات السوسيولوجية الوضعية وأصول الماركسية فى العالم العربى ..
عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس سنة ١٩٧٤
- أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى . عدة طبعات عن دار
النشر العالمية جتنير بباريس ١٩٧٣
- الحياة اليومية فى مصر إبّان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية
ميزونيف سنة ١٩٧٥

* * *

● فى الإنتاج باللغة العربية :

- دراسات أنثروبولوجية اجتماعية « السحر وما حوله » دار النجاح -
بيروت سنة ١٩٧٣ .
- الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف - الرباط ١٩٧٤
- أوجيست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام (منشورات
مركز البحث العلمى) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨
- وضعية الدراسات السوسيولوجية فى المشرق العربى (منشورات مركز
البحث العلمى الجامعى) بالرباط سنة ١٩٧١
- الإسلام بين دعائه وأدعيائه - الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦
- الماركسية والدين - الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر
(الإنتاج العالمى) سنة ١٩٧٩
- فى البغاء الوحشى - القاهرة - مكتبة وهبة . والرباط - المكتبة الجامعية
سنة ١٩٧٩
- تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع .. فى مجلد موسوعى -
القاهرة - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠
- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. فى مجلد - القاهرة - مكتبة وهبة
سنة ١٩٨٠

- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر -
مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢

- فى الاجتماع العربى الإسلامى .. نحو نظرية حوارية إسلامية - فى ثلاثة مجلدات - المجلد الأول : لماذا حوارية ولماذا إسلامية ؟ ، المجلد الثانى : بين الليبرالية بنظمها الرأسمالية والمرسلة ، والاشتراكية بنظمها الماركسية والمتمركسة ، المجلد الثالث : لأمتنا فى واقعها المعاصر - دار النشر العالمية جنتير - باريس سنة ١٩٩٠ .

- خميس البكرى - د . رشدى فكار الفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول مشاكل العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦

- خميس البكرى - د . رشدى فكار الفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٨

- سيد أبو دومة - د . رشدى فكار الفكر الإسلامى العالمى .. ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٩

- سيد أبو دومة - د . رشدى فكار الفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس - مكتبة وهبة سنة ١٩٩١

إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة .

* * *

● ومن أحدث مؤلفات الدكتور رشدى فكار . كما أشرنا سلفاً :

- موسوعة ضخمة فى علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر فى مضامين هذه العلوم على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة - تعتبر منعرجاً هاماً فى القتين المعرفى « الابتسومولوجى » لفاهيم علوم الإنسان الأساسية ونظرياتها الرئيسية ..

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

٣ تقديم
٧ الحلقة الأولى : بداية التعارف مع الأندلس
١٣ الحلقة الثانية : وماذا عن إقلاعه في عصر الولاة
٢٠ الحلقة الثالثة : ثم ماذا عن استقراره في عصر الإمارة
٢٧ الحلقة الرابعة : والتحول إلى الخلافة
٣٣ الحلقة الخامسة : نهاية الخلافة من خلال الفتن والمؤامرات
٣٨ الحلقة السادسة : دويلات الطوائف في عصر الفرق (منذ بداية التمزيق والتطاحن مروراً بالإنقاذ المراهطي والموحدي حتى الاحتضار حول غرناطة الحبيسة)
٤٨ الحلقة السابعة : وماذا عن غرناطة الحبيسة
٥٥ الحلقة الثامنة : في بؤر الضياع بين الحاسرين
٦٦ الحلقة التاسعة : في بؤر الضياع بين البكائين والمتباكين
٧٩ الحلقة العاشرة : في قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين
٨٩ الحلقة الحادية عشر : في قلاع المجد مع المجتهدين والمبدعين
١٠٤ الخاتمة

ملحقات

(١٤٧ - ١٠٩)

١١١ تقديم
١١٣ ملحق (١) الوثيقة الأولى : قصيدة الرندي
١١٦ ملحق (٢) الوثيقة الثانية : خاصة ليوسف بن تاشفين
١١٨ ملحق (٣) الوثيقة الثالثة : كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس
١٤٨ دكتور رشدي فكار : المؤهلات ، والعمل ، والإنتاج الفكري
١٥٣ محتويات الكتاب

* * *

إسلاميات

(سلسلة العالم العربى الإسلامى)

للدكتور رشدى فكار^(١)

● عن دور النشر العالمية :

- الفرج بعد الشدة عند مفكرى الإسلام ، لاهى بخهوف ، باريس ، أدريان ميزونيف مجموعة كارنو (١٩٥٥) .
- تأملات حول الإسلام : أسس العقيدة والجانب الاجتماعى ، باريس . ميزونيف ولاروز (١٩٧٢) وفى عدة طبعات أخرى .
- أصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٢) وفى عدة طبعات .
- انعكسات السوسيولوجيا الوضعية فى العالم العربى ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٤) وفى عدة طبعات .
- الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، باريس ، ميزونيف ولاروز (١٩٧٥) .
- فى الاجتماع العربى الإسلامى .. نحو نظرية حوارية إسلامية - فى ثلاثة مجلدات - المجلد الأول : لماذا حوارية ولماذا إسلامية ؟ ، المجلد الثانى : بين الليبرالية بنظمها الرأسمالية والمرسلة ، والاشتراكية بنظمها الماركسية والمتمركسة ، المجلد الثالث : لأمتنا كفى واقعها المعاصر - دار النشر العالمية جتنير - باريس (١٩٩٠) .

(١) لمزيد من التفصيل عن الإنتاج الكامل للدكتور رشدى فكار بالفرنسية والعربية والإنجليزية، يراجع : كتالوج جامعة جنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لأهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع نبذة عن سيرته المودعة بمؤسسة « نوبل » باستكهولم - السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) .

- عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :
- الفكر التقدمى فى أوروبا وأثره فى الشرق (١٩٥٩) .
- عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :
- السحر وما حوله ، مع ملحق عن إنسان القرآن ، دراسة أنثروبولوجية اجتماعية (١٩٧٣) .
- عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع بالقاهرة (بالعربية) :
- تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع - فى مجلد (١٩٨٠) .
- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى (١٩٨١) .
- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر - الطبعة الأولى (١٩٨٢) .
- خميس البكرى : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى فى حوار متواصل حول مشاكل العصر (١٩٨٦) .
- خميس البكرى : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين (١٩٨٨) .
- سيد أبو دومة : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى .. ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب (١٩٨٩) .
- سيد أبو دومة : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس (١٩٩١) .
- عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :
- أمصريون فقط ؟ حوار مطوّل حول القضايا الأيديولوجية المعاصرة ، فى كتاب عن الدكتور رشدى فكار وضعه الكاتب المصرى المعروف على الدالى (١٩٧٦) .

رقم الإيداع : ١٩٩١ / ٢٢٧٧

I. SB. N 977 - 225 - 007 - 1

- Khamis el-Bakry , Dr. Rouchdi Fakkar en Dialogue Avec les Problemes de l'héritage culturel des musulmans . (1988) .
- Sayed Abu Doma , Dr. Rouchdi Fakkar Penseur Islamique Mondialement connu et la Fin des Géants dans La Civilisation Occidentale . (1989) .
- Sayed Abu Doma , Dr. Rouchdi Fakkar , Penseur Islamique Mondialement Connu en Dialogue Autour Du Présent Dans Le Passé à Travers Al - Andalus . (1991) .
- Editions, Maison du peuple , Le Caire (en arabe):
 - Long dialogue sur les problèmes idéologiques , contemporains à travers la pensée de Dr. Rouchdi Fakkar , ouvrage sur lui , élaboré par l'écrivain égyptien , bien connu Ali Dali . (1976) .

* * *

**" DE LA SOCIOLOGIE ARABO - MUSULMANE " VERS
UNE THÉORIE DIALOGUISTE ISLAMIQUE , 3 Volumes .
Volume I , Pourquoi Dialoguiste et Pourquoi Islamique .
Volume II , Entre Libéralisme avec ses régimes Capital-
istes ou capitalisants et Socialisme avec ses régimes
marxistes ou marxisants . Volume III , Pour notre Nation
dans sa réalité contemporaine , Paris , Geuthner , 1990 .**

*** * ***

- **Edition AL-Hilal , Le Caire (en français) :**
 - **La pensée progressiste en Europe et son influence en Orient . (1959) .**
- **Edition Dar Al najah , Beyrouth (en arabe) :**
 - **La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale . (1973) .**
- **Edition Wahbah , Le Caire (en arabe) :**
 - **Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société . I vol . (1980)**
 - **Vues musulmanes sur l'Homme et la société après 14 siècles , (1981) .**
 - **Methodologie et dialogue . (1982) .**
 - **Khamis el-Bakry , Dr . Rouchdi Fakkar en Dialogue Avec les problèmes de Notre Temps . (1986) .**

ISLAMIATE

(Serie du Monde arabo - musulman)

de Dr. R. FAKKAR (1)

● Editions Internationales :

- La Délivrance après l'Angoisse , La Haye , Nijhoff , Paris, Adrien Maisonneuve , Collec . Garnot , 1955 .

-Réflexions sur l'Islam , fondement de croyance et aspect social , Paris , Maisonneuve et Larose , 1972 et plusieurs éditions .

- Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe , Paris , Geuthner , 1972 et Plusieurs éditions .

- Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe , Paris , Geuthner , 1974 et plusieurs éditions .

- Aspects de la vie Quotidienne en Egypté , Paris , Maisonneuve et Larose , 1975 .

(1) Pour les oeuvres completes de Dr . R . Fakkar : ouvrages principaux et autres travaux , en français , en anglais , et en arabe voire , Catalogue de la Bibliothèque de l'Université de Genève , Lettre F ., La Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiées jusqu'a 1981 et déposée a la fondation Nobel , Stockholm et Catalogue de la Bibliotheque Nationale de Paris , Lettre F .

Première édition

1411 H . - 1991

TOUT DROIT EST RESERVE

رقم الإيداع : ٢٢٧٧ / ١٩٩١

I. SB. N 977 - 225 - 007 - 1

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

Dr . ROUCHDI FAKKAR
PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU
MEMBRE DU CONSEIL SUPREME DE CULTURE EN EGYPTÉ

**EN DIALOGUE AUTOUR
DU PRÉSENT DANS LE PASSE
À TRAVERS AL - ANDALUS**

Introduit et présenté

par

SAID ABOU DOMA

EDITION , WAHBAH LIBRAIRIE

14 Rue , GAMHORIYAH

LE CAIRE

1991

CE LIVRE

Ce livre qui porte comme titre : Dialogue autour du présent dans le passé à travers AL ANDALOUSIE est le quatrième volume d'un dialogue continu avec le professeur Docteur ROUCHDI FAKKAR , penseur islamique , mondialement , Connu .Composé d'un index et de onze entretiens , dont sept consacrés aux différentes époques de AL ANDALOUSIE depuis le début de la conquête (92 H . 711 J . C) jusqu'à la chute de Grenade (1492) en passant par les époques de WOLATS , d'EMIRATES au KHILAFAH et la dispersion en TAWAIFS .

Les quatres autres entretiens contiennent une valorisation sous la forme d'un bilan de la réalisation de AL ANDALOUSIE dans les divers domaines , ainsi que les causes de sa dégradation et ses pertes .

Al ANDALOUSIE de grand leaders , de mofassirs , de Mohadiths , de Faqihs , des Historiens , de Géographes , de poètes , de philosophes , des Artistes , à côté des Intrigands des Compilateurs , des Agitateurs professionnels , même des Charlatans etc est un mélange de contraste qui correspond a une entité historique incomparable qui a laissé des traces ineffaçables , non seulement sur le plan de la civilisation de l'Islam , mais aussi sur le plan de la civilisation occidentale et ses origines .

Introduit et présenté par l'écrivain islamique SAID-ABOUDOMA , déjà , bien connu de lecteurs arabes comme l'un de meilleurs rédacteurs de journal " AL AHRAM " du Caire et auteur également d'un ouvrage sur notre grand penseur FAKKAR .

Dialogue autour du présent dans le passé à travers AL ANDALOUSIE est un ouvrage bien conçu , rédigé dans un style simple et directe , s'appuyant sur des textes authentiques qui s'échelonnent sur huit siècles environs et présentant un portrait vivant de ANDALOUSIE dans ses grandeurs comme dans ses décadences , trouve , sans doute , une place du choix au sein de la bibliothèque arabe Contemporaine .

EDITION , WAHBAH LIBRAIRIE

Dr . ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

MEMBRE DU CONSEIL SUPREME DE CULTURE EN EGYPTE

EN DIALOGUE AUTOUR
DU PRÉSENT DANS LE PASSÉ
A TRAVERS AL - ANDALUS

EDITION , WAHBAH LIBRAIRIE

14 Rue , GAMHORIYAH

LE CAIRE

1991

Introduit et présenté

par

SAID ABOU DOMA

